الجَرَّة المَشْروخة

عَقَباتٌ في سَبيلِ الحقّ

محمد فتح الله كولن



سلسلة الجرة المشروخة (١٥)

عقبات في سبيل الحق

الطبعة الأولى

رقم الإيداع

2016/16101

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-801-020-6

رقم النشر

1049

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 جـ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax:002 02 25379391

Mobile: 002 01023201002

E-mail: info@daralnile.com

www.daralnile.com

الجَرَّة المَشْروخة

عَقَبَاتٌ في سَبِيلِ الحَقّ

تأليف

محمد فتح الله كولن

ترجمة

د. عبد الرازق أحمد



فهرس

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على إمامِ الدعاةِ وقدوة المهاجرين، سيدنا محمد بن عبد الله رحمة الله للعالمين، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيارِ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

يُقال في الأمثال الرائجة "تتّضح الرسالة من عنوانها"، وكذلك فإنّ من يتناول هذا الكتاب الذي بين أيديكم فإنه يفهم موضوعه من عنوانِه الجامع المانع "عقبات في سبيل الحق".. فهو يتناول مرحلة دقيقة وحساسة من مراحل السير والسلوك إلى الله، وهي مرحلة العقبات والعراقيل ووضعِ العصيّ في العجلات، والتي هي قدرٌ محتومٌ على جميعِ الأنبياءِ والمرسلين والمُصلِحين والمجدّدين.

وليس من دَيدان المؤلّف حفظه الله أن يتناول الداء بعيدًا عن الدواء، ولا أن يشجُب القدرَ بمعزِلٍ عن العمل الدؤوب، بل إنه يتناول العقبات ويُردِفها بسبلِ الخلاص منها، ويعرض الداءَ متبوعًا بالدواء، وينصّ على المفاهيم الدينية التي ينبغي على رواد الطريق أن يتحلوا بها في هذه المرحلة العصيبة من تاريخ مسيرتهم في سبيل الحق.

وبين دفتي هذا الكتاب نجد المؤلّف يحوم بحرفيّة ومهارة دقيقتين حول الضريبة التي قُدِّرَ على سالكي طريق الحق أن يقدموها، وحول الثمن الباهظ الذي يُفرض على حملة اللواء، فيُحضِّر السالكين ويُعدّهم لتحمّل مثل هذه المشاقّ، ويذكّرهم بإخوانهم الذين سبقوهم في هذا الطريق، ويصقل أرواحهم بما يتناسب مع السيرِ في سبيل الحق المليءِ بالعقبات والعراقيل.

وبالمثال يتّضح المقال، فلنسلِّط الضوءَ على شيءٍ من تلك التوجيهات الراقية، إذ إنه عندما يتناول ما تتعرّض له الخدمة ورجالُها من ابتلاءات واتّهامات، وما يوضَع في طريقها من عراقيل وعقبات، وما تعيشه من هجرة قسريّة واعتقالات؛ تراه يستدعي تاريخَ الإنسانية المليء بما يُشبه هذا النوع من المحن والابتلاءات، فيضرب المثل بنوحٍ عليه السلام وهجرته البحرية، وإبراهيم عليه السلام ومراحل هجرته المقدّسة المتنوعة الأطوار، وموسى عليه السلام الذي كُتبت عليه الهجرة وهو رضيعٌ في مهد أمه، إلى جانب ما قدمه يحيى وزكريا عليهما السلام من تضحية فريدة أدت إلى استشهادهما وبذلِ أنفسهما في هذا السبيل، ثم يعرّج على إمام الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ويُنبّه إلى أن هذا الأمرَ قدَرٌ مشترك بين جميع الأنبياء والأولياء، وينقل لنا تلك الصورة القلمية وكأنها حيّة أمام أعيننا، عندما ألقى النبي نظرة الوداع على ربوع وطنه مكة قائلًا: "**أَمَا وَاللهِ لأَخْرُجُ مِنْكِ وَإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكِ أَحَبُّ بِلادِ اللهِ إِلَيَّ وَأَكْرَمُهُ عَلَى اللهِ؛ وَلَوْلا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مَا خَرَجْتُ**" .

ثـم يعرض ما عاشـه السـلف الصالـح مـن آلام ومصائب على ذات الطريـق، فيُذكِّرُ بمحنة الإمام أحمـد بن حنبل، ومن قبله الإمام أبـي حنيفـة النعمان، وكذلـك كيف ألَّف الإمام السرخسـي كتابه في محبسـه، وفي عقبهم بديـع الزمان سـعيد النورسي وما تعرّض له من ظلم وحبسٍ وتشريد، إلى أن يختم بعد ذلك العرض المفصّل قائلًا:

"أجل، إن الراحلين في سبيلِ إعلاءِ كلمةِ اللهِ لم يفارقْهم الألـمُ والبلاءُ لحظةً من اللحظات.. وهكذا، فما بين المعاناة والمكابدة والغربة... كان ذلك هو القَدَرُ المشترَكُ بين كلِّ من يسلك طريقَ تبليـغ وتمثيل الحق والعدل..".

ثـم يضـعُ نفسـه ومحنتـه وحركتـه في مكانهـا اللائـق من تلك المنظومـة التـي ملأت أحقـاب التاريخ وحيـاةَ الأنبيـاء، فيقول بكل تواضـعٍ وأدب:

"وإن الظلمَ الذي أَقَعُ تحت وطأته حاليًّا يُشْـبِهُ تقريبًا ما تعرَّضَ له أسـلافُنا جميعًا، وثمة أمرٌ يحسُـنُ توضيحُهُ لِبَعْضِ ضِعافِ الفهمِ أو لِلمَهَرَةِ في التحريفِ والتزييفِ ألا وهو: أنني لسـتُ أرى نفسـي في مقام الأنبياء أو الأولياء الذين ذكرتُهم آنفًا هنا، وإنما أُذكِّرُ بأسـمائهم وما عانوه وعاشـوه فحسـب؛ لأنهم القدوة والمرشـد بالنسـبة لكل مؤمن، واتّباعُ منهجهم ومحاولةُ اقتفاء آثارهم في حياتنا وسيلةُ نجاتنا وفَلاحِنا.

إننـي إنسـان بسـيطٌ أُدركُ جيّـدًا مدى عجـزي وضعفي، ولذلك فإنه طبيعيٌ أنْ أتأثَّرَ ببالـغِ الحزنِ من بعضِ الاتهامات وأن تسـتثقلَها روحـي تمامًـا، غير أنه وبالرغم من كل شـيء ينبغي للمؤمن أن يتخلَّقَ بأخلاقِ الله، فالله تعالى يرأفُ ويلطُفُ

حتى بعباده العاصين المذنبين المخطئين ويرزقُهم ويُطْعِمُهم ويسقيهم، وعلى العبدِ المؤمنِ أيضًا أن ينظرَ ويقتربَ إلى الآخرين من هذه الزاوية، وينبغي له حتى حين يتأزَّمُ ويسأمُ للغاية في مواجهة المظالم والجور والاستبداد أنْ يكِل إلى الله تعالى فحسب أمرَ من يُعادُونَهُ ويُخاصِمونه؛ فيلجأ إليه سبحانه قائلًا: "اللهم إنني أُحِيلُ إليك أمرَ من يُعادون أهلَ الإيمان ويبغضونهم"، وعليه أن يهتمَّ بواجباته دون أن يأبَهَ بهذا وذاك، ودون أن يشغل عقلَه وبالَهُ بهم، وأنْ يواصل السير في الطريق الصحيح منتصبًا صامدًا كالألِف".

إنه -ومن خلال هذا الكتاب الذي يخاطب أعماق الروح المؤمنة- يحضُّ السالكين على أن يكونوا كأشجارِ الدلب الشاهقة في مواجهة العواصف العاتية، فلا يتغيّروا ولا يتبدّلوا، ولا يدوروا مع المصالح حيثما تدورُ، وألا يختلف شأنُهم في أيام المحن والأزمات ولو قيدَ شعرة عن شأنِهم في أيام الرخاء والمسرّات، فيقول:

"على المؤمنين بحسب قيمهم الأساسية ألا يُغيِّرُوا تصرُّفاتهم وفقًا للظُّروف والأحوال التي تطرأ، وأنْ يعلموا جيِّدًا أنَّ شرفهم يتمثَّل في أسلوبهم أثناء مواجهة أكثر الاعتداءات غدرًا وجورًا، وينبغي لهم أن يثبتوا على الطريق المستقيم دائمًا كما هو شأنهم في غير أوقات المحن والأزمات، لدرجة تكفلُ لِمَنْ يبغي استقراءهم وفهمَهم ألَّا يَجِدَ أبدًا أيَّ تناقضٍ يُشكِّل نوعًا من الريب والشك في الأذهان، وإلا فلا يوثق فيهم، وبالتالي يستحيل عليهم أن يحقِّقُوا تقدُّمًا في إبلاغ الآخرين إلهاماتِ أرواحهم.

على المؤمن ألا يكون كأوراق الشجر التي تذروها الرياح، بل يجب عليه أن يتمثل موقفًا ثابتًا دائمًا لا يتزعزع، مثله في ذلك مثل الأشجار الضاربة جذورها في أعماق الأرض، وكما يُحدِّثُنا علماءُ النبات فإن هناك أشجارًا في بعض البلاد سرعان ما تنقلع بسبب ضعفِ جذورِها إذا ما هبَّتْ ريحٌ عاتيةٌ أو نزلَ الثلجُ بكثافةٍ أكثر، حتى إن لِينَ التربة قد يكون سببًا كافيًا لتهاوي هذه الأشجارِ وتحطُّمها دون حاجة لأيِّ سببٍ خارجيٍّ، أما في بعض البلاد فهناك أشجارٌ تضرب بجذورها -ربما كي تعثرَ على الماء- بضعةَ أمتار في أعماق الأرض، وبهذه الطريقة فإنّها تصمدُ وتكون أكثر ثباتًا ومقاومةً رغم العواصف الشديدة، وهكذا ينبغي للإنسان المؤمن أن يكون.

أما مَنْ يُغيِّرون مواقفهم باستمرار بحسب طبيعة الظروف التي يتعرَّضون لها، ويُجسِّدون مواقف نفعيّة تدورُ مع المصالحِ حيثما دارت؛ فإنّهم يفقدون أمانتهم عند الناس بعد فترة ما فلا يثقون فيهم، فلا بدَّ من الصمود والثبات على الموقف والمحافظةِ على المنهج الصحيح لِكسب ثقة الناس، ينبغي ذلك؛ لدرجة أن من جَسَّ نبضكم وسمع دقَّاتِ قلوبكم قبلَ عشرين سنة يجد نفسَ النبضات والدقّات حين يُعيد اليومَ جسَّ نبضِكم وسماعَ دقّات قلوبكم لا تتغيَّر رغمَ ما تتعرضون له من شتى صنوف الابتلاءات والأزمات والضغوط والنوازل والمحن".

وفي نهاية المطاف يوجّه السالكين إلى أفقٍ محمّديٍّ صِرف، أشبه ما يكون بأفق "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، فيقول في معرضِ حديثه

عـن كيفيّة مواجهـة مفتعلي تلك الأزمات وصنّـاع تلك العقبات في مقاله "الوفاق والاتّفاق من جديد" ما نصُّه:

"قد يُسيء لكم البعضُ بإساءات لا يَتصورُ عقلٌ حدوثَها، ويضـع الأشـواك والأحجـارَ في طريقكم حتـى يمنعكم من السير، ويقوّض الجسور التي تمرون عليها ليعرقل مسيرتكم، ويرغـب فـي أن يعزلكم كلّيةً عن المجتمـع، ولكن إن كنتم تريدون أن تكونوا صروحًا للفضيلة وتصِلوا للوفاق والاتفاق فعليكـم أن تتغاضـوا عـن كلِّ هـذا وتسـتمرُّوا فـي طريقكم قائلين: "لا شيءَ يدوم!".. فإن انهدَمَت الجسورُ التي تسيرون عليهـا فأقيمـوا جسـورًا بديلـة جديدة لأنفسـكم فـي أماكن أخرى، واستمروا في طريقكم بفضلٍ من الله وعنايته، حذِرِينَ مـن الوقوعِ في الخلاف، حتى وإن كان الآخرون قد اتَّخَذُوا الخلافَ شعارًا لهم.

سيأتي يومٌ يَفِدُ عليكم فيه بعضُ مَن كانوا يسيؤون إليكم فيُعربـون عـن ندمهـم، وحينئـذ يجـبُ أن يجدوكـم على ما كنتـم عليه، فإن طلبوا الاعتذار منكم فتعاملوا معهم بشـهامة ومـروءة، وقولـوا لهم: "معـاذ الله، لا علمَ لنا بهـذا، إننا دائمًا نشعرُ أنكم إلى جانبنا في نفسِ الخندقِ على الدوام".

نعـم. اِفْعلـوا هذا رغمَ أن الواقـعَ يشـهدُ بأنهـم كانوا قد ابتعـدوا عنكم فراسـخ عددًا نتيجة الحسـدِ والغيـرةِ؛ وبأنَّهم دائمًـا ما كانـوا يؤلّبون الغيـر عليكم قائليـن: "اقطعوا عليهم طريقهـم، ونالوا منهم، ولا تعترفوا لهم بحق الحياة"! وبأنهم حينمـا كانـوا يرتكبون هـذا الظلم لم تكـن بحوزتهم حجج

معقولـة تقرّهـم علـى مـا يفعلون، بـل كان دافعهـم إلى هذا الحسـد والغيرة ليس إلا، ولا شـك أن شعور التنافسِ يكمن حتى داخل أكثر الناس صفاءً وطُهرًا، فيحاول بعضهم احتكارَ بعض المجالات لنفسه ولا يسمح للآخرين بالمشاركة فيها.

وهكـذا فإنهـا لَميـزةٌ عظيمـة بالنسـبة لأرباب الحـقِّ أن يتغاضوا عن كل هذا، ولا يعتدّوا به وكأنه ما كان، وأن يثبتوا على موقفهم".

وأخيـرًا وليـس آخـرًا: فإننا نتقـدم بخالص الشـكر والتقدير إلى فضيلـة الأسـتاذ فتـح الله كولـن على ما قدّمـه من إرشـادات لحملة اللواء، وتوضيحٍ لمقدّرات الطريق، وتذليلٍ لعقبات السـبيل، ونتمنى له دوام الصحة والعافية، وننتظر منه المزيد..

أغسطس/آب (٢٠١٦م)

دار النيل للنشر والتوزيع

الوقت وقت الهم والحزن

سؤال: إننا في عالمنا المعاصر دائمًا ما نتعرَّضُ ونواجِهُ حوادث تكوي القلوب، ومع ذلك فلا نرى أنفسنا نتأثَّر بها كما ينبغي، فما هي أسـبابُ عجزِنا عن مثل هذا التأثُّرِ؟ وكيف ينبغي لنا أن نتصرَّف حتى نكون عبادًا مؤمنين يَقِظِينَ؟

الجواب: ثمة دوائر مختلفة يرتبط بها الإنسان بدءًا من أقربها منه وصـولًا إلـى أبعدها عنه؛ بحيث يُشـكِّل الفردُ نقطـة المركز في تلك الدوائر، وبتعبير آخر: فمن الطبيعةِ والفطرةِ أنَّ نَفسَ الإنسان هي أوَّلُ ما ينشَـغِلُ به، وما ذُكِرَ في القرآن الكريم من التعبير عن بدءِ الإنسـانِ بنفسـه في طلبِ المغفرةِ: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِـوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ**﴾ (سورة إِبْرَاهِيمَ: ٤١/١٤)، و﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ (سـورة نُوحٍ: ٢٨/٧١) يُشِـيرُ في أحدِ معانيهِ إلى هذا الموقفِ الإنسانيِّ الطبيعيِّ الفطريِّ.

ومـع هـذا كلِّـه فإنه يسـتحيل للمؤمـن الحقيقـي أن لا تؤثِّر فيه الحـوادث والوقائـع التـي تقـع حولَه، بـل الحقيقـة أنَّ كلَّ من نالَ نصيبَهُ من الإنسـانية -بما في ذلك المؤمن- يشـعرُ بالقَلَقِ والانزعاجِ من الأزمات والآلام التي يعيشـها الآخـرون، فيتألَّمُ مثلًا مِنْ تعرُّض

الأبريـاء للظُّلـم والعنـف، ومن تَقاتُـلِ الناس وتناحرِهـم فيما بينهم؛ وذلك لأن جميعَ الناس بالنظر إلى الأصل هم أغصانُ شجرةٍ واحدةٍ أو أوراقُها أو أزهارُها أو ثمارُها، يخاطبنـا القـرآن الكريـم قائلًا: ﴿يَـا بَـنِي آدَمَ﴾، ولذلـك فإن كلَّ إنسـان لم يفقـدْ ضميرَه يهتَـمُّ بآلامِ وهمـومِ أخيـه الإنسـان باعتبارهمـا أبنـاء أبٍ واحـدٍ هـو آدم عليه السلام، حتى إن نفسـه تتلوَّى ألـمًا وقلبُهُ ينزفُ دمًا بقدرِ عمقِ حسِّ وشـعورِ الشفقة عنده، أما المؤمن الحقيقي ذو مشاعر الرحمة والشفقة الواسعة فإنه يحسّ من أعماقه بالقلقِ والوجعِ متأثِّرًا بما يعيشه الناسُ أجمعون مـن مظالم وأزمات ومضايقات؛ وفي مقدِّمتهم بنو دينه ووَطَنه وأمّتِه الذين يتَّجهون معه إلى نفسِ القبلة، ويشاركونه ذاتَ القيم، ويعيشون معه على أرضٍ واحدة؛ فيشـعرُ بأن النارَ أينما تسـقط وتشتعل بسبب المظالم والأزمات إنما تسقطُ في داخله هو فتحرقه وتأكله.

"القلق كناقوسٍ يدقُّ في منتصفِ الليل"

وبينما يتناحَرُ المسلمون يتدخَّلُ الأغيارُ بينهم لاعبين دورَ الحَكَم والفيصَـلِ فَيُسَـيطِرون على مصادِرِ ثرواتهـم، وكما أن هؤلاء الأغيار أثاروا العداءَ بين مختلف العناصرِ في دولةٍ عالميةٍ ضخمةٍ؛ فمزَّقوها شـرَّ ممزَّقٍ وانقضُّوا على ثرواتها الطبيعيـة؛ فإنّهم اليوم أيضًا يلعبون نفس الألاعيب تحدوهم عينُ الرغبات والآمال. أجل، إن من أشعَلوا نيران الاختلافِ والفُرقةِ بين الطوائفِ المسلمةِ في وقتٍ ما يواصلون اليوم أيضًا تنفيذَ نفس الشرور والخبائث بمكرٍ أكثر من ذي قبل.

عـلاوة على أن مناعـةَ المسـلمين الذين يتناوشـون مع بعضهم البعـض ضَعُفـت ضعفًا شـديدًا فيما يتعلَّـقُ بحماية القِيَـمِ والمعايير

الإسـلامية؛ وذلـك نتيجةً لنخر الدُّودِ في جسـدِ الأمـة، ومن ثَمَّ فإن طـرحَ النـاس المتنازعيـن فكرةً متوازنـة ومحاكمةً عقليّة سـليمةً أمرٌ فـي غايـةِ الصعوبةِ بل يمكن القـولُ باسـتحالته؛ لأن الكتلَ والأفراد المتصارعـة فيما بينهـا تبتعد عن المنطقية وتنزلق فـي هوّة العاطفيّة، بـل إن بعضًـا منها يتحرَّك وفقًا لغرائزه وشـهواته كالبهائم كما أشـار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾ (سورة الأَعْرَافِ: ١٧٩/٧)، وهم لا يفكِّرون ولو للحظةٍ واحدة: "لماذا كلُّ هذه النزاعات والصراعات؟ وما الذي تُعودُ به على العالم الإسلامي؟ وكيف نسـمح لأحدٍ أن يُسوِّد نفسَه علينا متقمِّصًا دورَ الحَكَمِ بحجة أننـا نتصـارع فيمـا بيننـا؟"، فإن مَـنْ لم يشـعُرْ بالحزن والأسـى إزاءَ كلِّ هذه الحوادث ولم يستطـع تحليلَها ورؤيةَ ما وراءها من خلفيّات وما لها من أبعادٍ؛ فإنه فَقَدَ بعضَ المشاعرِ الإنسانيّة.

"إن لم تبكِ فاستحيِ من الضَّحِكِ على الأقلّ!"

من يسـتطيـعُ الحفاظَ حقًّا على صحـوةِ ضميره يتأثَّرُ بما يراه في عوالـم أخرى حتى غير عالم الإنسـان كعالم الحيـوان وعالم النبات بـل وحتـى عالم الجماد، واحتواءُ كلِّ شـيء في تلك العوالـم بَرْهَنَةً علـى رب العالميـن ﷻ، واهتمامُ كلِّ ذي وجـدانٍ بكلِّ ما في الكون باعتبـاره خليفـة الله في الأرض، وتألُمه بألم الجميع؛ كلُّ ذلك يُمثِّلُ ضرورةً إنسانيّة.

ولقد تأثرتُ تأثُّرًا بالغًا أمام مجموعةٍ من المشـاهد شـاهدتُها قبل سنوات في أفلامٍ وثائقيّة، من بينها على سبيل المثال أنَّ بضعة أسود أحاطت بثور من فصيلة "البَيسون"؛ فقفز أحدها على ظهره، وأمسك

الآخـرُ بقدمـهِ، بينما قَبَـضَ الثالثُ على رقبته وأكلُوه، وهذا المشـهد لا يُفـارِقُ عينـيَّ أبـدًا، ومـع أنه كان لهـذا الحيوان المسـكين قرنان إلا أنّـه لـم يكـن لديه ما يسـتطيعُ فعلَه في مواجهة مخالب الأسـودِ القويّة وأسنانها القاطعة، وحين أرقدُ في فراشي وألتفُّ بِلِحافي أنصب في خيالي أحيانًا الفخاخ والشِّباكَ لتلكَ الأُسُودِ التي مزَّقَتْ ذلك الثورَ فيما شاهدته من مناظر قبل حوالي عشرين سنة في الأفلام الوثائقية، وأجهز سـهمي، وأرميها به قائلًا: "لماذا مزقتم حيوانًا مسـكينًا كهذا؟ هذا ما تستحقونه".

فضـلًا عن أنَّ عالم الحيوان فيه سلسـلةٌ غذائيـة؛ فالحيوان الذي خلقه الله تعالى آكلًا للّحوم يواصل حياته بأكلِ غيره من الحيوانات، وكمـا أنَّ الحيوانات آكلـةَ النباتِ تتَّجِهُ إلى تناوُلِ الأعشـابِ بمجرَّدِ أن تضعَهـا أمهاتُهـا؛ فـإن الحيوانات آكلـةَ اللحومِ تتَّجِـهُ إلى البحث عن لحمٍ لها؛ لأن فطرةَ كلٍّ منهما تقتضي ذلك، كما أننا أيضًا نَسْـتَلُّ السـكِّين حينًـا فنذبحُ باسـم الله مـا نريـدُ أكلَ لحمه مـن الحيوانات المحلَّلَةِ، ولكنه وبالرغم من تقبُّلِنا هذا الوضـع الطبيعيّ عقليًّا إلا أننا نتأثَّرُ حِسـيًّا ونتألم لتمزيـقِ بضعة حيوانات مفترِسَـةٍ أحدَ الحيوانات البريئة، ونشـعرُ بالضيق لذلك، ونتأذى منه، وأظنُّ أن كلَّ من يُصْغِي إلى صوتِ ضميره سَيَشْعُرُ بنفسِ المشاعِرِ في هذا الموضوعِ.

أجـل، يسـتحيلُ بالنسـبةِ للإنسـانِ الـذي يتـأذَّى من هـذا النوعِ مـن المشـاهِدِ -حتى وإن كانـت متعلِّقة بالحيـوان- ألَّا ينزعجَ حين يشـاهد أناسًـا يُقتَلُون وألَّا يتلوى ألمًا وحزنًا لهذا، ومِنْ ثَمَّ فإن عدمَ التأثُّـرِ والانفعـالِ تجـاهَ الحرائـق الموجـودة سـواء فـي بلادنا نحن

أو فـي غيرهـا مـن البلاد الإسـلامية الأخـرى؛ إنما يدل علـى تجرُّدِ الإنسـان من الإنسـانيّة، أما من لم يفقد إنسانيَّتَهُ فإنه سيتأثَّرُ يقينًا أمام هذه السلبيّات الحاليّة.

ويقـول الشـاعر "محمـد عاكـف" وهـو يتحـدث عمـا يتعرض له المسلمون:

ما يُنْتَهَكُ اليومَ هو عِرْضُنا، ومَنْ يُذَبَّحُ هم أولادُنا؛ فانتَبِه يا ذا الغرورِ

إن لم تبكِ أيُّها الصفيقُ فاستحيِ على الأقلِّ من الضحكِ والسرورِ

كمـا أنَّ سـيدنا رسـول الله ﷺ قـال فـي أحـدِ أحاديثـه الشـريفة: "**مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمُسْـلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ**"[١]، أي إن كان لأيّ إنسـانٍ نصيـبٌ مـن الإيمان فعليه -على الأقلّ- أن يشـعر بألـم لما يتعرّض لـه المسـلمون من مزعِجات ومنغِّصات، فمـن لا يؤلمه هذا لا يفكِّر في تطويرِ مجموعةٍ من الحلول البديلةِ من شأنها أن تقضي على تلك المشكلات المشارِ إليها.

غيـر أنـه ينبغي لكلِّ فردٍ في هذا الصَّدَدِ أن يَنْظُرَ إلى نَفْسـه أوَّلًا، وأن يتجنَّبَ إسـاءةَ الظنِّ بالآخرين، ومَنْ يدري.. فربما يكونُ ظهورُ مَـن حولنـا وكأنّهم متبلِّدو الحِسّ غير متأثِّرين بالأمرِ نابعًا من كونهم أناسًـا صبورين وجَلِدينِ للغاية، كما أنهم ربما يشعرون من أعماقِهم بمـا نشـعرُ نحن به من أَلَمٍ ومـرارةٍ، وربما تنـزِفُ قلوبُهم حزنًا منهم على ما يتعرَّضُ له المسـلمون من مشكلات وأزماتٍ، غير أنهم لقوَّةِ أنظمتِهـم المناعيّـة والمقاومَـةِ لا يتأوَّهون من ألَـمِ البـلاء، ولا يَئِنُّون حتى لا يُعلِموا الأغيار شيئًا عن حالهم.

---

(١) الطبراني: **المعجم الأوسط**، ١/١٥١، ٧/٢٧٠؛ الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، ٤/٣٥٦.

نعرةُ الحربِ من شأنِها أن تقضي على الإنسانيّة

هناك جانبٌ مهمٌّ من المسألةِ فيما يتعلَّقُ بالشعور بالهمّ والحزن أمام تلك الابتلاءات والمصائب التي يعيشُها الناس، ألا وهو: أنه كما لا يصحّ عدمُ الشُّعُورِ بالأمرِ وعدمُ الاهتمامِ به؛ فلا تصحّ أيضًا إجراءاتٌ كالصراخ والصياح والضجيجِ والتدميرِ والحَرْقِ أو اللجوءِ إلى العنف؛ لأن ردَّ فعلٍ كهذا يُطرَحُ كَحَلٍّ للمسألةِ يخالف الإسلامَ والإنسانيّة، وبالتالي فإنه يجبُ ألا يُسمح بتاتًا بمثل هذه النوعية من التصرفات؛ بل ينبغي السعي إلى الحيلولة دون أنواع الوحشية عن طريق إعلاء القيم الإنسانية وإرسائها.

ومن أجل هذا فإنَّه إن كان لا بدَّ من ردِّ فعلٍ على المظالِمِ والتعدِّيات المرتكَبَةِ فلا بدَّ من التأكيدِ في كلِّ فرصةٍ على أنَّ دينَنَا بريءٌ تمامًا من أحداثِ الإرهابِ والعنفِ التي تؤدِّي إلى قتلِ الأبرياء دون أن تُفَرِّقَ بين صغيرٍ أو كبير ولا رضيعٍ أو طفلٍ ولا رَجُلٍ أو امرأةٍ ولا شابٍّ أو شيخٍ عجوز، ولا بدّ من أن يُلام صراحةً ويُندَّدَ بمن يقومون بمثل هذه الأعمال، وأن يُحالَ دون انتشار فكرة استخدام العنف والقوّة الغاشمة، وينبغي السعيُ بقدر الإمكان إلى تصحيح مسارِ من يعيشون انحرافًا فكريًّا في هذا الشأن، وإنقاذُهم من طريق الضلالة، وبينما نفعل هذا من جانب؛ يجب من جانب آخر على عقلاء السياسيين وعلماء الاجتماع والفلاسفة والتربويين أن يجتمعوا ويسعوا إلى إحلالِ لغةِ السلام والحوار محلَّ لغةِ العُنْفِ والحربِ، كما يجبُ بواسطة العقل المشترك تكوينُ مناخٍ سلميٍّ ولغةٍ سلميّة في مواجهة نعرات ودعوات الحرب التي ستشعلُها

بعـضُ الدول مـن أجلِ مصالحهـا وأطماعها الشـخصية، ولا بدَّ من تطوير المشاريـع وإعداد الخططِ البديلة لمواجهةِ كلِّ أنواع الإثارات والمحاولات السـاعيةِ لإشـعالِ فتيل الحرب العالمية الثالثة، التي لو اندلَعَـت فمـن المحتمَـلِ أن تُحـرِقَ بِلَهِيبِها العالم بأسـره من أقصاهُ إلـى أقصاهُ، ويجب أيضًا التنفيذ المباشِـرُ لما يمكن تحقيقُهُ من تلك المشاريـع والخُطَطِ، وإلا فإن الأسلحةَ الحديثةَ الفتَّاكةَ وحربًا عالميةً سَتُسْتَخْدَمُ فيها تلك الأسلحةُ ستقضي على الإنسانية جمعاء.

اكتشاف النفس والتعمق في العبودية

سؤال: ذكرتم سابقًا أنَّ تعمق الإنسان في عبوديته لله تعالى وارتباطَه به سبحانه إنما يتحقَّقان بمعرفةِ المرءِ نفسه وسبرِه أغوارها، فهل توضحون ذلك؟

الجواب: يُقالُ إن: "العَادَاتِ لَا تُتْرَكُ"، ومنها استُنبطت القاعدة: "تَرْكُ العَادَاتِ مِنَ المُهْلِكَاتِ"، وعليه فإن كان من أمرٍ لا بدَّ أن يُحوَّلَ إلى عادةٍ فلا شيءَ أحقُّ من العبادةِ، فعلى المؤمنِ أن يتَّخِذَ من عبادته وطاعته الواجبةِ عليهِ لله تعالى وصلتِه به سبحانه عاداتٍ يستحيلُ أن ينفكَّ عنها أبدًا، ولو أنَّ الإنسانَ بعبادته وطاعتِه وصلته القويّة بالله ﷻ استطاعَ أن يَتَحَصَّلَ على هذه الخاصية، وأن يجعلَها عمقًا داخليًّا في وجدانه فربما يصلُ إلى ما وصلَ إليه بعضُ أولياءِ الله الذين قالَ أحدهم يومًا: "إن غاب قلبي عن مراقبةِ ربي طرفةَ عين فإنّني أموتُ مباشرة!" ولهذا فإنه مهمّ جدًّا بالنسبة للإنسان أن يتحرك وكأنه يرى الله تعالى أو أن يُوقنَ بأن الله تعالى يراه، وعليه أن يَجِدَّ دائمًا بحسّه وشعوره وإرادته في البحثِ عن رضا الله، وأن يبتعدَ تمامًا عمَّا يُغضِبُهُ ويُسخِطُهُ، وأن يخصَّه تعالى بما في داخله من مشاعرِ الحبِّ والاحترامِ.

والوصولُ إلى مثل هذا الحال من اليَنْعِ والنضوج هدفٌ بالنسبة لكلِّ مؤمنٍ، والأصحُّ أنَّه يجبُ أن يكونَ ذلك هو هدفه، غير أنَّه ينبغي للإنسان كي يصلَ إلى ذلك الهدف أن يراقِبَ نفسَه دائمًا، مُتسائلًا في سرّه بِكُلِّ صدقٍ: "تُرى هل أستطيع أن أتمثّل الحالَ اللازمَ من أجل الوصول إلى مثل هذا الأفق؟ هل أستطيعُ أن أُحلِّقَ دومًا نحو المعالي في سماوات الترقّي غيرَ مُكتَفٍ بالوضع الذي أنا فيه، وناشدًا المزيد والمزيد؟".

سبيلُ الحقيقة والتواضع

إن من الأهميّةِ بمكان بالنسبة لسالكِ سبيل الحقيقة أن يستهدف الذُرى والمعالي دائمًا، وألا يكتفي أبدًا بالمرتبة التي وصل إليها وهو يسيحُ في أفقِ الروح والقلب، وإننا لا نقصدُ بكلامنا هذا أن يُعَبِّرَ الإنسانُ عن نفسه بإظهاره مجموعة من الأشياء الخارقة للعادة، وإنما أنْ يُعبِّرَ عنها بمعرفتِه لله ﷻ وتعمُّقِه في عبوديّته له سبحانه؛ بحيث يرى نفسه صفرًا بين يديه ﷻ، ومن ثم فلو افترضنا أنَّ إنسانًا ما استطاعَ بقوَّته الخاصّة أن يُغَيِّرَ اتجاهَ حركة العوالم كلِّها وليسَ الكرة الأرضيّة فحسب؛ فعليه أن يوقِنَ ويؤمنَ بأنَّه أمامَ عظمةِ الحقِّ تعالى وشؤونه لا يُساوي أو يعدِل شيئًا ألبتّة، وأنَّ كلَّ شيءٍ منه ﷻ، ومن هذه الناحية فإنه يجب على سالكي سبيل الحقيقة ألا يطلبوا أبدًا أشياء خارقةً للعادةِ كالسَّيرِ على الماءِ دون الغرقِ فيه، والتحليق في الهواء بلا أجنحة، والطواف بالكعبة في لحظةٍ بطيِّ المكان وهم جلوس؛ فَطَلَبُ مثل هذه المنحِ التي وهبها الله تعالى بعضًا من أوليائه مخالفٌ لِروحِ سبيلِ الحقيقةِ؛ إذ الأساسُ في هذا السبيلِ هو التواضعُ

وليـنُ الجانِبِ واحتقارُ النفسِ وتعنيفُها، وبالمناسـبة أقول: إن أبطالَ الحقيقـةِ الذيـن لا يطلبون هذا النوع من الرُّتَـبِ والمقامات المعنويّة لا يطلبـون أيضًـا المقامـات والرُّتَبَ الدنيويّة مثلَ منصـبِ قائم مقام ووالٍ ونائبٍ ووزيرٍ وما شابهه.

وينبغـي ألا يُفهم من هذا الكلام أنّنا نسـتخفُّ أو نُقلِّلُ من شـأنِ هذه المناصب الإدارية، لكنَّ الميلَ إلى مثل هذه الأشـياء أمامَ عظمةِ القِيَمِ الساميةِ النبيلةِ المنشودَةِ إنما هو سوءُ أَدَبٍ وإساءةٌ لِتِلْكَ الحقائق المرغوب فيها، فإن طُلِبَ في هذا السـبيل "رضا الله" فلا بدَّ أن نعلمَ أنه ليس ثمةَ شـيءٌ يفوقُ الرضا حتى يُعْدَلَ عنه إليه، وإن اسـتُهدِفَت "رؤيةُ جماله" فينبغي أن نوقِنَ أنه ليسَ ثَـمَّةَ ما هو أجمل منه كي يُمال إليه، وإن طُلِبَت الفردوس تَحتَّم أن نعلم أنه ليس ثمة مكان أهم منها فَيُسْتَنْكَفَ عنها إليه، وإن استَهدفَ الإنسان هذه الغايات السامية كلها كان نكوصُهُ عنها وتحوُّله إلى أشياء غيرها إساءة لتلك الغايات ليس إلا. أجل، إنْ طَلَبَ أحدٌ من رجال الحقيقة أن يكون خادمًا من خدام الرسـول الأكـرم ﷺ ومولى مـن مواليه فإنّه لا يقبـلُ التحريرَ من هذا القيـدِ أبـدًا، بل يَصـرخُ بأعلى صوتِه حال كونـه مولى للمصطفى ﷺ تعبيرًا عن رضاه بالإسلام متمثِّلًا في ذلك قولَ جلال الدين الرومي:

صرتُ عبدًا، صرت عبدًا   يا لَلْهَنا فلقد صرت عبدكَ

وفي خدمتي إياك هرِمتُ   واحدودَبَ ظهري وَبِتُّ مَنهَكا

إنّ العبيدَ حين تُعتَقُ تُسَرُّ وتَمْرَحُ   أمّا أنا فبعبوديّتي لك أبتَهِجُ وأفرحُ

فإنّـه لن يسـتبدل بهذا أيَّ شـيءٍ آخر، بل ويجـب عليه ألا يفعل ذلك.

الأبواب مُغلَّقةٌ في وجه "الأنانيّ"

إنْ عَجَزَ الإنسانُ عن الخروجِ من دائرةِ نسبةِ الأمرِ إلى نفسه فإنه يُصاب بِدَاءِ الأنانيّة، وبِقَدْرِ تعلُّقه بأنانيَّته يقترب من الشيطان ويبتعد عن الله ﷻ، وكلُّ "أناني" يُفَكّرُ في نفسه فحسبُ لا تنفتِحُ له أبدًا أبوابُ الطريق الموصِلة إلى الله تعالى، وكلّما أرادَ أن يفتَحَها وجَدَها موصدةً ومغلقةً على الدوام؛ فينتظر دون جدوى أمامها، والواقع أن ثمة أمارة على الكِبْرِ والغرور في قولِ "أنا"، فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي دَيْنٍ كَانَ عَلَى أَبِي، فَدَقَقْتُ البَابَ، فَقَالَ: "**مَنْ ذَا**" فَقُلْتُ: أَنَا، فَقَالَ: "**أَنَا أَنَا**" كَأَنَّهُ كَرِهَهَا(٢)، لأننا ربما يكون ثمة نوع من الكبر في قول "أنا" هذا، فيصبح وكأنه قال "ليست لي حاجة إلى التعريف بنفسي".

أجل، إن ترديدَ كلمة "أنا" دائمًا يُشْبِهُ الطبلةَ التي تُقرَعُ فتُصْدِرُ صوتًا، فكما هو معلومٌ فإن الطبلةَ ما تُصدِرُ صوتًا إلّا لأنها فارغةٌ من الداخل، والشخصُ الذي يقولُ "أنا" دائمًا يحطُّ من نفسه إلى دركةِ مخلوقٍ حقيرٍ أجوف كالطبلةِ؛ إذ ليس من شأن عَامِرِ القلبِ أن يُصْدِرَ مثل هذا الصوت، وقد شَبَّه جلال الدين الرومي أمثال أولئك الأشخاص الواهين بِعُلَبٍ تحوي بداخلها بضعَ خرزاتٍ وخُشخَيْشَاتٍ من قبيل اللُّعب تُصدر أصواتًا كلما حُرِّكَت، أما الأشخاص عامرو القلوب فقد شبَّههم بصناديق المجوهرات التي لا تُحدِثُ صوتًا ولا تُفْشِي سِرًّا لامتلائِها بالجواهِر.

---

(٢) صحيح البخاري، الاستئذان، ١٧؛ صحيح مسلم، الأدب، ٣٨-٣٩.

إن الصمتَ علامةٌ على الحياءِ والتواضُعِ ولِينِ الجانِبِ، ومن يُجَسِّدُون هذه المشاعر في كلِّ أطوارِهم هم أناسٌ تأتي الحركةُ والعملُ على رأسِ أولويّاتهم ويسعَون لإنتاج مشاريع وخطط دائمةٍ من أجل بَلَدِهم وأمَّتهم والإنسانية جمعاء، وأفعالُهم تسبقُ أقوالهم، واختراعاتُهم تسبق أصواتَهم وكلامهم، تمامًا كما تَصِلُ الصواعقُ إلى أهدافها قبل أن يُسمَع صوتُ الرعدِ في السماء، أما البَطَرُ والخُيَلاءُ فما يحتويان إلا على الضجيجِ والإزعاجِ، وبالتالي فإن من يبنون حياتهم عليهما لا يُصْدِرُون إلا ضوضاء فارغة، في حين أن الأساسَ هو أن يسبق العملُ القول، وقد دعا سيدنا إبراهيم عليه السلام ربّه قائلًا: ﴿**وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٨٤/٢٦) **فطَلَبَ** بذلك أن يُوفَّقَ للقيام بخدماتٍ أبديّة تمتدُّ إلى الأجيال القادمة، وهذا قولٌ يُؤْثِرُ الحركة والعمل ويجعلهما على سلّم أولويَّاته، ولذلك فينبغي للإنسان أن يَبْذُرَ الحبوبَ بالحقلِ بقدرِ معرفته واستطاعته، ويفوّضَ الباقي إلى الله تعالى، غير أن الخدمةَ انطلاقًا من فكرةٍ عميقةٍ شاملةٍ كهذه لا تتحقَّق إلا بمعرفةِ الإنسان ربَّه سبحانه وتعالى وإدراكه إيَّاه، وهذا مرهونٌ بما يُقابِلُهُ على الصعيدِ الآخَرِ من معرفةِ المرءِ نفسه وسبره أغوارَها.

من لا يعرف نفسه لا يعرف ربه

رُوِيَ في الأثر: "مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ"[٣]، ومن ثَمَّ فإن من يتأمل في نفسه ويحلّلُها -بما فيها البنيَةُ الفسيولوجيّة والوجدان بأركانه الأربعة: الإرادة واللطيفة الربانية (القلب) والذهن والحسّ- يعرف ربه بصورة أفضل وأحسن، وإن كان لهذه العبارةِ مفهومُ

---

(٣) الأصبهاني: **حلية الأولياء**، ٢٠٨/١٣، الغزالي: **إحياء علوم الدين**، ٧٢/٤؛ المناوي: **فيض القدير**، ٢٢٥/١.

مخالفةٍ فهو على النحو التالي: "من لا يعرف نفسَهُ لا يعرفُ ربّه"، إذن يلزم الإنسانَ أن يعرف ماهيَّة نفسه وكنهها كي يعرف ربَّه، وعلى حدِّ قولِ الأستاذ بديعِ الزمان فإن الإنسان "مصنع متكامل"(٤) كلُّ جزء فيه متناسِبٌ مع الآخَرِ تناسبًا حقيقيًّا، وهذا المخلوقُ يتناسبُ في الوقتِ نفسه مع الكون أيضًا تناسُبًا حقيقيًّا وثيقًا، فمثلًا هناك علاقةٌ وصِلَةٌ بينَ فم الإنسان وبين ما سيأكله به من المأكولات، وكذلك ثمة علاقةٌ وصِلَةٌ بين عينيهِ وما سيَرَاه بهما من أشياء، إنها مناسَبَةٌ وصلةٌ يستطيع المرء في ظلِّها رؤية وتمييزَ الموجودات التي تتجلّى في أبعاد مختلفة.

وهذا التناسب الموجود بين أعضاء الإنسان قائم أيضًا بينه وبين غيره من الموجودات في الكون الذي يعيش فيه؛ فبحسبِ قول علماءِ الفيزياء والفلكِ ثَمّةَ علاقةٌ وصِلَةٌ حتى بين أبعدِ الأنظمةِ والأجرام السماوية وبين الإنسان الذي يبدو مخلوقًا صغيرًا جدًّا على سطح الأرض، إلا أنه يجب البدء أوَّلًا من أقرب نقطة حتى يتسنّى إدراكُ هذه العلاقة وفهمُها، فمثلًا حين يُحَلِّلُ الإنسانُ نفسَه من زاوية العلاقة بين فمه والموادِ التي سيأكلها وبين عينيهِ والأجسام التي تراها عيناه لا بدَّ وأن يَصِلَ إلى الأدلَّةِ التي تؤكِّدُ وجودَ الخالِقِ الأعظَمِ ووحدانيَّته، وهناك كلامٌ مبارَكٌ طيِّبٌ وردَ في بعض كُتُبِ التصوُّفِ يُقالُ إنه حديثٌ قدسي؛ يقول فيه الحقُّ تعالى: "يا ابنَ آدم! يعرفُنِي من يعرفُ نفسَه، ومن يعرفُني يبحثُ عنّي، ومن يبحثُ عني يَجِدني بلا شكٍّ، ومن يجدُني ينالُ كلَّ رغباته وآماله بل وما هو أكثر، ينالها

(٤) انظر: **الكلمات**، الكلمة الثالثة عشرة، المقام الثاني، ص ١٧٣.

ولا يُفَضِّلُ علَيَّ أحدًا، يا ابن آدم! تواضع فتعرفني.. جُع فتراني.. أخْلِص في عبادتك فتصل إليَّ.. يا ابن آدم! أنا الله؛ يعرفني من يعرف نفسه، ويجدني من يهجر نفسه... اهجر نفسك فتعرفني؛ فكلُّ قلبٍ لم يَعْمُر بمعرفتي أعمى صَدِئٌ!".

من بنية الجسد إلى أعماق الروح

كتب "أليكس كاريل" في عام (١٩٣٥م) كتابًا بعنوان "الإنسان ذلك المجهول"، وفيه لفتَ الانتباهَ إلى ما في جسم الإنسان من كمالٍ، وأنه حتمًا لا بدَّ وأن يكون له خالقٌ، وبهذا أنتجَ عملًا مهمًّا، وبغضِّ النَّظَرِ عما تعرَّضَ له مؤلِّفُ هذا الكتاب من حملاتٍ تشويهيّةٍ من قِبَلِ البعضِ؛ فإن قرَّاءَنا طالعوا كتابه هذا واستفادوا منه، وبينما كان الناس ولا سيما الأطبّاءُ يُطالِعون تلك التحليلات التي أجراها هذا الكتاب؛ كانَ ينتهي بهم الحالُ مع كلِّ فصلٍ إلى قولِ: "لا إله إلا الله"؛ لأنه يستحيل بيانُ ذلك التناسبِ الخارقِ للعادةِ الكامنِ في جسمِ الإنسان مَا لَمْ تتدارَكْنا قدرةُ الله تعالى وعِنايَتُه.

وبعد أن يتعرَّف الإنسانُ بهذا الشكلِ على علاقةِ تلك الأمور وصِلَتِها بالأشياء وفي مقدِّمَتِها علمُ التشريحِ الإنساني وبنيتُهُ الفسيولوجيّة، أي بعد أن يتعرَّف على عالمه الخارجيّ ينبغي له أن يتَّجِهَ إلى معرفةِ نفسه وآليَّاته الوجدانيّة وما يكتَنِفُ كنهَهُ من أحاسيسَ، وهو ما يمكننا أن نُطْلِقَ عليه كله اسمَ "العالَمِ الداخليّ"، وإن وقوعَ حوادثَ من قَبيلِ شعورِ الإنسانِ بشيءٍ ما قبلَ وقوعه مما يُمْكِنُ وصفُهُ بأنه "الحدس" أو "التنبُّؤ الداخلي"؛ كأن يلتقيَ الإنسانُ عصرًا شخصًا خطرَ بباله صباحًا، أو أن يَرى في رؤياه مشاهدَ من "عالم

المثال" و"عالم البرزخ"، وأن تظهرَ بعضُ الأشياء التي رآها في منامه بعينِها أو بالشكل الذي أوَّلها به الواقفون على "تأويل الأحاديث"... كلُّ هذا ما هو إلَّا أحداثٌ يعيشها الإنسان في عالمه الداخلي، ولا يمكنُ إيضاحُ هذا في إطارِ دائرةِ الأسبابِ الحسِّيّة.

وانطلاقًا من هذا كلِّه فإن الإنسانَ حين يُواصِل رحلتَه في عالمِهِ الداخليّ يعرف نفسه إجمالًا ويصل إلى وجود الخالق الأعظم، ومن ثمّ يعرفُ ربَّهُ حقَّ المعرفة.

الحرية الحقيقية

ثمة عبارةٌ يقال إنها حديث ورد فيها عن رب العزة أنَّ: "من يعرفني يبحث عني"، وقد يرتبط هذا الأمر بالمبحث السابق أيضًا، فكلَّما عرفَ الإنسانُ الخالقَ العظيمَ أكثرَ كلّما أعملَ فِكْرَهُ على منوالِ: "ترى ماذا يريد الله مني؟ كيفَ أَصِلُ إلى جواره تعالى، وكيفَ أملأُ قلبي بالشوقِ إليه؟ فواجبي أن أملأَ قلبي بالشوق إليه، وهذا حقُّهُ، ويجبُ أن يتجلَّى هو فحسب في صدري، ويجب أن أخرجَ وأطرحَ كلَّ شيءٍ سواه!"، وعَمَّق بحثَهُ وتنقيبَهُ في ذاته، وقد عبَّرَ "فضولي" عن هذه الحقيقة شعرًا فقال:

ليس بعارفٍ مَنْ يعرف أمور الدنيا وما فيها

وإنما العارفُ هو مَنْ لا يَأبَهُ بالدنيا وما فيها

أجل، كما أُشير إليه في هذين البيتين فإنه يجب على الإنسان أن يقتلِع من قلبه الدنيا وما فيها ويطرحها تمامًا، وأن يَعْمُرَ قلبه بالله سبحانه ويُجيِّشَه به دائمًا، وأن يشغل فكره وعقله به أبدًا، فإذا ما فعل الإنسان هذا فقد وجدَ الحقَّ تعالى، ولن يَتِرَ الله تعالى عَبْدَهُ في

مقابلِ ذلك، وإنما سيَمُنُّ عليه بكلِّ رغباته بل وبما هو أكثر منها، وما أجملَ تعبير الشيخ "محمد لطفي أفندي" عن هذه الحقيقةِ حين قال:

أَيُعْقَلُ إنْ أحببْتَ مولاكَ ألا يحبّك ولا يرعاكَ؟!

أيُعقل أن تطلبَ رضا الحقّ فلا يمن عليك برضاه المُطْلَقِ؟

"لمْ أدخلْ في الإسلامِ من أجلِ الغنائِمِ يا رسول الله!"

إن المؤمنَ الذي يَصِلُ إلى هذه المرتبةِ ينجو من ربقةِ العديدِ من الرغباتِ والأهواءِ، ويَصِلُ إلى الحرِّيَّةِ الحقيقيّة، لأنّ "الحرية الحقيقيّة تنبعُ من العبوديّة لله تعالى" فَعِبَادُ الله حقًّا يتخلَّصون وينجون من العبوديّة لغيره، أما مَنْ لم يعبدوهُ حقَّ عبادَته فإنهم سيعبُدون مئات الأنواعِ من الأشياءِ حتى وإن سجَدَتْ جباهُهُم له تعالى؛ فقد يقعُون في عبادةِ المنصِبِ والمقامِ والخوفِ والأهل والعيال والراحة والمتعة واللهو والبوهيمية والإطراء والتقدير والمنازل الساحلية لأجلِ الأهلِ والأسرةِ، والعقارات والقصور... إلخ؛ كلُّ هذا بينما لم يكن المشركون في الجاهلية يتّخِذون لأنفُسِهم أوثانًا بهذا القدر الكثير والكبير!

أجل، إن السبيلَ إلى الخلاصِ من عبوديّة الأشياءِ ينبعُ من العبوديّة الحقّة لله تعالى، وما أجملَ حياة ساداتنا الصحابة وما أبرزها من نماذج يجملُ الاقتداء بها في هذا الشأن، ومن ذلك على سبيل المثال سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه الداهية العسكري والسياسي؛ فعلى الرغمِ من تأخُّرِ إسلامه إلا أنه لما أسلمَ فهِمَ روح الدين فهمًا يستحيل ألَّا يخلبَ الأذهان ويبهرَ الألباب.

فلقد سافر سيدنا عمرو بن العاص ﵁ إلى المدينة بعد صلح الحديبية قاصِدًا الإسلامَ، فلما وصلها ودخل إلى حضرة النبي ﷺ كان وكأنّه يرتَعِشُ خجلًا منه، لأنه كان قد أساءَ إلى مفخرة الإنسانية ﷺ من قبلُ، غير أنَّ رسول الرحمة ﷺ لم يحمِلْ في نفسه أيًّا من تلك الإساءات، وإنما نسيَها تمامًا، ولنترك الحديث لِعمرِو بن العاص، إذ يقول محدِّثًا عن نفسه: فَلَمَّا جَعَلَ اللهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ ﷺ: "**مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟**" قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ ﷺ: "**تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟**" قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: "**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟**"(٥)، وبعد أن أسلم عمرو بن العاص ﵁ بمدة قصيرة دعاه مفخرةُ الكونِ ﷺ، قال عمرٌو: بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: "**خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ، ثُمَّ ائْتِنِي**" فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَصَعَّدَ فِيَّ النَّظَرَ ثُمَّ طَأْطَأَهُ، فَقَالَ ﷺ: "**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُسَلِّمَكَ اللهُ وَيُغْنِمَكَ، وَأرغبُ لَكَ مِنَ الْمَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً**"، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ رغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ ﷺ: "**يَا عَمْرُو، نِعِمَّا الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**"(٦).

وعلى نفسِ الشاكلةِ فإن سيدنا رسول الله ﷺ حين أراد أن يعطي صحابيًّا -لم تُسَمِّه المصادر- نصيبَه من الغنيمة قال له ذلك الصحابي: "يا رسول الله! لا أستطيعُ قبول هذا، إنني أسلمت على

(٥) صحيح مسلم، الإيمان، ١٩٢؛ مسند الإمام أحمد، ٢٠٤/٤.
(٦) مسند الإمام أحمد، ٢٩٨/٢٩ .

أن يصيبني سهمٌ من هنا -وأشار إلى فِيهِ- فأَسْتَشْهِد"، ورَدَّ نصيبَه من الغنيمةِ، وفي النهايةِ أُصيبَ ذلك الصحابيُّ بِسَـهْمٍ في فمه كما تنمَّى واستشهدَ، فارتقى إلى الآفاق العُلى(٧).

وهنـاك أيضًا أبو سـفيان الذي حاربَ رسـولَنا ﷺ وعارضه حتى فتح مكة؛ أُصِيبَتْ عينُهُ، فأتى النبيَّ ﷺ وعينُهُ في يده، فقال: يا رسول الله، هذه عيني أُصيبَتْ في سبيل الله، فقال النبي ﷺ: "**إن شئتَ دعوتُ فَرُدَّتْ عينُك، وإن شـئتَ فالجنَّةَ**"، وفي روايةٍ "**فعينٌ في الجنة**"، قال: فالجنّةَ، ورمى بها من يده، وقُلِعَتْ عينُهُ الثانية في القتال يوم اليرموك عند منازَلَةِ الروم(٨).

إن هذه النماذج تضعُ أمام الأنظار مدى تأثير المعلّم فيمن يعلِّمُهُ والمُرَبِّي فيمن يُربِّيه، وهو ما عَبّر عنه "نيازي مصري" بقوله:

لا تركننّ إلى أيِّ مرشدٍ فينقلِب الفسيحُ أمامك إلى مضيق

أما مَن استرشَدَ بـ"المعصومِ" سَهُلَ عليه اجتيازُ وسلوكَ الطريق

وإلـى جانبِ ذلكَ فإنها تُشـكِّل في الوقت نفسـهِ ارتقـاءً عموديًّا دفعةً ومرةً واحدةً.

ومن هنا فعلى مؤمني اليوم أن يقتدوا بالصحابة الكرام، وألا يطلبوا أيَّ شـيءٍ دنيـويٍّ أبـدًا، ولا سـيّما إن كان أحدُهـم يعمل فـي أيٍّ من مناصـبِ الدولـة فعليه ألا يسـتغلَّ منصبه وصلاحياته كـي يحقق نفعًا لنفسـه وأولاده وأقربائه؛ وألا يسـتحوذ على شيء سواء كان سيارة أو

(٧) انظر: **سنن النسائي**، الجنائز، ٦١؛ عبد الرزاق: **المصنف**، ٢٧٦/٥؛ الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، ٦٨٨/٣.

(٨) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٤٣٥/٢٣؛ ابن حجر: **الإصابة**، ٣٣٤/٣؛ أبو الفرج ابن برهان الدين: **السيرة الحلبيّة**، ١٦٤/٣.

طائرة أو يختًا أو سـفينةً، فيسـتبدلَ الذي هو أدنى بالذي هو خير، بل ينبغي للإنسـان السـعيُ والعملُ في اتجاه نَيلِ رضا الحقِّ تعالى، وألا يستبدلَ بالرضا الإلهيِّ وجمالِ الله والشوقِ للقائه، والمعيّة النبويّة السنيّة أيَّ شيءٍ على الإطلاق، فيكونُ لسانُ حاله كما وردَ في البيتِ الشهيرِ:

الله ربي لا أريدُ سواهُ

ما في الوجودِ حقيقة إلّاهُ

ويلزمُـه حتى وإن عُرضت عليه الجنـان في مقابل تَخلّيه عن كلِّ هذا أن يُجسِّدَ دورَ البطولةِ في الترفُّـعِ عن تلك الجنان فيقول: "عجبًا! أيُّ نـوعٍ مـن الاعوجـاجِ رأَوْهُ فيَّ فَجَعَلَهُـم يَعْرِضُون عليَّ شـيئًا في مقابِلِ التخلّي عن رضا الله والشوقِ الإلهيِّ ورؤيةِ الله تعالى؟!"، عليه أن يشحذَ قلبَهُ بمثلِ هذه المشاعِرِ، ويملأَهُ بها ويُجيّشَهُ، فلا يستوعب شـيئًا غير ذلك؛ لأنَّ أشـياءَ كالتحليقِ في السـماءِ والسَّـيرِ على الماءِ دونَ ابتلالٍ، ومعرفةِ بواطنِ البشر، وإخبارِهم بما يخطرُ على أذهانهم بمجرَّدِ النظَرِ في وجوههم هي أشـياء بسـيطة لدرجةِ أنها لا قيمةَ لها كالغثاء بالنسبة للسيل.

والحاصلُ أنَّ مَن نَذَرُوا أَنْفُسَـهم لإعلاءِ حقائِقِ الإيمانِ والقرآنِ وإقامةِ صرحِ الروحِ مطالَبون؛ بل ومضطرُّون إلى التنبُّهِ جيّدًا لما سبقَ بيانُهُ وإيضاحُهُ من أمور، وعليهم أن يُعْرِضوا عن الدنيا وما فيها، وأن يسعوا إلى الاستقامةِ بِرونَقِها الصحيحِ وأُسُسِها الصافيةِ النقيّة، وعلى النحـوِ الذي يطابِقُ تمامًا معنى الاسـتقامةِ عندَ الذاتِ الإلهيَّة، وعلى النحو الذي يوافِقُ حُكْمَ الآيةِ الكريمة ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾ (سورة هُودٍ: ١١/١١٢)، لا على النحو الذي اعتبروه صحيحًا من وجهةِ نَظَرِهم.

التعمق في الفكر والشعور الديني

سؤال: ماذا يعني التعمق في الفكر والشعور الديني؟ وكيف يتحقق الوصول إلى مثل هذا الهدف السامي؟

الجواب: يبدأ الشعور والفكر الديني لدى البشر بواسطة التلقين أولًا، ثم يتمسك به ويُتبَنَّى ويدوم ويحيا عبر التقليد، وربما إنْ أمعنّا النظر في بداية حياة كلٍّ مِنَّا، وانتقلنا إلى مرحلة الطفولة فإنه يتبين أننا لُقِّنَّا على نحوٍ بسيطٍ أركانَ الدين الأساسية كالنطق بالشهادتين والصلاة والصوم والزكاة والحج إلى جانب الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر، وأننا أخذناها عن طريق التقليد وتمسكنا بها مع مرور الزمن.

وقد ذهب جمهورُ الْعلمَاء إِلَى صِحة إِيمَان الْمُقَلِّد وترتُّبِ الْأَحْكَام على هذا الإيمان فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة[٩]، ولكن يجب تثبيت الحقائق المكتسبة بواسطة الإيمان التقليدي وإقامتُها على أرضية صُلبة سليمة ووعيُها جيدًا حتى يستطيع المؤمن مقاومة عواصف الإنكار والضلال العاتية؛ لأن التقليد قد يؤدي وظيفة مؤقتة في بداية الأمر إلا أنّ بقاء المكتسبات التي تم الحصول عليها بفضله ورسوخَها

(٩) التفتازاني: **شرح المقاصد**، ٢/٢٦٤.

إنمـا يمكن بالتحقيق؛ فمثلًا آباؤنا وأمهاتنا لقّنونا المعلومات النظرية الأولية المتعلقة بوجود الله ووحدانيته، غير أنه ينبغي لنا لاحقًا وحين يقال "إن الله واحدٌ" أن نستشعر ونستنبط الحقيقة نفسها من كلّ شيء في الكون بل ومن كلِّ أمر تكوينيٍّ، تمامًا مثل سعي أحد الأخصائيين المعمليين إلى استخراج النتيجة بواسطة ما يجريه في المعمل من تحاليل وبحوث، فيلزم في هذا الموضوع التحلي بالإيمان الراسخ الذي لا يتزعزع حتى وإن تعرض لهزة أرضية بقوة عشر درجات على مقياس ريختر؛ والذي يجعل صاحبه يقول: "وإن زعموا عكس هذا خمسين مرة فتلك هي الحقيقة وليس ما زعموا، وقد أرتاب في أن إضافة العدد اثنين إلى العدد اثنين يساوي أربعة؛ لكنّ أيّ ذرة من شكّ أو ريبٍ لا تمتدّ إلى ما تشكّل في داخلي من قناعات وحقائق إيمانية!".

الخلاص من التقليد منوط بالجهد والسعي

إن كان الأمر كذلك فلا بد أولًا من الحفاظ على هذه القيم التي فطرها الله ﷻ فينا وتلك التي اكتسبناها عبر المناخ الثقافي الذي نشأنا فيه وكذلك التي توارثناها من آبائنا، ولا بد من أن نراجع أنفسنا باستمرار خشية أن نفقد هذه القيم، وعلينا كي نثبّتها على أرضية أكثر صلابة وثباتًا أن نداوم على مراقبتها بشكل ثابت، ويجب الركض والسعي الدائب من أجل إحكام وتوثيق الأركان الإيمانية.

إننا -بالنظر إلى الغالبية العظمى مِنّا- وُلِدنا من أبوين مسلمين، ونشأنا في وسطٍ يسود فيه الدين الإسلامي، ويتردد من مآذنه الأذان جهوريًّا، ويتلى في جوامعه القرآن الكريم تلاوة رقراقة، وتُلقى

في جنباته المواعظ والنصائح الدينية، وبهذا فقد منحنا **الله** ﷻ القدرة علـى تحصيل جميـع هذه الحقائق على المسـتوى النظـري، وعليه فإنـه ينبغـي ألَّا تفتر هِمَمُنا، وألَّا نترك هذه المكتسـبات المهمة على حالتهـا الأولـى دون أن ننميها، بل علينا أن نجتهد ونسـعى دومًا كي نسـمو ونرتقي بها إلى الأعلى، أما التصرفات والسـلوكيات العكسية المخالفة لذلك فإنها تعني نكرانًا للجميل وإساءة لتلك الأمانات.

أجـل، بما أن الحـق تعالى قد منَّ علينا بمعرفـة الجانب النظريّ لـكل هـذا، وحمَّل إرادتنـا أمانة تحصيـل الجانب العملـي منها فإنه يلزمنا أن نركض في إثر تلك الأمانة بكل جهودنا ومساعينا.

مراتب اليقين والطريقُ المؤدية إلى التحقيق

إن مفاهيم "علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين" ربما تضطلـع بمهمة العاكس الضوئي في الطريق المؤدية من التقليد إلى التحقيق.

فعلـم اليقيـن يعني إخضاع الأشـياء والحـوادث وتحليلها تحت أطياف العلم المنيرة، واسـتنباط الحِكَم والمعاني الكامنة في الأوامر التكوينيـة عبـر التفكـر والتأمل، والوصـول بهذه الطريقـة إلى معرفة يمكنها أن تثبت حقائق الإيمان بالأدلة والبراهين، وإن مطالعةً وبحثًا وتحليـلًا بهذا الشـكل سـوف يقـوم بمهمـة تأمين المكتسـبات عن طريق التقليد، وحمايتها وحراستها كالصُّوبة ضد ما يلقيه الملحدون من شبه وشكوك ووساوس وغير ذلك، أما عين اليقين فيعني مشاهدة ما نعتقده من معلومات نظرية بأدلة وبراهين قاطعة مشـاهدة مباشرة، أي استشهاد لطائف الإنسان كلها على تلك الحقائق.

نعـم، الرؤيـة تختلف عن النظـر، فمن حظي بوجهة نظر سـليمة وبالتالي بمشاهدة ما وراء ما ينظر إليه فإنه ينظر إلى الطبيعة من حوله نظرة متميزة حتى إنه ليعدو من شـجرة إلى أخرى يرغب في تقبيلها، لأنه يشـاهد في وجه كل شـيء تجليًا من تجليات أسماء الحق تعالى فيخـرّ سـاجدًا، والذين أبحـروا في آفاق عين اليقين يشـاهدون آلافًا من تجليات الحق تعالى في كل موجود، وينجذبون أحيانًا، ويعبرون عن مشاعرهم بما يشبه عبارات نيازي مصري:

ظننتُ أنه لم يبق في العالم من حبيب

حتى إذا تخليتُ عن نفسي رأيتُ أن كل شيء حبيب

أي إن الإنسان حين يتخلى عن نفسه يبدأ في رؤية تجليات الحق تعالى في كل شـيء فيغيب عن نفسـه في اسـتغراقٍ ويذوب في هذا البحر ويفنى فيه، يقول غوثي:

لا تتجلى أنت ما دُمتُ أنا في الميدان

فشرطُ إظهار وجودك أن أكون غائبًا عن الأكوان

أي حين يتخلى الإنسانُ عن وجوده ويذيبه أمام الوجود الحقيقي يفتح الأبواب إلى آفاق حق اليقين، والواقع أننا لا ندري هل يُيسَّـر لإنسانٍ الفوزُ بمرتبة حق اليقين على أكمل وجه بهذا المعنى؟ وبينما يقول فضيلة الشيخ الإمام الرباني في مكتوبٍ من كتابه "المكتوبات" إن هذا ليس ممكنًا في الدنيا، نجده في مكتوب آخر قائلًا بأنه ممكن بقـدر معيـن، وتوفيقًا بيـن هذين القوليـن يمكننا القـول إن ظل حق اليقيـن قـد يتيسـر لبعض الناس فـي الدنيـا، إلا أن حقيقتـه الأصلية سـتظهر في الآخرة، لأنه حيث تسـبق القدرةُ الإلهيةُ الحكمةَ الإلهيةَ

يظهر حق اليقين على حقيقته ويشعر الإنسان بتلك الحقيقة بكل أبعادها بحسب أفقه.

إذا سألتَ فاسأل اللَّه لا تنقطع بك السبل

إن أهل التحقيق ضربوا أمثلة لبيان مراتب اليقين التي حاولنا التعبير عنها باختصار، فقال بعضهم على سبيل المثال إن عِلمَ الإنسان نظريًّا أن النار حارقة ومُنْضِجة للطعام ومنيرة لما حولها حين تكون لهبًا وتصديقَه بذلك هو علم اليقين، أما عند نظره إلى النار المتأججة في المدفأة ومشاهدته بعينيه أنها مصدر للحرارة، ومنيرة لما حولها مضيئة له فهذا هو عين اليقين، ومن أجل تقريب مرتبة حق اليقين للأذهان ضربوا لها مثلًا باحمرار الملقاط في مدفأة ممتلئة بالنار مباشرة وعدم التمييز بينه وبين النار، وفي هذه النقطة الأخيرة لا وجود حقيقيًّا لي ولك، ليس هناك أحد سوى الله ﷻ، حيث يخجل الإنسان في تلك النقطة أن يقول "أنا"، وإنما يقول "هو" فحسب، ويتنفسه في كل لحظات حياته.

إذًا ينبغي للإنسان أن يهرع دومًا كي يسمو من منزلة إلى أخرى، وأن يحوِّل كل حديث للحديث عن الله، هكذا يلزمه أن يذكره كل يوم بواسطة مكتسبات جديدة، علينا أن نقول كل يوم: "الحمد لله، تعرفنا اليوم على ربنا من جديد، وذكرنا سيدنا رسول الله ﷺ مرة أخرى، وشعرنا بالشوق والحنين إليه، وقلنا: "فداء لك أرواحنا!"، وتحرقنا شوقًا إلى الانضمام إلى هذا المجلس العذب مرة أخرى.

وبهذا يتسنى للإنسان أن يحوّل ثواني عمره إلى سنوات. أجل، إن لحظات الإنسان العذبة الهَنِيَّة هذه وحياته سعيًا إلى الوصول

إليهـا، وتذكرهـا في عقله دائمًا غضة ندية سـوف يجعـل الثواني في حياته بل وما هو أقل من الثواني في حكم العبادة، ويرشحها للخلود، وما دام الإنسـان يرى نفسـه جديـرًا بالأبدية وبرؤية الـذات الأبدية، فالحصول عليها إنما يمكن بأن يعيش مرتبطًا بما ذكرنا آنفًا.

اللهـم امنـن علينـا بعنايتـك في هذا السـبيل واجعـل عنايتك لنا رفيقًا، فسائلوك لا ينقطع بهم الطريق أبدًا.

وإن سـألْنا اللهَ فإنه سـيعطينا كل حاجاتنا إن عاجلًا أو آجلًا دون ريـب، وقـد عبّر فضيلة الشـيخ محمـد لطفي أفندي عـن هذا أفضل تعبير وبأسلوب بسيط وسلس فقال:

ألا يُحبُّك المولى إن أحببتَه؟

ألا يُرضيك إن هرولتَ لتنالَ مرضاتَه؟

لو وقفتَ له على الباب، وفديتَه بالروح والنفس والأحباب

وعملتَ بأمره، ألا يجزل لك الثواب؟!

السعي وراء الكمال مع خفض أجنحة التواضع

سؤال: يذكر أنّ على المؤمن أن يوفي إرادته حقها، وأن يسعى دائمًا إلى الكمال، كما تنبغي المحافظة على التواضعِ ومحاسبةِ النفس مهما حالَفَ الإنسان الحظّ والنجاح، فكيف يمكننا أن نوفِّق بين هذين الأمرين؟

الجواب: المؤمن الحقيقيّ صاحبُ عزمٍ وإرادةٍ؛ يؤمن بالله يقينًا، ولا يفقد أمله حتى إزاء أعتى الحوادث، ولذا نجده إذا ما انقطعت به السبل لا يخضع لليأس مطلقًا، بل يظل ثابتًا، ثم يتخذ لنفسه طريقًا آخر وسط المعوقات التي تحول دون تقدمه، ويواصل السير صوب هدفه؛ لأنه يعلم أن الحق ﷻ لم يتخلّ قط عن السائرين في طريقه تعالى، فعلى سبيل المثال لما ضاقت بالنبي ﷺ السبل واستحال عيشه في مكة فتح الله تعالى له طريقًا إلى الملإ الأعلى، وكلما نزل بهذا الطريق منزلًا حياه أحدُ الأنبياء العظام السابقين، بل إنه وصل إلى نقطةٍ قال عندها أمين الوحي جبريل عليه السلام: "يا مُحَمَّد أنت ضيفُ الكريمِ ومدعوُّ القديم، ولو تقدمتُ الآن بقدرِ أنملةٍ لاحترقتُ"، وتلا قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (سورة الصَّافَّاتِ: ١٦٤/٣٧)[١٠].

(١٠) ذكره القسطلاني في **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، ٤٨٢/٢؛ أبو الفرج ابن برهان الدين: **السيرة الحلبية**، ٥٦٥/١.

ابتغاء الكمال من مقتضيات التخلّق بأخلاق اللَّه سبحانه وتعالى

أجل، لم يضيّع الله سبحانه وتعالى أحدًا ممن يسيرون في سبيله ألبتة، بل كان في أحلك الظروف يأخذ بأيديهم ويصل بهم إلى شاطئ السلامة، فلو أنكم مثلًا وقعتم في بئرٍ ما فسيتدلى إليكم حبلٌ من أعلى على حين غرة، تتمسكون به وتصعدون، وأحيانًا قد يمسّكم غدر وحسد وغيرة بعضِ الناس، ولكن بعد مدة من السير والسلوك الروحاني تشعرون وكأن الله تعالى قد ربّعكم على عرش قلوب الناس، ومن ثم فعلى المؤمنين الذين يشعرون بمعية الله وعنايته وإعانته دائمًا أن يتطلّعوا إلى القيام بالأعمال العظيمة مهما كانت الظروف قاسيةً، ويعطوا إرادتهم حقّها من أجل القيام بهذه الأعمال العظيمة بشكل يتوافق مع قيمتها، حتى تظهر في أكمل صورة وأحسنها؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر المؤمنين في أحاديثه الشريفة بالتخلق بأخلاق الله، وقد عبرت بعضُ الآيات القرآنية عن هذه الأخلاق ومنها قوله تعالى: ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**﴾ (سورة السَّجْدَةِ: ٣٢/٧)، ﴿**الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ (سورة النَّمْلِ: ٢٧/٨٨)؛ بمعنى أنه خلق كل شيء في أبهى صورة وأكملها وأتمها وأحسنها مما جعل الرائين لها يقولون: "ليس هناك ما هو أعظم من هذا"، ويقول الإمام الغزالي غفر الله له فيما يتعلق بهذا الموضوع: "ليس في الإمكان أَبْدَعُ مما كان".

أجل، ليس أمام مَنْ ينظر نظرةً شمولية إلى الكون ويُجِيلُ النظر بين السبب والنتيجة إلا أن يعترف قائلًا: لقد أحسن الله خلْقَ هذا الكون، لدرجة أنه لو وُهب لي من العمر ألفُ عام وأُمرت بإنشاء جزء ضئيل من هذا الكون ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا، وهكذا ترشدنا

الأخلاق الإلهية إلى أنه ينبغي للمؤمن وهو يسعى في سبيل الله أن يبذل قصارى جهده حتى يخرج عمله في أبهى صورة وأكملها.

استشعِروا مع كلِّ عملٍ تعملونه أنه سيُعرَضُ على اللَّه ورسوله

ويحدثنا القرآن الكريم عن ضرورة أن ينشد المؤمن الكمال في الأعمال التي يقوم بها للفوز برضا الله تعالى فيقول: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (سورة التَّوْبةِ: ٩/١٠٥).

ونلاحظ هنا أن القرآن الكريم يؤكد على أهمية العمل باستخدامه للفظة "اعملوا" بدلًا من "افعلوا"، غير أن ماهية العمل الذي تصفه بعض الآيات الأخرى بالعمل الصالح هي العمل الإيجابي الذي لا يعتريه نقصٌ ولا قصور، ويجري في إطار خطة محددة.

أما قوله تعالى ﴿**فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ ففيه تشديدٌ على القيام بالعمل مع الأخذ في الاعتبار أن هذه الأعمال ستُعرض على الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين؛ بمعنى أن على المؤمن أن يقوم بعملٍ يرضى الله تعالى عنه، ويفتخر به مفخرة الإنسانية محمد ﷺ، ويغبطه عليه المؤمنون قائلين: "ليتنا وُفِّقْنَا نحن أيضًا للقيام بمثل هذا العمل!".

وبالمناسبة فإنني أريد أن ألفت انتباهكم إلى أمرٍ وإن كان خارجًا عن موضوعنا الأصليّ وهو: أن المؤمن الذي يرجو الكمال في أعماله لا يستهدف استثارة إعجاب الآخرين، وسوقهم إلى غبطته، وإنما يعمل ويوفي إرادته حقها ليحظى برضا مولاه ﷻ، وإن كانت غبطة الآخرين والتشبّه بهم وعدم التخلف عنهم في إحراز الجماليات

الأخروية أمورًا لا حرج فيها إلّا أن النظرَ للأمرِ بحسدٍ وغيرةٍ صفةٌ لا تليق بالمؤمن أبدًا.

الملائكة خيرُ قدوة لنا

يقول القرآن الكريم عن الملائكة: ﴿لَا يَعْصُونَ اللّٰهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (سورة التَّحْرِيمِ: ٦٦/٦)، يُحقِّقون الإتيان بالأوامر الإلهية تحقيقًا تامًّا، ولا يحيدون عنها قيدَ أنملة، وبذلك فهم خيرُ قدوةٍ لنا، ولذلك يجب على المؤمن أن يسير في عمله على نهج جبريل الأمين ﷺ، حتى تكون أعماله متوازنةً وفي مسارِها الصحيح وتحظى بتقدير الله ﷻ، فإن اقتضت الضرورة فعليه أن يبذل كلَّ جهده، ويأتي بكل ما في وسعه حتى يعطي إرادته التي منحها الله له حقها، ويؤدي الوظائف المنوطة به على أكمل وجهٍ؛ لأن "مَن طَلَبَ وجَدَّ وجَدَ".

الابتلاء بالنجاح

فمن بذل هذا القدر من الجهد والسعي وفقه الله تعالى بفضله وعنايته إلى نجاحات عظيمة، وربما يلتفّ مئات الآلاف من الناس حول ما قام به ذلك الشخص من عمل عظيم، ويغرقونه في الشكر والمدح والثناء، وحينذاك يبدأ أصعب امتحان بالنسبة له؛ فهل سينسب النجاحات التي حققها إلى نفسه أم إلى صاحبها الحقيقي؟ وهل ستُثير هذه النجاحات فيه شعور الشكر، أم ستدور رأسه ويغشى بصره بها؟ ولا جرم أن الذين سيجتازون هذا الامتحان القاسي بنجاح هم أرباب القلوب الذين لزموا المحو والتواضع، وتعهدوا أنفسهم بالتربية والتهذيب والتقويم، وعرفوا حدودهم في هذا الموقف

الحرج الذي قد يخسر فيه الإنسان رغم أنه أدعى للكسب، وكما أعطوا إرادتهم حقها أثناء العمل فهم هنا أيضًا يعطون ضمائرهم حقَّها، ويُحَدِّدون النقطة التي عليهم أن يتوقفوا عندها، ومن ثم فهم لا ينسبون شيئًا لأنفسهم، بل يقولون: "الصانع هو الله، والخالق هو الله، والفاعل هو الله..."، وتراهم يفرّون من نقاط الضعف كالغرور والإعجاب بالنفس فرارهم من الحية والعقرب، ولا يكتفون بهذا بل يفتِّشون عن أوجه القصور في عملهم من باب محاسبة النفس، فيحزنون لها، ويغتمُّون لعدم قدرتهم على الإتيان بعملهم على أكمل وأتمّ وجه.

وبمزيد من الإيضاح نقول: قد يُحْرِزُ الذين يتولّون بعض الوظائف في الحياة العامة نجاحات متعدّدة في المجالات المنوطة بهم، ويطبعون أعمالهم بخاتم الجمال لدرجةٍ تَبْهَرُ ساكني الملإ الأعلى؛ فبعضهم وصل إلى حدِّ الإتقان في عمله بأحاديثه، وبعضهم بكتاباته، وبعضهم بحسن إدارته وقيادته، وبعضهم بمهارته الفنّيّة، ولكن المؤمن الحقيقي يقول أو عليه أن يقول عند إحرازه أيَّ نجاحٍ أو تقدُّمٍ: "لو كان في مكاني من هو أكثر رشدًا وأوسع صدرًا لأتى بأعمال أكثر روعةً وإتقانًا".

بل لو افترضنا مُحالًا أنه استطاع شقَّ القمر بأصبعه وتغيير مجرى الشمس، وجعل الناسَ يلتفون جميعًا حول حقيقة جليلة واحدة، وحقَّقَ نجاحًا يعادل نجاح جبريل عليه السلام في أعماله فينبغي لصوت وجدانه أن يصدحَ قائلًا: "لو كان غيري في مكاني فلربما أدى هذا الأمر بشكل أفضل وأقوم، حقيقة الأمر أن يدي القاصرة هي التي

جعلت هذا العمل لا يصل إلى المكانة اللائقة به، فصار عملًا مبتورًا ضعيفًا".

القيامة والنفس اللَّوامة

لماذا لومُ المؤمن نفسَه مهمٌّ إلى هذا الحدّ؟! لخطورة أن يخسر في نهاية عمله رغم أنه في وقتٍ هو أدعى للكسب، يقول الله تعالى في كتابه العظيم: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (سورة القِيامَةِ: ٧٥/١-٢).

فأقسمَ ﷻ هنا بيوم القيامة ثم أقسم بالنفس اللَّوامة أيضًا، وكما هو معلوم فإن القَسَمَ لا يكون إلا على ما هو مهم وقيّم وعظيم؛ ويوم القيامة حدثٌ مهمٌّ لأن كل المجرات والأجرام والأنظمة الشمسية التي يعظّمها الناسُ في أعينهم سوف تختل وتنهدم أمام قدرة الله المحيطة وإرادته المدهشة وأفعاله العظيمة، فسيُذْرَى كلُّ شيءٍ في ذلك اليوم كالعصف المأكول ويتطاير، وهكذا كان القسَم بيوم القيامة إعلانًا عن عِظم هذا الإجراء السبحاني من الله ﷻ.

ثم يأتي القسم بالنفس اللّوامة، وهي النفس التي لا تثبُت على حال واحدة؛ إذ لا يُعجبها صنيعها، فتحاسب نفسها بنفسِها وتلومها على فعلها دائمًا، وهذه هي الدرجةُ الأولى في الارتقاء والسمو عن طريق النفس، ولا يستطيع مَن عجز عن الدرجة الأولى أن يصلَ إلى درجة النفس الملهمة، فالنفس المطمئنة، فالنفس الراضية والمرضية اللتين تشكلان جناحيها المختلفين، وأما النفس الصافية والنفس الزاكية فلا يصل إليهما ألبتة، إنّ النفسَ اللّوامةَ بمثابة سُلَّم أو حلزون أو مِصعَد يوصل الإنسان إلى مراتب النفس هذه، ولهذا السبب

فإنه لمُهِمٌّ جدًّا أن يواجه الإنسان نفسه دائمًا، ويعزو إليها كل ما يقع من سلبيات، ويلومها دومًا.

آمَنُ الطرقِ للتطهّر من الذنوب

وإن رأي فضيلة الأستاذ بديع الزمان فيما يتعلق بطبيعةِ مجاهدةِ النفس التي تغري الإنسان بنفسه عند إحرازه أي ظفر أو نجاح لجديرٌ بالانتباه إلى حد كبير، فعلى سبيل المثال نجده في أحد المواضع يواجه نفسَه ويخاطبها قائلًا: "يا نفسي المرائية! لا تغتري قائلة: إنني خدمت الدين؛ فإن الحديث الشريف صريح بـ"**أَنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ**"[١١]، فعليكِ أن تَعُدّي نفسكِ ذلك الرجلَ الفاجر، لأنك غير مزكاة"[١٢]، أما المبدأ الذي وضعه من أجل تزكية النفس فهو عدم تنزيهها وتبرئتها، وعليه فإنَّ الذي لا يرى نفسه دنيئةً تحتاج إلى التطهر لن يكون مزكًّى لأنه لن يكون قد زكّى نفسه، ولأنه ليس مزكى فلا بدّ أن يعلم أن نفسه هي مصدر كل الأشياء السلبية غير الإيجابية.

ماذا يحدث إن علم الإنسان أن النقص والعيب من نفسه؟!

إن مثل هذا الشخص يتوجه إلى الحق تعالى، فيطلب منه الهداية، وفي نفس الوقت يقبل الله ﷻ تضرعات ذلك الإنسان على أنها ندم داخليّ وتوبة ضمنيّة، فيفتح له الطرق المؤدّية إلى العفو، أما من لا يأبه بهذه التضرُّعات فإنه يرتكب أخطاءً شتى دون وعي أو إدراك، ويظلّ أيضًا مغرورًا يحسب نفسه شيئًا ما، تمامًا كما يفعل معظم

---

(١١) **صحيح البخاري**، الجهاد والسير، ١٨٢؛ **صحيح مسلم**، الإيمان، ١٧٨.

(١٢) بديع الزمان سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة السادسة والعشرون، المبحث الرابع، ص ٥٤٢.

الناس في يومنا الحاضر، فرغم أنهم ليسوا شيئًا يُذكرُ فإنهم يحسبون أنفسهم شيئًا ذا قيمة.

ها هو ذا سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ الذي أذلَّ أكبر قوتين عُظمَيَيْنِ في عصره، يتضرع إلى الله بالدعاء، ويبتهل طوال يومه منقادًا إليه تعالى في عبودية دائمة، ورغم أن الذنب لم يستطع أن يتسلل إلى محيطه الطاهر نراه يخلو بنفسه عامَ الرمادة، ينتحب باكيًا، ويتوجه إلى الله راجيًا ألّا يُهلك أمة محمد قائلًا: "اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي!"، فلما قيل له ذات يوم "يا أمير المؤمنين! لو أنك خرجتَ للاستسقاء!" استسقى بسيدنا العباس بن عبد المطلب، ربما قال في نفسه: "مَن أكون أنا حتى أرفع يدي إلى الله تعالى وأطلب منه نزول المطر!"، وعلى ذلك أمسك بيد سيدنا العباس ﵁ وصعد به هضبة، ثم رفع يده عاليًا وابتهلَ إلى الله تعالى قائلًا: "اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا"(١٣)؛ نافيًا نفسَه، مستسقيًا بسيدنا العباس، طالبًا ما يطلب به، قال أنسُ ابن مالك ﵁ -وهو راوي الحديث- فإذا استسقى عمر بهذا الدعاءِ كانوا يُسْقَون.

هكذا ينبغي أن يكون تصرف الإنسان الكامل وموقفه؛ فيجب عليه إلى جانب قيامه بأعماله على أكمل وجه ونِشدَانِه الكمال والتمام في العمل دائمًا، واستخدامه إرادته تمامًا أن يعزو إلى نفسه كل أنواع العيب والنقصان، ويحاسبها باستمرار، ويعمل بذلك القول المنسوب إلى سيدنا عمر ﵁: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا"(١٤).

(١٣) **صحيح البخاري**، الجمعة، ٨٠.

(١٤) عبد الله بن المبارك: **الزهد**، ص ١٠٣؛ ابن أبي شيبة: **المصنف**، ٩٦/٧.

والحاصل أنَّ على الإنسان أن يقوم بعمله على أكمل وجه بحيث لا يخجل عند عرضه على الذات الإلهية، وأن يختلي في الوقت ذاته بنفسه؛ فيحاسبها، ويحدد عيوبه وقصوره موقنًا في نفسه بأنه: "لو كان هناك شخص آخر لاضطلع بهذه الأعمال بصورة أفضل، أما أنا فإنني لا أجيدها وأسيءُ صنعًا"، وفي المقابل فإن الله تعالى سيطهّره بعنايته من الذنوب والعيوب جميعها ويغسلها بماء الحياة.

الاستغناء هو الرصيد الأعظم لرجال الدعوة والإرشاد

سؤال: ما هي المبادئ الأساسية الجوهرية في مهمَّةِ إرشاد القلوب وتعريفها بالحقِّ والحقيقة؟

الجواب: ينبغي للإنسان المؤمن أن ترتقي عبوديتُه لله المعبودِ المطلَقِ إلى درجة "العُبودة المُطْلَقَة"، فلا يُخلِّل في عبوديَّته لله أيَّ شيءٍ آخَر؛ لأننا مُكبَّلون بقيودِ عبودِيَّتِنا له، وأمْرُنا بِيَده هو فحسب، وهذا ما تُظهره حقيقةُ العجزِ والضعفِ والفقرِ التي تكتَنِفُنَا، يتفلت من أيدينا كلُّ شيء نريد الإمساك به والوصول إليه، وكلَّما ظنَنَّا أنَّنا قبضْنا عليه بأيدينا تفلَّتَ مجدَّدًا، ويتعذر الوصولُ إلى ما نرغبُ فيه، ومِن ثمَّ فَمِنَ الواضحِ أننا لا نملِكُ أنفسَنا؛ فثمَّةَ هيمنةٌ وسيادةٌ مُطلقةٌ تُسيطر علينا.

والواقع أن الإنسان ربما يتعذَّرُ عليه الشعورُ بهذهِ الحقائقِ في كلِّ حين؛ فقد يُضبَطُ جهازُ الاستقبالِ أحيانًا على تردُّدٍ معينٍ لإذاعةٍ ما، فإذا ما اختلَّ هذا التردُّدُ تتقاذَفُ إليه بعضُ المؤثِّرات والتردُّدات الأخرى من هنا وهناك فتُفْسِدُهُ، والإنسانُ يُقحِم أفكارَهُ وآراءَهُ الشخصيّةَ في الأَمْرِ، فعليه أن يسعى للعثور على الصوت الصحيحِ بواسطة الجدّيّة في ضبطِ العيارات. أجل، عليه ألّا يبوح بأفكارِه

وآرائه إلا بعدَ أن يزِنَها بميزان الضمير العارف، فإن شابَ الأمرَ شيءٌ من أخطائنا الخاصّةِ بنا -رغمَ كلِّ الجهد والسعي المبذول لتجنُّبِها- فإننا نرجو الله ﷻ أن يعفوَ عن ضعفِنا هذا ويتجاوز عنه، وإلا فإنه لا يمكن أن تتَّسِقَ التصرُّفات الماجنةُ غيرُ المُباليةِ مع شعورِ العبودية أبدًا.

مطرقةٌ إثرَ مطرقة

تخيلوا أنكم سجدتم في صلاتكم فأطَلْتُم السجودَ، ورُحْتُم تتضرَّعون إلى الله بضعَ دقائق، غير أن الشيطان همسَ إليكم من فوره في تلك الأثناء بمشاعِرِ الإعجاب بالعملِ واستعظامِه من قبيلِ: "ما أَحسنَ عبوديتكَ لله!"؛ مستخدمًا في همسه هذا آليَّةَ النَّفْسِ، فإن حدَّثَتكم أنفسكم بمثْلِ هذا الحديثِ فلْتُقاوِموها في الحال قائلين: "ما عبدناك حقَّ عبادَتِكَ يا معبود، وما ذَكَرْناكَ حقَّ ذِكْرِكَ يا مذكورُ، وما شكرناكَ حقَّ شكرِكَ يا مشكور، وما سبَّحْناكَ حقَّ تسبيحِكِ يا من تسبِّح له السماواتُ السبعُ والأرضُ ومَن فيهنّ"، وعلينا أن نطرقَ بمطرقةٍ إثر مطرقة فوق رأسِ كلِّ الملاحظات والأفكار التي لا تُوافِقُ رضاه ﷻ طَرْقًا يَفُتُّ في عضدِها فلا تَقومُ لها قائمةٌ بعدُ.

ولكنه ينبغي لكم حتى وإن طرقتم عليها بأثقل المطارق أن تعلموا أن مثل هذا النوع من المشاعر التي تبُثُّها وساوسُ الشيطان وتُسوِّلُها وَتُزيِّنُها النفسُ الأمَّارةُ سرعانَ ما تقفِزُ وتصحو مجدّدًا حيث لا يُتوقّع وكأنها مخلوقٌ بسبع أرواح، لدرجة أن النفس والشيطان لن يكفَّا أبدًا عن بثِّها وإثارتِها في ذهنِ الإنسان حتى وهو يطوفُ حول الكعبة، ويبتهل إلى الله ويدعوهُ في "عرفات"، ويبيتُ

في "المزدلفة"، بل حتى وهو يرجمُ الشيطان ويُمْطِرُهُ بالأحجارِ وكأنه يرجم رأسَ نزواته ورغباته الشخصية وهو في "مِنًى"، فإنهما يسعيان دائمًا لإغوائه والإيقاع به.

ولهذا أمر الله تعالى في القرآن الكريم قائلًا: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾ (سورة هُودٍ: ١١/١١٢)، ونسأل الله تعالى الاستقامةَ والهداية بقولنا ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ (سورةُ الفَاتِحَةِ: ١/٦)، فإن كنَّا نُصلِّي الفروضَ وسُنَنَها كلَّها فنحن إذن نكرِّرُ هذا الطلبَ أربعين مرَّةً في اليوم والليلة، وإن كنا نصلي النوافل الأخرى كصلاة الأوابين والتهجُّد والضحى فربما أننا نطلبُ من الله تعالى كلَّ يومٍ ستين مرة أن يهدينا الصراطَ المستقيم، لأنه تعالى إن لم يأخذْ بأيدينا إلى الطريق المستقيمِ ويهدِنا إليه فلا شكَّ أننا ستنعثَّرُ في دروبِ النفسِ الأمّارة ودهاليزِها وسنتَسبَّبُ في كمٍّ هائلٍ من الحوادثِ المروريّة التي يتعذَّرُ معها إعمارُ وإصلاحُ ما نتجَ عنها من كوارث وانهيارات.

التوفيق لا يحالف من يطلب أجرًا لقاءَ خدماته

إننا حينما نردِّدُ اسمَهُ تعالى دومًا ونقومُ له ليلًا ونذكره حيثُ يَجِبُ علينا ذِكْرُهُ ونتنفَّسُهُ "هو" تستمرُّ صِلَتُنا وارتباطنا به سبحانه حتى ونحن في أيِّ حالٍ مما تقتضيهِ الطبيعةُ البشريّةُ، وفي ذلك على سبيل المثال قول رسول الله ﷺ: "**مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ، وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ فَيُصَلِّيَ مِنَ اللَّيْلِ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ حَتَّى يُصْبِحَ، كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى، وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّه**"[١٥]، وهذا هدية ومنة يَمُنُّها علينا تعالى من رحمته الواسعة. أجل، إن رحمته واسعة؛ فلم يُحمّلنا ما لا نطيق

(١٥) **سنن النسائي**، قيام الليل، ٦٣؛ **سنن ابن ماجه**، إقامة الصلاة، ١٧٧.

من الأعمال والواجبات، بل كَلَّفَنَا بما نطيقُهُ فحسب؛ فليس في الدين تكليفٌ بما لا يُطاق كما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ (سورة البَقَرَةِ: ٢/٢٨٦).

إذًا فينبغي لنا ألا نبتغي شيئًا آخر سوى رضا الله تعالى الذي يُمطرنا ويفيض علينا برحمته الواسعة ولُطفه العميمِ زخًّا زخًّا؛ لأنه ليس هناك ما يسمو فوق هذا ولا ما يفضلُه، فأكبر هدايا الحقِّ تعالى لعباده المؤمنين في الجنّة بعدَ رؤيته المباركة هي رضوانُه عنهم: ﴿**وَرِضْوَانٌ مِنَ اللّٰهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ (سورة التَّوْبِةِ: ٩/٧٢)، والجائزةُ العظمى هي أنْ يقول لهم تعالى: "**أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**"[١٦]، ويتعذَّرُ علينا ههنا ونحن في هذه الدنيا أن نُخَمِّنَ ونتصوَّرَ مدى المتعةِ التي ستُحْدِثُها هذه النفحةُ الإلهيّة في روحِ المؤمن، ربما أن أولياء الله تعالى مثل الشيخ الجيلاني، وأبي الحسن الشاذلي، ومحمد بهاء الدين النقشبندي، وخالد البغدادي، والإمام الرباني، وحضرة بديع الزمان أحسُّوا بِلَذَّتِها على مستوى الظِّلِّيّةِ بقدرِ ما سَمَحَتْ به الظروف في هذه الدنيا، ولا أمتلِكُ طاقةً ولا قدرةً على بيان شيءٍ كهذا ولا تصويره؛ لأن الله قال في حديثٍ قدسيٍّ متحدِّثًا عن نِعَمِ الجنة ونعيمِها: "**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**"[١٧]، ومن هذا الإطار المرسوم المحدد هنا نفهمُ أن هذه المسألة تتجاوزُ تمامًا إدراكَ الإنسان وعلمَه.

(١٦) **صحيح البخاري**، الرقاق، ٥١؛ **صحيح مسلم**، الإيمان، ٣٠٢.

(١٧) **صحيح البخاري**، التوحيد، ٣٥؛ **صحيح مسلم**، الجنة، ٤-٥.

ومن هذه الناحية فإنه ليس ثَمَّةَ شيءٌ لا في الدنيا ولا في العُقبى على حدٍّ سواء أعظمُ وأقيمُ من طَلَبه ﷻ واستنهاض همّة الآخرين في طَلَبه، ولأجلِ هذا فإن الأنبياءَ العظامَ نذروا حيواتهم السنيّة وربطوها بالمبادئ الأساسيّة للتعريفِ بالله تعالى فحسب، وتحبيبِ الناسِ فيه، وتقويةِ صلةِ الآخرين وارتباطِهم بالله تعالى، ولم يسألوا أحدًا أجرًا على هذا ولم ينتظروه، لأن هذا يضرُّ بالإخلاص ويُضيع العمل، بالإضافة إلى ذلك لم يَثبُتْ أنه قد نجح ووُفِّق من طلبوا ثمنًا أو أجرًا على ما أدّوه من خدمات، وإن نجحوا فنجاحٌ مؤقَّتٌ سرعان ما كانت تعصف ريحٌ معاكسة فتذروه كما تذرو العواصفُ التبنَ.

حقيقةٌ واحدةٌ نطقَ بها الأنبياءُ أجمعون

ذكر الله تعالى الأنبياء العظام مثل نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام واحدًا تلو الآخر في سورة الشعراء، ثم بَيَّنَ أنَّ الكلمةَ القاسمَ المشتركَ بينهم جميعًا هي: ﴿**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (سورة الشعراء: ٢٦/١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠)، فقد قاموا بما كُلِّفوا به من أجل الله تعالى فحسب، واتجهوا إلى الله تعالى وقصدوه هو دائمًا، ولم يتشوَّفُوا ولو حتى إلى مثقال ذرَّةٍ من الأجرِ عوضًا عمّا قاموا به من خدمات.

وبالرغم من تغيّر العصر وتبدُّلِ الظروفِ والأحوالِ وتسبُّبِ مراحلِ الزمنِ المختلفةِ في تفسيراتٍ وتحليلاتٍ مختلفة فإن جميعَ الرسلِ المذكورين آنفًا ثبتوا على نفسِ الموقِف وتمسَّكوا بالعبارة عينِها في هذه المسألةِ، فقال سيدنا هود مثلما قال سيدنا صالح، ونرى سيدَنا لوطًا يقول نفسَ ما قاله مِن قبله سيدُنا نوح... على نبينا

وعليهـم الصـلاة والسـلام. أجل، كلمتُهم سـواء، في حيـن أنّ لكلِّ مجتمـعٍ مـن تلك المجتمعاتِ التي أُرسـلوا إليها مَشـاكله المختلفة الخاصّـة بـه، وهـذا يعني أنه مهمـا اختلَفَـتْ المشـاكلُ وتبايَنَتْ فإن الإخلاصَ والاستغناءَ هو سبيلُ حلِّها.

فمثلًا قومُ سـيّدنا نوح عليه السلام اتخذوا عظماءَهُم آلهةً، وأسـموا هذه الآلهة بأسـماء شتى مثل "وَدّ" و"سُـوَاع" و"يَغُوث" و"يَعُوق" و"نَسْر"، فكانوا يُؤلِّهون مَن في القبور، ويَطلبُونَ منهم المددَ وما لا يستطيعونه لأنفسـهم: ﴿**وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُـوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُـوقَ وَنَسْرًا ۞ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِـيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلَالاً**﴾ (سـورة نُوحٍ: ٧١/٢٣-٢٤)، وهذا خطرٌ يمكن أن يحدثَ في كلِّ عصرٍ.

أمـا قومُ عاد فكانـوا يفتخِرُون بِعَظَمَتهم وضخامَتهم، فانسـحَقوا تحـتَ آفـةِ الكِبرِ والغـرور، ﴿**وَقَالُوا مَنْ أَشَـدُّ مِنَّا قُـوَّةً**﴾ (سـورة فُصِّلَتْ: ٤١/١٥)، وكانوا يبنون قصورًا مشيَّدة محكمة يرجون الخلود في الدنيا كأنهـم لا يموتـون، وكأنهم لن يصيبَهم أيُّ ضـررٍ لا من الأرضِ ولا من السـماءِ، ولو اجتمعت ضدّهم كلُّ أسبابِ الهدمِ وعوامل الصدعِ فلن تسـتطيع أن تهدمَ بُنيانَهم، ومن ثَمَّ كانت مشـكلتُهم مختلفةً عن مشـكلةِ قومِ سـيّدنا نوح عليه السلام، وقد أكَّدَ سـيِّدُنا هود عليه السلام لقومه مدى مـا هـم فيه من خطإ؛ وعبَّر لهم عن فداحتـه مُخاطِرًا بكلِّ ما قَدْ يَحِلُّ بـهِ وغيـرَ آبـهٍ بتهديداتهـم، وصرّح باسـتغنائه تمامًا عـن أيِّ أجرٍ في مقابـل قيامـه برسـالتِه كما حكى ذلك القـرآن الكريم، فقـال تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَـلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُـولٌ أَمِـينٌ ۞ فَاتَّقُـوا اللّٰهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْـهِ مِنْ أَجْرٍ**

إِنْ أَجْـرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِـينَ ۞ أَتَبْنُـونَ بِكُـلِّ رِيعٍ آيَـةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۞ وَإِذَا بَطَشْـتُمْ بَطَشْـتُمْ جَبَّارِينَ ۞ فَاتَّقُـوا اللّٰهَ وَأَطِيعُـونِ ۞ وَاتَّقُـوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُـونَ ۞ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَـامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ قَالُوا سَـوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٢٦/١٢٧-١٣٦).

وحيـن ننتقـل إلـى حقبة سـيدنا صالـح عليه السلام نـرى أن الناس في عصـره كانـت لهم مشـكلة مختلفـة أيضًا؛ فقد انغمسـوا فـي مفاتن الدنيا وانهمكوا في بُلَهْنِيَةِ العيشِ بين البساتين والحدائق والجنان، وراحوا يعيشون بشكلٍ فارهٍ فاخرٍ في أبنيةٍ محكمةٍ محصّنةٍ، وما كان مِـن نبيّهم صالـح إلّا أنْ واجَـهَ كلَّ الصعوبات فأدّى رسـالةَ التبليغِ دون أن يتشـوَّفَ إلى أيِّ شـيءٍ على الإطلاق، ودعاهم إلى التوحيد، وحذرهم من الإسـراف والفسـاد، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَـالَ لَهُـمْ أَخُوهُـمْ صَالِـحٌ أَلَا تَتَّقُـونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُـولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِـينَ ۞ أَتُتْرَكُونَ فِي مَـا هَاهُنَا آمِنِينَ ۞ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخْـلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۞ وَتَنْحِتُونَ مِـنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ۞ فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٢٦/١٤١-١٥١).

أما في عصرِ سيدنا لوط عليه السلام الذي جاء بعده فقد وقـعَ الناس في أمور مستهجنةٍ لا تليق بالإنسانيّة؛ فانحرفَ مجتمعُهم وعربدَ وفسقَ، وكغيره من الأنبياء ودون أن يأبَهَ بأيٍّ من تهديداتِ الطردِ والتجريدِ من كلِّ شيءٍ؛ دعا هو أيضًا عليه السلام قومَهُ إلى التوحيد والفضيلةِ والاستقامة،

ولـم يبتغِ فـي مقابل هذا أيَّ أجـرٍ منهم على الإطـلاق، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۞ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۞ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ۞ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ۞ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ۞ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۞ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ۞ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ۞ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ۞ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٢٦/١٦٠-١٧٥).

وأما سيدنا شعيب عليه السلام فقد أُرسل في عصرٍ اختلَّتْ فيه الموازينُ والأكيالُ في الأسواقِ والمتاجِرِ، فلم يكن يُفرَّق بين الميزان والموزون، وكانت الحياةُ التجاريّةُ مليئةً بالتضاربات والتماوجات؛ فكانت الأموال تصبُّ في صالِحِ المنافعِ الشخصيّة لِأُولي القوّة والسلطان، فَحَذَّرَهم سيدنا شعيب عليه السلام قائلًا: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۞ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۞ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٢٦/١٧٧-١٨٤).

ويأمر اللهُ مَفخرةَ الإنسانية محمدًا صلى الله عليه وسلم بنفس ما قاله أسلافُه من النبيين والمرسلين، يقول تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (سورة

الأَنْعَامِ: ٦/٩٠)، (سـورة الشُّـورَى: ٤٢/٢٣)، ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ**﴾ (سورة الفُرْقَانِ: ٢٥/٥٧)، (سورة ص: ٣٨/٨٦)، وهذا أمرٌ من الله بأن لا يطلب أيَّ شيءٍ أو أجرٍ من قومه الذين أذاقوه كلَّ ألوانِ الأذى والضرّاء في مكّة المكرّمة خلال ثلاثَ عشرة سنة، وَاضْطَرُّوه للهجرةِ خارجَ بلدِه، وجعلُوه يُقاسـي آلامَ الشـوقِ لها. أجل، لم يطلبْ النبيُّ ﷺ أيَّ شيءٍ ولـم يتشوَّفْ إلى أيّةِ حاجةٍ من مخاطَبيهِ رغم أنَّه كان وسيلةً لِسَعَادَتِهم في الدنيا والآخرة؛ فكان ينامُ على الحصيرِ، ويُكابدُ الجوعَ أيامًا، غير أنّه لم يُغيِّر سلوكَه وموقِفَهُ هذا على الإطلاق.

فقدان القيمة وتوعُّر الطرق

الواقـعُ أنَّ طريـقَ الاسـتغناء هذا هـو الطريق الوحيد لبَـثِّ الثِّقَةِ وإقنـاعِ المخاطَبِ، لأنّ مَن يتشـوَّفُ ويطمَـعُ في شـيءٍ مـن المنافِـعِ والفوائدِ عوضًا عمّا أنجزه من خدمات؛ إنّما هو يُسيءُ إلى ما يحظى بـه من التفاتٍ وقبولٍ لدى الآخرين، ويفقدُ سُـمعته واعتباره في نظر مخاطبيـه، فـإذا عزمتم علـى خدمةٍ فعليكم ألا تبرحوا منهجَ رسـولِ الله وسـبيلَه، فإنّه يُؤمَلُ أن يقول مَـن يُراقبُ عملكم: "إن هؤلاء حين بدؤوا العمل كانت لديهم مائة ليرة، فلما غادروا رأينا أنه تبقت لديهم تسـعون ليـرة، يعني أنهم لم يسـتطيعوا الحفاظ حتـى على مالهم بل أنفقوه في هذا السـبيل"، إن مبدأَ الاسـتغناءِ وعدم التشـوُّفِ لأجرٍ ما كما أنه صفةٌ ضروريّةٌ لكلِّ الإداريّين في الدولة بدءًا من عمدة القريةِ وصولًا إلى رئيسِ الدولة؛ فإنه ضروريٌّ ومطلوبٌ أيضًا بالنسـبة لمن نـذروا أنفسَـهم لِإِبْلَاغِ الحـقِّ والحقيقـةِ والتحديثِ بهـا؛ لأن أعظمَ ديناميّاتهم هي الاستغناءُ والتضحيةُ.

وأَنْ يتركَ من نذروا أنفسَهم للإنسانيَّةِ آثارًا خالدةً أمرٌ مرهونٌ بِسيرهم في طريقِ الأنبياءِ ﷺ، وإلا فإن أولئك الأشخاص الذين يستهلُّون طريقَهم محتذين بسيدنا هارون ﷺ ثم يتحوَّلُ كلٌّ منهم إلى "قارون" سوف يأتيهم يومٌ تُخسَفُ بهم فيه الأرض؛ هم وخزائنهم، ويُلعنون كلما لُعِنَ، ولو كان يوجَدُ في قلبي موضعٌ صغيرٌ للَّعنِ والدعاءِ على الغير لكنتُ قلتُ لمن يُفكِّرون في منافِعهم الشخصيّة، ويربطون الأمورَ بمصالِحِهم الخاصّة، ويختصّون أنفسَهم وحاشيتَهم بالمناقصات التجارية، ويُقرِّبون منهم من يمنحونهم تلك الأنصبةَ ويُفضّلونهم على غيرهم: "خسف الله بكم وأهليكم وتشوُّفاتكم وقضى عليكم"، ولكن لما لم يكن في قلبي أيُّ موضعٍ أو مكانٍ للدعاء على الآخرين فقد توسَّلْتُ وتضرَّعْتُ رغبةً في هدايَتِهم و-بعبارة الشاعرِ "محمد إقبال"- لم أُعَقِّبْ على الدعاء عليهم ولَعْنهم بقولِ "آمين".

ومن هذه الزاوية فإنه ينبغي لِمن نذروا أنفسَهم لخدمةِ الإيمانِ والقرآن وعاشوا في محيطِها المبارِكِ ألَّا يستغلُّوا ما فعلوه من خدماتٍ لِصالِحِ أنفسِهم، وعليهم ألا يأخُذُوا مناقصةً لا يستحقّونها، وألّا يلهثوا خلفَ أيِّ منفعةٍ؛ مستغِلّين سمعتَهم واعتبارَهم لدى المجتمع من أجلِ تحقيقِ ذلك؛ عليهم ألّا يُضحّوا بمشاعر "التضحية" و"الاستغناء" -اللَّذَين يُمَثِّلان أكبرَ وأعظمَ ميزةٍ وخاصّيّةٍ بالنسبة لهم- في مقابلِ أشياءَ دنيويّةٍ تافهةٍ عاديّةٍ؛ فهناك مَن تكفَّلَ بالسعيِ من أجلِ المال، وهم يفعلون ذلك في إطار دائرةِ الشرع، وقد منَّ ويَمُنُّ الله تعالى عليهم بأرباح ومكاسبَ عظيمةٍ في حياتهم التجارية، وهم يستخدمون مكاسبهم وثرواتهم أيضًا في سبيل الله،

أما من نذروا أنفسَهم ويُمَثِّلُ كلُّ واحدٍ منهم "مرشدًا وهاديًا إلى الطريقِ القويمِ" فإن أعظمَ ثرواتِهم هي الاستغناءُ والحِسْبَةُ لله، فإن تركوا هم هذا ولَهَثوا وراءَ أشياء غيره فقد استبدلوا القليلَ بالكثيرِ.

إن مفخرةَ الإنسانيّة ﷺ -كما روى ذلك ابن عباس رضي الله عنهما- انتَقَلَ إلى الرفيقِ الأعلى وَمَا تَرَكَ دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، وَلا عَبْدًا وَلا وَلِيدَةً، وَتَرَكَ دِرْعَهُ رَهْنًا عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ(١٨)، ولم يكن سيدنا أبو بكر رضي الله عنه مختلفًا عنه ﷺ في هذا الأمر؛ فقد جمعَ ما زاد عن حاجته مما وُضِع له من مخصَّصات راتب كخليفةٍ للمسلمين وألقى ذلك كلَّه في جَرَّة كما أَسْلَفنَا، ولما حضَرَتْهُ المنيةُ قال: "انْظُرُوا مَا زَادَ فِي مَالِي مُنْذُ دَخَلْتُ الإِمَارَةَ فَابْعَثُوا به إِلَى الْخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِي"(١٩)، وأما الفاروقُ فكانَ زاهدًا في الدنيا وكثيرًا ما كان ينامُ على الرمالِ والحصباءِ في المسجد النبويّ.

نهايةٌ مؤسفةٌ لِمَنْ ينتهِجون الفسادَ والاختلاسَ

أولئك الذين ذكرناهم آنفًا هم العظماء الذين يجب الاقتداء بهم، فالطريق والمنهجُ الصحيحُ هو طريقُهم ومنهجُهم، أما غيره فهو "التيهُ والضلال"، ومن ينحرِف عن منهجهم سينزَلِق في شتّى أنواع الفسادِ دون أن يَدري، وهذه الأوجهُ من الفساد سوف تجعله -وإن أسعدَتْه وسرَّته في أوَّلِ الأمر- يتحسَّرُ في النهايةِ قائلًا: "يا ليتني كنتُ ترابًا ونسيًا منسيًّا".

(١٨) **مسند الإمام أحمد**: ٤٧٣/٤.

(١٩) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، ١٤٣/٣.

إذًا ينبغي لأفرادِ تلك المجموعة السامية العالية الهمّة ألَّا يهتمُّوا بالدنيا أكثر مما ينبغي وألا يُعطوها أكثرَ مما تستحق، وكما قال ﷺ: **"لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**"[(٢٠)]، ويُروى عن عَليّ بن أبي طَالب كرّم الله وجهه مرفوعًا إلى النبيّ ﷺ قال: **أوحى الله ﷻ إلَى دَاوُدَ: مَثلُ الدُّنْيَا كَمثل جِيفة اجْتمعت عَلَيْهَا كلابٌ يجرونها أَفَتُحِبُّ أَن تكون كَلْبًا مثلهم فتجرّ مَعَهم!؟**"[(٢١)].

ليتنا نستطيع نسيان هذه الدنيا الخدّاعة باستثناءِ ما يجبُ علينا الاهتمام به من جوانب فيها، إذ إن من لم يهملوها ويَنْسَوها قد أساؤوا إلى أنفسهم وإلى الأمَّةِ والتاريخ على حدٍّ سواء، ولأخذِ العِبرَةِ من التاريخ؛ فَقَصْرُ "طُوبْقابي" حَمَلَ أمّةً إلى سيادةٍ عالمية، فكان هذا المكانُ انعكاسًا لعالَمِنَا الروحيّ على الخارج؛ فهناك تتجسَّدُ الفكرة المثالية التي حملها كلٌّ من "محمد الفاتح" و"بايزيد الثاني" و"ياووز سليم" و"سليمان القانوني"؛ فقد سلَكُوا سبيلَهم، وسافروا إلى ديار قاصيةٍ بعيدةٍ لإعلاءِ كلمةِ الله، وفعلوا ما يجب فعلُه من أجلِ تحقيق التوازن في العالم؛ فأطاحوا بالظالمين، وجعلوا المظلومين يتنفَّسُون الصعداء، وعندما رجعوا إلى ديارهم واصلوا القيام بأعمالهم وواجباتهم في قصر "طُوبْقابي" ذلك القصر المتواضع البسيط، أما القصور الفاخرة المبهرجة مثل "دُولْمَه باغْجَه" و"يِلْدِز" فإنها أطفأَتْ نجمَنَا برغم كل وميضِها وبريقِها، فهذه وإن أَظْهَرَتْ لنا الدنيا وكأنّها جنّةٌ، إلا أنها أنْسَتنَا اللهَ والجنةَ الحقيقيّة.

---

(٢٠) **سنن الترمذي**، الزهد، ١٣؛ **سنن ابن ماجه**، الزهد، ٣.

(٢١) الديلمي: **الفردوس بمأثورِ الخِطابِ**، ١٤٢/١.

روح الإيثار

سؤال: ما هي مكانةُ خصلةِ الإيثار وما أهمِّيَّتها في حلِّ المشكِلات الإنسانيّة؟ وكيفَ يتسنّى للإنسان أن يتحلّى بها؟

الجواب: إن الإيثارَ الذي يعني تفضيلَ المرءِ غيرَهُ على نفسه هو من أهمِّ القِيَمِ التي فقدْناها؛ وما من شيءٍ يقفُ وراءَ الهرجِ والمرجِ والاختلافِ والفرقةِ وعدم قَبولِ الآخر والتنازع بين الأفراد والمجتمعات اليوم إلا موت روحِ الإيثار، وسببُ موتِ هذه الروح إنما هو إشرافُ القِيَمِ القلبيّة على التحلُّلِ والفساد؛ لأن القلبَ حين يفسدُ تنمحي منه كلُّ القيم الإنسانية والنقوش والثوابت العالية المفطورة في الإنسان باعتباره خُلِقَ في "أحسنِ تقويم"، ومن ثمّ يتسلَّلُ الشيطانُ إلى عالمِ الإنسانِ الفكريّ ويتلاعب فيه بأريحيّة تامّة، ولهذا فقد ختم رسول الله ﷺ حديثه: "**إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ**" بقوله ﷺ: "**أَلَا وإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**"[٢٢].

وهذا يعني أن حياةَ القلبِ المعنويّة والحفاظ عليها مرهونٌ بمدى حِرْصِ الإنسانِ على طهارةِ قلبه ونقائه من كلِّ أنواع الدَّنَسِ، ومراقبته إيّاه يوميًّا، وفي هذا الشأن فعلى السالِكِ أن يستدرَّ هذا الطهر والنقاء

(٢٢) **صحيح البخاري**، الإيمان، ٣٩؛ **صحيح مسلم**، المساقاة، ١٠٧.

القلبـيّ عبر الإلحاحِ بالدعاء، وعليـه أن يتحلّى بأعلى درجات الدِّقّة والحـذر، حتّـى إنّه ينبغي لـه أن يبتعد تمامًا عن الخيـالاتِ والأفكارِ السيئة التي من شـأنِها أن تُخَلِّفَ آثارًا سـلبيّة في القلب، لأنه وكما ورد فـي الحديـث النبوي الشـريف: "**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَـادِكُمْ، وَلَا إِلَـى صُوَرِكُـمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ**"(٢٣)؛ فإن **الله** ﷻ ينظر إلى قلب الإنسان ويجازيه بناءً على ذلك، ولا ينظر ﷻ إلى وزن الإنسان ومنظـره ولا البيئـة الثقافية التي نشـأ فيها، وإنما ينظـر إلى صفاءِ قلبه ونقائه، ويعامله وفقًا لهذا، كما أنه يُنظر في الآخرة أيضًا عند الميزان إلى قيمة القلب وثِقَله؛ فيُقدَّرُ الإنسان بقدرِ توجُّهِ قلبه إلى **الله** تعالى، وخوفـه منه وشـعوره بهِ ﴿**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَـالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٢٦/٨٨-٨٩).

العصر الذهبي لروح الإيثار: عصر السعادة

إنّ ذوي القلوب الطاهرة النقيّة مفعمون بمشـاعر الرأفة والشـفقة تجاه الإنسانية، ويُفكِّرون ويَشْتغلُون في الوقتِ نفسه بإحياءِ الآخرين وحياتهـم أكثر من حياتِهم أنفسـهم، وهو الأمر الـذي ترتبط به روح الإيثار في الأساس، وقد لفت القرآن الكريم الانتباه إلى خصلة الإيثار بقوله تعالى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ (سورة الْحَشْرِ: ٩/٥٩)، ولقد كان العصرُ الأكثرُ ازدهارًا وشـيوعًا لهذه الروحِ والفكرة هو عصرَ السعادة الذي تَصَدَّرَ تاريخ الإسلام، ومن ذلك على سبيل المثـال أنّ رَجُـلًا أتى النبـيَّ ﷺ، فَبَعَثَ إِلَى نِسَـائه فَقُلْنَ: مَـا مَعَنَا إِلَّا المَـاءُ، فَقَـالَ رَسُـولُ **الله** ﷺ: "**مَنْ يَضُـمُّ أَوْ يُضِيفُ هَـذَا**"، فَقَالَ رَجُلٌ

(٢٣) **صحيح مسلم**، البر، ٣٣-٣٤؛ **سنن ابن ماجه**، الزهد، ٩.

مِـنَ الأَنْصَـارِ: أَنَا، فَانْطَلَقَ به إِلَى امْرَأَته، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَـتْ: مَـا عِنْدَنَـا إِلَّا قُوتُ صِبيَانِـي، فَقَالَ: هَيِّئِـي طَعَامَكِ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صبيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْـهُ، فَجَعَـلَا يُرِيَانه أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ، فَبَاتَـا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَـى رَسُـولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: "عَجِبَ اللهُ اللَّيْلَةَ مِـنْ فعَالِكُمَا" فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ**﴾ (سورة الْحَشْرِ: ٥٩/٩)[٢٤].

وقد تناول محمد عاكف هذه الروح المباركة السامية وعرض لها في قصيدةٍ نَظَمَها حولَ موقعة "اليرموك"؛ حيث ارْتُثَّ[٢٥] من ساداتنا الصحابة الكرام في هذه الحرب كلٌّ من الحارث بن هشـام وعكرمة ابـن أبـي جهل وعياش بن أبي ربيعة ﷺ فَدَعَا الْحَارِثُ بِمَاءٍ يَشْـرَبُهُ، فَنظَـرَ إِلَيْـهِ عِكْرِمَةُ، فَقَالَ الْحَـارِثُ: ادْفَعُوه إِلَى عِكْرِمَـةَ، فَنظَرَ عَيَّاشُ ابْـنُ رَبِيعَـةَ، فَقَالَ عِكْرِمَةُ: ادْفَعُـوهُ إِلَى عَيَّاشٍ، فَمَا وَصَـلَ إِلَى عَيَّاشٍ وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ حَتَّى ذاقوا طعمَ الشهادةِ وما ذاقوا الماءَ[٢٦].

وقد وقعت أمام عينيّ حادثةٌ مشـابهةٌ لما أسـلَفنا، لا أنساها أبدًا، حيـث كنّـا في مخيم "بوجة"[٢٧]؛ إذ جاءت قطعةُ لحمٍ في طبقِي حين كنا نأكلُ الطعام، فدفعتها فورًا أمام أسـتاذ حلَّ بنا ضيفًا وكان جالسًـا

(٢٤) انظر: **صحيح البخاري**، مناقب الأنصار، ٧٠، تفسير سورة الحشر، ٦/١٤٨؛ **صحيح مسلم**، الأشربة، ١٧٢-١٧٣.

(٢٥) **ارْتُثَّ فلان**: ضُرِبَ في الحرب فأُثْخِنَ وحُمِلَ وبه رَمَقٌ ثم مات.

(٢٦) الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، ٣/٢٧٠؛ البيهقي: **شعب الإيمان**، ٥/١٤٣؛ ابن عبد البر: **الاستيعاب**، ٣/١٠٨٤.

(٢٧) عقد مخيم "بوجة" عام (١٩٦٨م)، من أجل تنشئة الطلاب وتهذيبهم، ولمزيد من المعلومات انظر: **فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر**، ص ٧٠-٧٩.

بجـواري، فدفعها بِـدَوره إلى مَن بِجِواره، وهكـذا دواليك، وبعد أن طافت قطعةُ اللحم ربما أمام اثني عشر رجلًا عادت إلى طبقِ الضيفِ الأوَّلِ مـرَّةً ثانيـةً، فعلَّـقَ الأسـتاذ المليـحُ على هذا بقراءتـه قول الله تعالى: ﴿**بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا**﴾ (سورة يُوسُفَ: ١٢/٦٥)، وهكذا فإن انتشارَ هذا الشـعورِ والحسّ بين الناس مهمٌّ جدًّا من أجل سـلامة المجتمَـعِ وطمأنينته وبناءِ روحِ الأخوّة بين أفراده.

الإيثار في المنصب والرتبة

كلُّ هـذه أمثلـة مهمة بالنسـبة للإيثار، ومـع هـذا فينبغي ألا يُنظر إلـى الإيثـار على أنه مجـرَّدُ تفضيـلِ الآخرين على النفـسِ في أمورٍ كالمـأكلِ والمشْـرَبِ والملبَـسِ فحسـب؛ فتفضيل المـرء أخاه على نفســه حين يتعلّق الأمر بالمقام والمنصِبِ والرتبةِ مهمٌّ جدًّا بالنسـبة لمعنى الإيثار، وما أجمل موقف سيدنا عمر ﷺ وما أجوده من مثالٍ فـي هـذا الشـأن؛ فحينمـا انتقل مفخرة الإنسـانية ﷺ إلـى أفق روحه اجتمـع الصحابة الكرام من فورهم فيما بينهم كي يتفقوا على خليفة حتى لا تفسـدَ الوحدة الروحية التي بين المسلمين، ولا يتفرقَ شملُ المجتمـع المسـلم، فعـدَّدَ سـيدنا أبـو بكـر فضائل عمر وقـال لمن حوله من الصحابةِ في سـقيفة بني سـاعدة: بَايِعُوا عُمَرَ، أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ ابْـنَ الجَـرَّاحِ، فَقَالَ عُمَـرُ: بَلْ نُبَايِعُـكَ أَنْتَ، فَأَنْـتَ سَـيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّنَـا إِلَى رَسُـولِ اللهِ ﷺ، فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَده فَبَايَعَـهُ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ[٢٨]، ومن ثم فإن تراجـعَ الإنسان خطوةً إلى الوراء وتقديمه أخاه على نفسه في الإمارة والصدارة نوعٌ مهمٌّ جدًّا من أنواع الإيثار.

(٢٨) انظر: **صحيح البخاري**، المناقب، ٣٣؛ **سنن النسائي**، الإمامة، ٢؛ **مسند الإمام أحمد**، ١/ ٢٨٢.

وبالمناسبة عليَّ القول إننا لسنا في وضعٍ يسمحُ لنا بقياسِ أوجُهِ عظمةِ سيِّدنا أبي بكر وسيّدنا عمر ورفعةِ كلٍّ منهما؛ لأننا لا نملكُ ميزانًا يَزِنُ أعمالَهما بما يتَّفِقُ وقيمتَهما الخاصّة، وأظنُّ أنه حتى وإن همَّ الميزان الذي في الآخرة أن يَزِنَ أبا بكرٍ وعمر وعثمان وعليًّا ﷺ وثواب أعمالهم فإنه ينوءُ بذلك، فكلُّ واحدٍ منهم قيمةٌ متفرّدةٌ برَأْسِها، حتى إنهم ساروا متساوين في المرتبة، فلم تبقَ أمامهم مرتبةٌ إلا وأدركوها سوى الرسالة، وإنما لم يُحرِزوا الرسالةَ لأنه لا رسالة بعد رسول الله ﷺ، ولو أنه كان هناكَ نبيٌّ بعد مفخرةِ الإنسانيّة ﷺ لكانَ أحدَهم.

أجل، حين رأى سيِّدنا أبو بكر سيدنا عمرَ ﷺ جديرًا بالخلافةِ رآه عمرُ أيضًا حقيقًا بها، ومن المؤكَّدِ أنَّ أيًّا منهما لم يقلْ ولو حتى في حديثِ نفسه الداخلي: "إنني أستطيع أن أُتقنَ هذا العمل أكثر من صاحبي؛ فقد أُشِيرَ إليَّ"، وهكذا فإن قدرةَ المرءِ على تفضيلِ غيره من إخوته على نفسه حين تتعلَّقُ المسألةُ بِنَيلِ مناصبَ معيّنة ربما يُمثِّلُ في حدِّ ذاته مرتبةً من الإيثار تفوقُ كلَّ أنواعِ الإيثارِ في المنافِعِ المادّيّة.

ومن يتحلَّى بهذهِ الخصلةِ لا يُفضِّلُ أن يعيشَ ويحيا هو فحسب، بل يُؤْثِرُ على نفسه أن يحيا الآخرون، ويتصرَّفُ بجرأةٍ وجسارةٍ حتى إنه ليقول: "أموتُ وأفنى إن لزمَ الأمرُ، المهمّ أن يحيا الناس، وإن كان بقاءُ أمَّتي وثباتُها مرهونٌ بالتضحيةِ بي فإنني أسأل الله تعالى أن يَقسِمَ لي هذا في الحال"، وعلى العكسِ من ذلك فإن الشقيَّ المحرومَ من هذه الروح الطيّبةِ هو مَنْ يحسب نفسه أساس كلِّ شيء

وأنّــه كالثَّــورِ الذي يحملُ الكرة الأرضيّة، ويتوهّم أنها ســتنهار إذا ما انسحب من أسفلها فتقوم القيامة.

الإيثار ولو حتى على عتبةِ الجنة

كم أن المشهد الآتي مؤثِّرٌ وجديرٌ بالانتباه إليه بشأن بيان إلى أيِّ مدى قد يصل الإيثار؛ فقد رُوِيَ أن سـيِّدَ الأنام ﷺ أُطلِعَ على الْتِقاءِ الأثريـاء والعلمـاء عند باب الجنّة فأخبرَنا بمـا دار بينهما؛ حيث قال العلمـاء للأثريـاء: "تفضلوا، الأولويّة لكم، هـذا حقُّكم أنتم، ادخلوا أنتـم أوّلًا، لأنكـم لو لم تنفقوا ثرواتكم في سـبيل الله، ولم تؤسِّســوا مراكـز العلم، ولـم تُجهِّزوا الإمكانيات التعليميّة لما كنا نحن علماء، ولما وجدنا الطريق والاتجاه السـليم، فقد تسـبَّبْتم أنتم في سيرنا في طريـق العلـم وانفتاح أُفُقِنا، إننا مدينون لكـم، ولذلك فالأولويّة لكم أنتـم، فلتتفضَّلوا!"، وتراجعـوا خطوة إلى الوراء احترامًا لهم، غير أن الأثرياء الأسـخياء يردُّون عليهم قائلين: "الحقيقةُ أننا نحن المدينون لكـم، لأنكـم لو لم تُبصِّرونا بِفَضْلِ عِلْمِكم الواسـع، ولم ترشـدونا أحسـنَ الإرشـاد، ولم تعلِّمونا أن نقرأَ الأوامر التكوينيّة والتشـريعيّة سـويًّا، ولم تدلُّونا إلى جمال الكسـبِ الحلال والإنفاقِ في سبيل الله تعالى لما اسـتَطَعْنا أن نُنْفِقَ ثرواتنا في سـبيل أعمالٍ خيّرةٍ كهذه، لقد أرشـدتمونا وحملتمونا من الإعطاء مرة إلى الكسـبِ آلاف المرات، ولهـذا فإنكـم روّادُنا هنا في الآخـرة كما كنتُم في الدنيـا، فلتتفضَّلوا بالدخـولِ أنتـم أوّلًا!"، وبعـد هـذا الحـوار العـذب يتقـدَّمُ العلماءُ، ويدخلونَ الجنةَ مـع الأغنياء الأسخياء إثر بعضهم البعض.

يجب ألّا نفهم هذا الحوار الذي دار بين العلماء والأثرياء الأسخياء على أنه مجرَّدُ نقلٍ لحادثةٍ ستقعُ لاحقًا، بالعكس؛ يجب هنا أيضًا الحديث عن مدى اتِّساعِ أفق الإيثار وإطاره، تخيلوا أن هناك جسرًا (أي الصراط) صعبَ المجاز وميزانًا وحساباتٍ ثقيلة خَلَّفَها هؤلاء الناسُ حتى وصلوا باب الجنّة، بينما أمامهم من أوجهِ جمال الجنّةِ ما يُذهِل العقول ويُبهر الألباب؛ مما لا عينٌ رأَتْ ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ قطّ، تخيّلوا كم ينبَهِرُ الإنسان ويُصبح وكأنه سيُغمى عليه حين يرى تلك المحاسن والجماليات، استحضَروا كيف تتجلّى روح الإيثار حتى أمام منظرٍ كهذا! وهكذا يُبَيِّنُ لنا رسولُ الله ﷺ بهذا المشهدِ الذي رَسَمَهُ لنا كم أنّ سبيلَ روحِ الإيثارِ يمتدُّ إلى هذا الحدِّ.

وقد قال فذُّ زماننا وأحدُ ورثةِ الأنبياءِ الأستاذ بديع الزمان رحمه الله: "لم أَذُقْ طوالَ عمري البالغِ نيِّفًا وثمانين سنة شيئًا من لذائذ الدنيا، قضيتُ حياتي ما بين ميادين الحرب وزنزانات الأسر وسجون الوطنِ ومحاكمِ البلاد، ولم يبقَ صنفٌ من الآلامِ والمصاعِبِ لم أتجرَّعْهُ... لقد ضحَّيتُ بكل شيء في سبيل تحقيقِ سلامةِ إيمانِ المجتمع... وإن رأيت إيمان أمتنا في خير وسلام فإنني أرضى أن أُحرق في لهيبِ النيران؛ إذ بينما يحترقُ جسدي يرفلُ قلبي في سعادةٍ وسرورٍ"[٢٩]، ومن يسمع كلماته هذه يُخيَّلُ إليه أنَّ هذا النَّفَسَ وهذا الصوت آتٍ من قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان؛ ومنبعثٌ من عصرِ صدرِ الإسلامِ، وأظنُّ أن مجتمعَنا في حاجةٍ ماسّةٍ إلى روحٍ من الإيثار الواسعِ الشموليّ أكثر من حاجته إلى الماءِ والهواءِ.

(٢٩) بديع الزمان سعيد النورسي: **السيرة الذاتية**، ص ٤٩٢.

إن عودة سيدنا رسول الله ﷺ إلى وطن المحنة هذا بعد أن رأى في رحلة المعراج ما لم يُرَ، وبلوغه ما لم يُبلَغْ، واجتيازَه ما لم يُجتَزْ في غايةِ الأهمّيّة من حيث فهم المرتبة الأعلى في أفق الإيثار؛ فقد التقى النبي الأكرم ﷺ في رحلته هذه بكلٍّ من سيدنا المسيح، وسيدنا موسى، وسيدنا إبراهيم، وسيدنا آدم عليهم السلام، ولقي من هؤلاء الأنبياء الكرام التشريفَ والتكريمَ والتبجيلَ، ثم دخل الجنّة فرأى جمالها وحسنها الأخّاذ[٣٠]، بعد ذلك شاهد جمال الحقِّ تعالى، ومن يدري كيف تشعرُ روح الإنسان وتُحِسُّ بمشاهدة الله! وقد ورد في كتاب "بدء الأمالي":

يراه المؤمنون بغير كيف وإدراك وضرب من مثالِ

فينسون النعيم إذا رأوه فيا خسران أهل الاعتزال[٣١]

أي إن جميعَ قصورِ الجنّة ونُزُلِها، وجميعَ الحورِ اللواتي تغرقُ الدنيا في نور إحداهن إن انعكس عليها، والفواكه والأطعمة وغيرها تتوارى عن العين وتنحجبُ عند رؤيته تعالى، وهكذا فإن سيدنا رسولَ الله ﷺ الذي حظيَ بكلِّ هذا وبلغَ مرتبةً بين الوجوبِ والإمكان عادَ إلى البشريّة مجدّدًا دون أن تزيغَ عيناه وما عودَتُه تلك إلا من أجلِ أن يُبلِّغ أمَّتَهُ بما رآهُ وأحسَّهُ وشعرَ به من النِّعَمِ.

وعندما ذكرَ أحدُ الأولياءِ -ويُدعى "عبدَ القدوس"- عودةَ رسول الله ﷺ من مثل هذه الرحلة قال: "والله وبالله وتالله لو أنني كنتُ وصلْتُ إلى هذه المقامات والمراتبِ لما عدتُ إلى الدنيا مجدّدًا"، وقد علَّقَ

(٣٠) انظر: **صحيح البخاري**، بدء الخلق، ٦، الأنبياء، ٤٣، مناقب الأنصار، ٤٢؛ **صحيح مسلم**، الإيمان، ٢٥٩، ٢٦٤.

(٣١) الأوشي: **بدءُ الأمالي**، ص ٤١.

أحدُهم على كلامه هذا قائلًا: "هذا هو أكبر فرقٍ بين مقام النبوّة والولاية". أجل، إن الأنبياء وُجدوا لأجل حياة الآخرين تمامًا، أما الأولياء فقد يرغبون في الرفعة المعنويّة والمقامات العالية والوصول إلى المتعِ المعنويّة الروحيّة.

أضف إلى ذلك أن رسول الله ﷺ الذي بلغ مثل هذا الأفق وهو لا يزال حيًّا في الدنيا حين يسمع في الآخرة أيضًا صرخات من سيدخلون جهنم من أمَّته -ربما أنه- سيدنو من حافتها، ويمدُّ إليهم يده، ويطلب إخراجهم منها مثلما عاد إليهم في الدنيا كي يرشدهم ويهديهم إلى الطريق المستقيم، كل هذه مظاهر مختلفة الأبعاد لتجلّيات مختلفة من الإيثار ذي الأفق النبوي.

ترياقٌ يقضي على الاشتباكات والمنازعات

نحن اليوم بحاجة مُلحَّة إلى روح الإيثار المرتبطة بالإيمان والحياة القلبية والتقرُّب إلى الله والشفقةِ ومشاعر الإحياء. أجل، إننا في حاجةٍ إلى أولئك الفتيةِ القادرين على الاستغناء عن الدنيا بجوانبِها الشهوانية وملذّاتها وما فيها، الذين يَحيَون كي يحيا الآخرون فحسب، القادرين على قول: "اللهم إنه لا قيمة لحياتي ولا قَدْرَ لها إلا إذا كانت ستُسهِمُ في حياةِ وإحياءِ الآخرين، وإلا فإنني أشعرُ بالاشمئزازِ من هذه الحياةِ التافهةِ التي لا تُفيدُ الآخرين شيئًا، ولا تبعث فيهم الشعور بالانبعاث، وأعوذُ بكَ من مثلِ تلك الحياة، اللهم فخلِّصْنِي من هذا البلاء".

لأن الأشخاص الأنانيين الذين يتشدَّقون بأنفسهم دائمًا قائلين: "أنا، أنا" تسبَّبوا في تصارعِ الناسِ فيما بينهم، وأثاروا فيهم مشاعرَ

الحسدِ والغيرة والاستثقال والعِراك؛ فجعلوا المجتمع في حالة لا تُطاق، هذا في حين أن هناك آلافًا من الناس يستطيعون القيام بما يقوم به هذا وذاك من الأعمال، فليتهم وثقوا بالله ولو قليلًا، وقرروا المسير في طريق الرسول والصحابة طالَما يتحدَّثون عنهم، وليتهم تراجعوا خطوةً إلى الوراء حين لَزِمَ الأمر؛ فليس في هذا ما يُضيرُ، وليتَهم قالوا: "تفضَّلْ، تَوَلَّ أنت هذا العمل"، وهكذا؛ فإن كان ثَمَّةَ إكسيرٌ يساهم في رَأْبِ صدعِ المجتمع الذي تمزَّقَ وانفصلَ بعضُه عن بعضٍ فإنه لا محالةَ روحُ الإيثار التي ستترعرع في تلك القلوبِ من جديد.

وإلا فإنه لن يمكن حلها بواسطة الدبلوماسيّة ولا الحيل السياسية، ولا ألعاب التسلية، ولا بواسطة إستراتيجيّات مؤسّسات التفكير والتخطيطِ، ولو أنها حُلَّتْ لكان المجتمع الذي عاش عديدًا من الانقلابات والتحولات منذ أمسه وحتى يومه هذا قد خطا واثِقًا نحو أفقٍ متقدِّمٍ، ولكنّ الملاحَظَ أن الوحشية لا تزالُ مستمرَّةً، ولا يزال الناس يأكل بعضهم بعضًا كما يفعل أكلة لحوم البشر، بالله عليكم هل يختلف إمطار الناس بالقنابل، واستخدام الغازات السامّة، وعدم الاعتراف بحقِّ الآخرين في الحياة، والتحرك وفقًا لظاهرة الخوف من الإسلام، وارتكاب أنواع من المظالم خوفًا من الجماعة... هل يختلفُ كلُّ هذا عن أكلِ لحومِ البشر في شيءٍ!؟ إن هذا كلّه ليس شيئًا آخر سوى وحشيةٍ من نوع مختلف، أما السبيل إلى القضاءِ على كلِّ هذا فهو التوجُّهُ إلى روحِ الإنسانيّة من جديد، والسعي إلى الوفاء بضروريات "أحسن تقويم".

العلم المبعد عن الله

سؤال: ما الدروس المستفادة من الحديث النبوي الشريف: "مَنِ ازْدَادَ عِلْمًا وَلَمْ يَزْدَدْ فِي الدُّنْيَا زُهْدًا لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ ﷻ إِلَّا بُعْدًا"[٣٢].

الجواب: إنّ الطرق التي توصِّل الإنسانَ إلى الله تعالى كثيرةٌ بعدد أنفاس الخلائق؛ فلكلّ إنسانٍ ملكاتٌ وقابلياتٌ مختلفةٌ عن الآخر، وعليه فإن بعضَ ذوي الطبائعِ الحسّاسة يرون أنَّ العِشْقَ هو أهمُّ السُّبُلِ الموصِلَةِ إلى الحق تعالى؛ ولذلك فإن بعض الضاربين في الأرض طلبًا للعشق قد تناولوا هذا الطريق وتحدثوا عنه، ومنهم "فضولي البغدادي" إذ أنَّ وتألَّمَ يطلبُهُ قائلًا:

اللهمَّ أذِقني بلاء العشق دومًا

ولا تُبعدني عنه لا لحظةً ولا يومًا

بينما الشيخ "محمد لطفي أفندي" أحد رجال القلب والمعنى يقول:

هَبْ قلبكَ لمعشوقٍ فيُسرّك ويُبهِجك

وتمسَّك بذَيلِ مَنْ مُرادَكَ يُبلِّغُك

---

(٣٢) الديلمي: **الفردوس بمأثور الخطاب**، ٦٠٢/٣.

وثمة بطل آخر من أبطال العشــق هو "الشيخ غالب"، تراهُ يُصوِّرُ العالَم الداخليَّ للعاشق قائِلًا:

إنّ الجنة لَتهمُّ قلبَ الزاهدِ

ولا يهمُّ قلب العارف المكلومِ إلا معشوقُه

وإنّ بعضَ ســالكي ســبيل الحقِّ والحقيقة حاولــوا الوصول إلى الله تعالــى عبــر طريــق الزهد، واعتقــدوا أنَّ هذا الطريق أهمُّ وأســلَمُ بالنظــر إلى غيره من الطرق الأخرى، والزهد -في أحد معانيه- يعني تركَ الدنيا وما فيها، والاستفادةَ منها بقدرِ الحاجة فحسب، فالإنسان لا ريــب مُطَالــبٌ بتلبيــة حاجاته البدنيّــة من أكلٍ وشــربٍ ونومٍ حتى يواصــل حياتــه، بيدَ أنَّ الإنســانَ الراغبَ في أن يحيــا حياته في دائرةِ الزهــدِ لا يطمع بالاســتغراق في الاســتفادة من هــذا النوع من النعم الدنيويــة، ولا إلــى التشــبُّعِ منها؛ خوفًا مــن أن تُوقِعَهُ هــذه الملَذَّاتُ في الغفلة، ومن ثَمَّ يسترشد في حياته دائمًا بعبارة: "ما هذه الملَذَّات إلا نماذج، وقد أُذِنَ لنا منها بالتذوُّقِ فحسبُ، لا بالشراهةِ والغَبِّ".

أما أرباب الكمال وبعض الأرواح الحسّاسة الساعية إلى التعرُّف على الله تعالى عبرَ طريقِ التدبُّرِ والتذكُّرِ والتفكُّرِ فإنها تُحَلِّلُ الأشــياء والحــوادث بعمــقٍ دائمًا، وتطالِــعُ كتابَ الكــون وتُقيِّمُ المناســبات بينــه وبيــن القرآن الكريم معجزِ البيان، وتســعى لمشــاهدة كلِّ واحدٍ من هذين الكتابين تحت عدسة الآخَر ومرصده.

التائهون في أودية التقليد

خلافًــا لــكلِّ هــؤلاء فــإنّ ثــمّــةَ أناسًــا أَسَــرَهــم التقليــد وكَبَّلهم؛ بحيــث عجزوا عن التخلُّصِ من العيش الصوريِّ والشــكليِّ، وأمثالُ

هـؤلاء الناس يصعبُ عليهـم إلى حدٍّ بعيدٍ أن يتقدَّموا ويسـيروا إلى الأمام؛ فموقفُهم من حيث تقليدهم ما رأوه عند آبائهم يُشْـبِهُ موقفَ الكافريـن الذيـن: ﴿قَالُوا حَسْـبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْـهِ آبَاءَنَا﴾ (سـورة الْمَائِدَة: ١٠٤/٥)، والإنسانُ الذي يعيش هذه الحالة يجب عليه أن يسأل نفسه: "لو تربَّيتُ في حظيرة إحدى الكنائس هل كنتُ أستطيـعُ أن أظفرَ عبر العقل والمنطق والمحاكمة العقلية ولو حتى بإسلامي التقليديّ الذي أنا عليه الآن؟!"، والحقُّ أنَّ أهل السنة والجماعة قالوا بقبول الإيمان حتى ولو كان تقليديًّا معتمدين في ذلك على سـعةِ رحمةِ الله تعالى؛ أي إنـه سـينجو أولئـك الأشـخاصُ الذين إنّما يشـهدون أنَّـه "لا إله إلا الله وأنَّ محمـدًا رسـول الله" ويذهبون إلى المسـاجد، ويصومون تقليدًا لآبائهم واقتداءً بهم ليسَ إلّا.

كثرة من يزعم أنه المهدي المنتظر

الحقيقـة أن هـذه الأمور المذكورة بالنسـبة للتقليد ترسُـمُ جيلَنا وتُصَـوِّرُهُ، لأنَّـه ليـس بيننـا علـى الإطلاق مـن توصَّلَ إلـى الحقائق التـي نؤمـن بها اليـومَ مُعمِلًا عقلَـهُ ومُعْيِيًا إيّاه في سـبيل ذلك، ومما يؤسف أنه ليس منّا من ترك راحته وفراشه ليلًا وتجول في الممرات كالمجنـون وسـعى كمـا كان يسـعى "زيد بـن عمـرو"[٣٣] -عمُّ عمر

(٣٣) وزيد بن عمرٍو هذا مات قبل بعثة النبي لكنّه كان من الموحِّدين العرب، وكان يقول: "اللهم إني لو أعلم أَحَبّ الوجوه إليك عبدتُك به، ولكني لا أعلم"، ثم يسجد على راحلته، وروى البخاري عن ابن عمر أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ، وَيَتْبَعُهُ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ اليَهُودِ فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ، فَقَالَ: إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ، فَأَخْبِرْنِي، فَقَالَ: لَا تَكُونُ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ الله، قَالَ زَيْدٌ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ غَضَبِ الله، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ الله شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُهُ! فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِه؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ زَيْدٌ: وَمَا الحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا، وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا الله، فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَى فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَقَالَ: لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ الله، قَالَ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ لَعْنَةِ الله، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ الله، وَلَا مِنْ غَضَبه شَيْئًا أَبَدًا،

ووالد سـعيد بن زيد رضي الله عنهم- الذي سـافرَ من الجزيرة العربيّة إلى الشام بحثًـا عـن الديـن الصحيح، وحرصًا منـه على الوصولِ إليـه(٣٤)، إننا لم نسـعَ سـعيًا حثيثًا كي نجـده، وإنما اكتفينا بالتقليدِ فحسـب، ولا سـيما إنْ همَّ البعضُ يصفِّقُ لإسـلامنا ويمتدِحُه، وظنَنَّا أنفسـنا شـيئًا فقد انخدَعْنا أيّما انخداع، حتى إن بعضَ البائسـين أسـلموا أنفسَـهم للشُّـهْرَةِ والصيتِ أمام هذا التقدير والتصفيق، ونتيجةً لذلك ظهر في كلِّ مـكانٍ عـددٌ من الأشـخاص ادّعى كلٌّ منهم أنـه المهدي، فنحنُ نرى في عصرِنا دعاة المهديّة قد كَثُرُوا، لدرجة أننا إنْ قلنا "ثمة حالةٌ من التضخُّمِ في ادِّعاء المهديِّ المنتظرِ" لم نبالـغ. أجل، فبينما بعض المؤمنين يحاسـب نفسـه إن كان في عِدادِ المؤمنين أو لا؛ هناك من يرى نفسَـه بطلًا سَـيُخَلِّصُ العالمَ في حملةٍ واحدةٍ، ويطرح القياصرة والأكاسـرة أرضًا، أمـا الحقيقةُ والواقـعُ فتُظهـران أنَّ كلَّ واحدٍ من هـؤلاء عبـدٌ من عبيدِ التقليد الذين لم يعرفوا الله ولا رسـوله ﷺ حقَّ المعرفة، ولم يُدرِكوا شيئًا من حقيقة الخلفاء الراشدين ولا الصحابة الكـرام، وتقـدُّمُ هؤلاء مِنَ الصعوبةِ بمكان؛ لأنهم لم يعرفوا أين هم، وكيف أنهم يتعثَّرون حتى على الطرق المستوية الممهَّدة.

والحـالُ أنَّه يجـب على القلب المؤمن أن يتفكَّـرَ ويتدبَّرَ ويتذكَّرَ دائمًا بينما يُبحر إلى بحار معرفة الذات الإلهية ومحبَّتِها، وأن يواصلَ

وَأَنَّى أَسْتَطِيعُ! فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِه؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ: وَمَا الحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا الله، فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ، فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ" (**صحيح البخاري**، المناقب، ٨٣). وروي أنه كان يدعو الله إن لم يُقَدَّرْ له أن يُدرِكَ النبيّ المنتظَرَ فليُدرِكه ابنُه سعيد، وفعلًا أدركه ابنُه سعيدٌ وفازَ بذلك فكان من العشرة المبشرين بالجنّة.

(٣٤) **صحيح البخاري**، المناقب، ٨٣.

طريقَـهُ دون تلكُّـؤٍ أو تباطُـؤٍ أو اكتفـاء، وعليه أن يقـول أمام كؤوس المعرفة المقدَّمة إليه كما قالَ ذلكَ العاشقُ الولهانُ:

انظر إلى حال هذا العبد الفقيرِ

لقد أَسَرَته ذؤابةُ شَعرِك الضَّفِيرِ

وكلَّما غمستُ أصبعي في عسلِ عِشْقِك

استَزدْتُ منه فزادني عطشًا فأدْرِكْنِي بماءِ وصْلِك

وعليه أن يسـتزيدَ شـربًا، تمامًا كالظمآن الذي يسـعى لريِّ نفسـه بشربه من ماءِ البحر؛ فكلّما شربَ أكثر كلّما ازدادَ عطشًا أكثر، ويلزمه وهـو يبحرُ إلى المعرفةِ ليتعمَّـقَ فيها من جانبٍ؛ ألا تغادرَ عقلَه -من جانـب آخـر- ملاحظاتٌ مهمّـة مثل: لو أنني اسـتطعتُ أن أسـمعَ وأُحسَّ ما يجب أن يُسمـع ويُحَسّ بالفعلِ وأدركت حقيقةَ ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (سورة الرَّعْدِ: ٢٨/١٣)، ويا ليتني وعيتُ تلك البشارة الواردةَ في هذه الآية: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْـنُ مَـآبٍ**﴾ (سـورة الرَّعْـدِ: ٢٩/١٣)، لـو أنني اسـتطعتُ ذلك؛ لكنـتُ أتَّصِلُ بالحقِّ تعالى اتصالًا أقوى، وأترنَّم بنغماتِ العشـق والاشتياقِ دائمًا، وأخفـضُ للمؤمنين جنـاحَ الذلِّ والتواضـع، وأنظـرُ إلى المخلوقات كلِّهـا برأفةٍ وشـفقةٍ واسـعة كالفضـاء، وعدمُ حدوثِ هـذا يعني أنني ما زلتُ أخلدُ إلى الأرض وَضَاعَةً ودنوَّ مقام.

الجمعُ بين السعيِ الخارقِ والتواضعِ الفائقِ!

مـن علامـات العبوديّة الحقَّة الجمـعُ بين سـعيٍ خارقٍ وتواضُـعٍ فائقٍ؛ فعلى الإنسان أن يرتقيَ إلى العُلى حتى إن الملائكة حين تنظر إليـه تتحيَّرُ وتتعجَّبُ قائلةً: "يا لَلعجـب! كيفَ لِمخلوقٍ من صَلْصَالٍ

من حمإٍ مسنون أن يُشَارِكَنا نفسَ الأفقِ أو يُحَلِّق أمامنا؟!"، وينبغي له عندئذٍ أن لا يرى نفسَه إلا صفرًا، ويقولَ بكلِّ راحةٍ ودون تردُّدٍ حين يطلبون منه الحديث عن نفسه: "لا شيءَ قطّ".

ليس ثَمّة إنسانٌ أعظمَ من مفخرة الإنسانية ﷺ من حيث إدراك الكمال بحقّ، وبرغمِ هذا فقد تضرَّعَ ﷺ إلى الله تعالى داعيًا إيّاه: "**اللهُمَّ اجْعَلْنِي فِي عَيْنَيَّ صَغِيرًا وَفِي أَعْيُنِ النَّاسِ كَبِيرًا**"(٣٥)، وقد دعا أحدُ أولياء الله بهذا الدعاء وعدَّلَ فيه تعديلًا يُوافِقُ حاله فقال: "اللهُمَّ اجْعَلْنِي فِي عَيْنَيَّ صَغِيرًا وَفِي دِينِي كَبِيرًا!".

ينبغي للإنسان أن يرى نفسه وضيعًا صغيرًا مثل جناحِ بعوضة، بيد أنه يجبُ عليه من ناحيةِ العمقِ الدينيّ أن يقول: "إلهي! بلِّغْني كمالًا في الدين وارزقني فقهًا فيه، حتى إن وارداتي الخاصّة بِدِيني تكفي لدخول الإنسانيّة كلّها في الجنة!"، ومن هذا المعنى مقولةُ سيدِنا رسول الله ﷺ في حقِّ سيدنا ماعزِ بن مالكٍ رضي الله عنه بعدَ إقرارِه بذنْبه، إذ قالَ: "**لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ**"(٣٦)، وذلك لأنه ارتكبَ ذنبًا خفيًّا في مكانٍ لم يعرفْه ولم يرهُ فيه أحدٌ من البشر، فندمَ على ذلك، وهرعَ إلى رسول الله ﷺ وأخبرَهُ أنهُ يريد أن يَتطهّر من ذنبه؛ فردّه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، وبالرغم من هذا كان يرجع في كلِّ مرة إليه مجدَّدًا كي يُطهِّرَ نفسَه مما فعل، وبعدَ أن أُقيمَ عليه الحدُّ قال رسولُ الله ﷺ قولته المذكورة آنفًا بيانًا منه لحقيقةٍ مهمّةٍ، ومنعًا لإساءة الظنّ به(٣٧).

(٣٥) البزار: **المسند**، ١٠/٣١٥؛ الديلمي: **الفردوس بمأثور الخطاب**، ١/٤٧٣.
(٣٦) **صحيح مسلم**، الحدود، ٥.
(٣٧) انظر: **صحيح مسلم**، الحدود، ٥.

أجل، ينبغي للإنسان أن يتعمَّقَ دائمًا في الإيمانِ والمعرفةِ والمحبَّةِ والذوقِ الروحانيّ والثباتِ على العشق والشوق، غير أنه إلى جانب هذا يلزمه أن يرى نفسه "لا شيء"، فهو إن كان قد توصَّلَ إلى عمقٍ قلبيٍّ بالفعل سيرى نفسَهُ أحقرَ الوَرَى، وبمفهوم مخالِفٍ فإن الإنسان إن رأى نفسَه أعلى من الآخرين فهو في الحقيقة أحقرُهم وأدناهم منزلةً، ولن تتغيَّر النتيجة مؤمنًا كان هذا الشخصُ أو منافقًا أو كافرًا.

العِلم هو أن تعرف نفسك

إن الإنسان الذي يظنُّ نفسَهُ على درجةٍ عاليةٍ رفيعةٍ، ويدَّعي أنه حالةٌ خاصّة عن باقي البشرِ وأنّه إنّما أُرسِلَ مزوَّدًا بإمكانياتٍ وصفاتٍ خاصَّة من عند الله للقيام بوظيفةٍ مهمّة، وللأخذ بِيَدِ الإنسانيّة من أجل إيصالها إلى أوجِ الكمالات؛ ليس له في الحقيقة قيمةٌ تُذكرُ؛ مثلُه في ذلك مثل جناحِ بعوضةٍ، لأن علامةَ العَظَمَةِ هي التواضعُ والفناء، وعلامة الضَّعَةِ والدناءةِ هي التكبُّرُ والغرورُ.

والمعرفة الحقيقيّة هي أن يستطيع الإنسان تَتْوِيجَ ما لديه من علمٍ بالتَّنَبُّهِ التَّامّ لمثلِ هذه الملاحظات، وهذا شأنُ من ارتشفوا الكمالَ، وبلغوا النضجَ، واستطاعوا جعلَ علمِهم النظريّ واقعًا وعملًا ملموسًا، وبالرغم من أنَّ الشيخ محمد لطفي أفندي كان يجلس على وسادَته ستّ ساعات يوميًّا يشتغل بالعلم والذِّكر فقد كان وجهه يصفرُّ ويشحب حين يتذكّر الذات الإلهية فيقول:

ليس لي عِلْمٌ ولا عمل نافع...
ولا قدرةٌ على الطاعة والبر، ولا دافع
غريقٌ في العصيان... كثيرُ الآثام والشرور...
فماذا تكون -يا تُرى- حالي يوم الحشر والنشور؟!

ويقول يونس أَمره:

العِلم هو أن تعرف

أن تعرِف نفسَك

فإن أنت لا تعرفها

فالعفاء على ما قرأت

أمـا الذين يُعَلِّقون المسـألةَ على تقدير هـذا وامتداحِ ذاك؛ فليس بإمكانهـم أن يتجاوزوا الموضعَ الذي يقفـون فيه ولو خطوةً واحدة إلـى الأمام، فمثلُ هؤلاء لن ينفعَهم مدحُ الآخرين لهم ولا إطراؤُهم أو تقديسـهم، وإن قيّمنـا الأمـر في ضـوء الحديث النبوي الشـريف الوارد في السؤال؛ فإنه إن لم يرفض المؤمن الدنيا وما فيها ويُعرِض عنها زاهدًا فيها برغم وفرة علمه، وظلَّ يهتمّ بالدنيا وشأنها ويركض وراءهـا لاهثًـا، ومـا إن وصلَ مرتبة حتـى طَمِـعَ فـي المرتبة الأعلى منها، وراح يتقطَّـعُ متحرِّقًا جزِعًا حتى لا يضيـع ما في يديه من متاع الدنيـا؛ فـإنّ هـذا كلَّه لا يعني سـوى البُعدِ عن الله تعالـى، أجارنا الله وإياكم.

أهل العلم ورجال الحركة والعمل

سؤال: ما هي الرسائل التي تبعث بها إلى المؤمنين في عصرنا هذه الآيةُ الكريمةُ ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (سورة التَّوْبةِ: ١٢٢/٩)؟

الجواب: أوّلُ شيءٍ بيَّنه الله تعالى بعبارة **﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾** الواردة في هذه الآية الكريمة هو أنَّ خروجَ المؤمنين للحرب وهروعَهم إلى جبهة القتال واشتراكَهم على بكرةِ أبيهم في المعركة في آنٍ واحدٍ أمرٌ غير صحيحٍ، ثم ذكر بقوله تعالى **﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾** ضرورةَ تَخَلُّف مجموعة منهم كي تتفقَّهَ في الدين وتصلَ إلى روحه ومغزاه، ثم ختم الآية الكريمة بقوله سبحانه: **﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾**، فبَيَّنَ حتميةَ أن يُحذِّرَ أهلُ العلم هؤلاء أقوامَهم العائدين من مختلفِ جبهات الحرب من سوء عاقبة الطريق المعوجّ، وأنْ يُربُّوهم دينيًّا ويُعَلِّموهم ما ينبغي لهم معرفته؛ وذلك لأن المجاهدين الراكضين من جبهة إلى أخرى الذينَ يقِفون للأعداءِ بالمرصاد ربما يعجزون عن سدِّ حاجتهم في ذلك الموضوع بشكل تام، ويفتقرون إلى العلم بأمورِ دينهم لانشغالهم بأداء وظيفة مهمة للغاية كهذه.

المستوى العلمي والنجاح

كان المؤمنون يتعرَّضون في بداية انتشارِ الإسلام لهجماتٍ واعتداءاتٍ من قِبل أعداء الدين؛ وذلك لأنهم كانوا يُبَلِّغون الحقَّ والحقيقة، ويمثِّلون العدلَ ويُعَبِّرون عنه؛ فلم يكن بوسعهم وهم في مثل هذا الوضع أن يدعوا الأعداء: "أن هلمّوا إلى المسجد، فنجلس ونتحدث!"، ولو افترضنا أنهم دعوهم إليه لكان من المحتمل أن يأتيهم هؤلاء الأعداء الحاقدون المخربون فيدمروا المسجد على رؤوسهم، وحتى لا يعطي المؤمنون فرصة لحدوث مثل هذا الدمار، أي كي يحموا أعراضهم وشرفهم وشعائرهم الدينية ووطنهم ورايتهم ويصونوها فقد واجهوا العدو الذي بدأهم بالعدوان وذادوا عن أنفسهم.

وثمة مشكلات مشابهة وقعت في عصر الخلفاء الراشدين أيضًا بعد رسول الله ﷺ، اضطَرَّت المسلمين إلى مواجهة العدو ومقاومته على جبهاتٍ عِدَّة؛ فمثلًا دارَ كفاحٌ ونضالٌ في ثماني جبهات من أجل القضاء على أحداث الردة التي وقعت في عهد سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، وإلى جانب ذلك كانت الإمبراطوريّتان الفارسيّة والرومانيّة -اللتان كانتا تمثِّلان القوى العظمى في ذلك الوقت- تتحيَّنان الفرصة للإغارة على المسلمين؛ وتعترِضان طريقَ المسلمين بالعراقيلِ كلما أُتيحَ لهم ذلك، وتختلِقان المشاكل لهم هنا وهناك؛ ممّا اضطرَّ المسلمين إلى خوض معارك دفاعية في أماكن مختلفة من العالم.

ولو أن الجميع شارك في الحرب في مثل هذا الوضع لحدثَتْ فجوةٌ خطيرة في مجال التعليم، ولذا فقد أمر الحقُّ تعالى في الآية الكريمة الواردة أعلاه بأنْ تبقى مجموعة تنشغل بالعلم ولا تنفر

إلى الحرب؛ فتملأ هذا الفراغ لدى العائدين من الحروب، وأشار تعالى بهذه الطريقة إلى ضرورة أن يحافظ المسلمون على مستواهم العلمي دومًا، وأن يَصِلُوا إلى الأفق اللازم بلوغه وفقًا لظروف العصر الذي يعيشون فيه؛ فالحقيقة أنَّ التصدِّي لاعتداءات تُشَنُّ من مختلف الجبهات والنجاحَ في ردّها يستحيل أن يتحقَّقَ ما لم يتسنَّ إدراك مثل هذا الأفق والمستوى.

سفراء الثقافة والمعرفة

إننا في ظلِّ ظروفِ عصرنا الذي تبوَّأَتْ فيه الصدارةَ قوَّةُ العلمِ والبيانِ لا نستطيع الحفاظَ على هويتنا ووجودنا إلا بقوَّةِ العلم والقلم والبيان؛ إذ الغلبة على المدنيِّين في يومنا هذا إنما هي بالإقناع لا بالإكراه، ولذلك فإنه يجبُ على الأرواح التي نذرت نفسها لخدمة البشرية والتي تمثل سفراء الثقافة والمعرفة أن تحمل قيمها الخاصة إلى مختلِفِ المناطق الجغرافية في العالم بواسطة العلم والعرفان والمحبة والتسامح والسلام، لا بواسطة السيف والدبابة والمدفع والبندقية والسلاح والقوة الغاشمة؛ لأن منهج المحبة والسلام يفتح السبيل إلى القلوب، أما منهج القوة الغاشمة فيتسبب في إثارة وتحريك مشاعر الحقد والبغض، ولأجل هذا فإنه يجب ألا يُلجأ إلى استخدام القوة المادية من أجل حل المشكلات ما لم تكن ثمة ضرورة لذلك؛ إذ إن اللجوء إلى استخدام القوة المادية مقتصرٌ على الدفاع عن النفس أو دفعِ خطر محقَّقِ الوقوع فحسب.

وعليه فإن أهمَّ ما يجبُ القيامُ به اليوم لِصالحِ ديننا والإنسانية إنما هو أن ننفتح على ربوع العالم، وننقل إليها قيمنا الثقافية

والمعرفية، ونأخذ منها ما يتوافق مع قيمنا ومبادئنا الأساسية. أجل، إن ذوي الأرواح المنذورة في سبيل الحقِّ بمثابةِ سفراء فخريِّين يُمثِّلون قِيَمَنا الثقافيّة عبر تواصلهم مع الناس في مختلف الأماكن التي يذهبون إليها، فيأخذون ما يُستحسَنُ أخذُهُ من الجماليات هناك؛ ويُقَدِّمُونها إلى أهليهم وبني جِلْدَتِهم لِيَسْتَفِيدوا منها، غير أنهم ربما لا يستطيعون أثناء قيامهم بهذا الواجب المهمِّ أن يتغذَّوا علميًّا ومعنويًّا بالقدر اللازم؛ نظرًا لظروفِ انشغالهم بما يُركِّزُ على الحركة والعمل بشكل أكبر، وإذا كان الأمر كذلك فلا بدَّ من تنشئة أفرادٍ يَعُونَ ويفهمون جيدًا مصادرنا الأساسية ويفقهون قِيَمَنا المنبثقة من جذورنا المعنويّة، وبذلك يُسهمون في توفير الغذاء العلمي والروحي اللازم لمن لا ينفكون عن السعي والبذل في ساحة الحركة والعمل، وينبغي لمن يتحملون المسؤولية بغية التعمُّقِ في العلمِ والفقهِ أن يفيضوا دائمًا كَمَنْهَلٍ عذبٍ مورودٍ؛ فيُغذُّوا بذلك الأرواح الفدائيّة الكادحة في تلك الساحة؛ فتنهل هي الأخرى من ذلك المصدر بقدر ما يتسنَّى لها، وتُكمِل تَزوُّدَها وتجهُّزها بالعلم، وعليها أن تتمكَّن بهذه الطريقة من تجديد نفسِها باستمرار.

فقهاءُ مطّلعون على العلوم المادية والمعنوية

يشير الله تعالى بقوله ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ إلى ضرورة أنْ يبدأَ هؤلاء الذين سيتخلفون عن الحرب في سبيل الله بتَعَلُّمِ المسائلِ والأمورِ المتعلِّقة بالإيمان والإسلام وبالإحسان الذي يعني غرسَ الإيمان والإسلام في الطبيعة الإنسانية، ومع هذا كله فإن تطبيقَ هذه القيم بطريقة سليمة، وقبولَ أيِّ مجتمع لها دون عناءٍ، واهتمامَ

النـاس من مختلف الأوسـاط الثقافيـة في العالم بهـا، وميلَهم إليها، وتقديرَهـم إياها مرتبطٌ باسـتقراء الأوامر التكوينية إلى جانب العلوم الشرعية استقراءً صحيحًا؛ ولذا فإنه من الأهمية البالغة بمكان أن يتم إلـى جانـب تحصيل العلوم الدينيـة تعلُّمُ العلوم الطبيعيـة التي تعتبر منبـع العلـوم الحضارية ومختبرها؛ بـل ومحورَ البحـثِ في الوقت نفسـه تعلُّمًا جيِّدًا، وإجـراءُ الأبحاث حول ذلك، ومشـاهدةُ الوجود المعروض في معرض الطبيعة.

ينبغـي ألا تهمَـلَ العلومُ الطبيعيةُ بينما تُـدْرَسُ العلوم الدينية، إن همَّـة الطالب لا يمكن أن تقوى وتتعضَّـد إلّا باجتماعهما؛ ذلك لأنَّ اسـتبعادَ أحَدهمـا بمثابةِ قـصِّ أجنحةِ الآخر وتقطيـعِ ذراعيه. أجل، يجـب ألا يُضحَّـى بالعلـوم الدينية التـي هي نور القلـب، وألّا تُهمَلَ العلوم الطبيعية التي هي ضياء العقل والمنطق والمحاكمة العقلية.

عـلاوة علـى ذلك تؤكد تلـك الآيةُ الكريمـة أهمِّيَّةَ عشـقِ العلم والبحث للمؤمنين، ومن ثم فعلى الإنسـان أن يبذلَ جهدًا حقيقيًّا في سـبيل تحصيل العلوم الدينيّة والعلوم الطبيعية على حدٍّ سـواء، وأنْ يظـل طالبًـا وفيًّا لذلك حتـى آخر لحظة في حياتـه، لأن الطالب هو من يسـعى في إثر الشـيء ويطلبه، وإذا ما اسـتفاد الإنسـان من نتائج أبحاثه، واسـتغل العلم الذي يطلبه -دينيًّا كان أو طبيعيًّا- في سـبيل معرفـة الله وإقامة توازنٍ كامـلٍ فإنه يحظى بِوارداتِ طلبِ العلم؛ وما هي هذه الواردات؟! إن رسول الله ﷺ يقول: "**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ به طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**"[٣٨].

(٣٨) صحيح مسلم، الذكر، ٣٨.

وما دام طلبُ العلم وما سيحققه العالِمُ من فوائد للمجتمع مهمٌّ إلى هذا الحد فإن المجتمع مطَالبٌ بأن يبذل ما في وسعه لاحتضان طلبة العلم والعناية بهم؛ لأنه صعب للغاية أن ينشغل من نذر نفسه للعلم بأمرٍ آخر غيره، وبناء عليه فقد قال بعض الفقهاء بجواز إعطاء الزكاة والصدقة للمتفرغ لطلب العلم حتى وإن كان ملبسُه من حرير وعتبةُ بابه من ذهب؛ لأن حياة أية أمة مرهونةٌ بتحصيلٍ علميٍّ كهذا، وإنها لتنهار وتتفرَّقُ ما لم يحدث هذا أو ما لم يتم القيام به، ولا سيما أنَّ ثمة تصدعات وشقوقًا حدثت في القرن الخامس الهجري بسبب التوقف الذي طرأ في هذا المجال، وتزامنًا مع التأخر الذي وقع في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين حدث انكسار وتحلل تامّان، ولم نستطع حتّى اليوم أن نَنْصبَ أظهرَنا وننهضَ من جديد.

الاستغناء ودفع الثمن

يجب على طلاب العلم أمام موقفهم هذا أنْ يفعلوا كلَّ ما بوسعهم في سبيل العلم والمعرفة، وألا يُضيِّعوا ولو ثانيةً واحدة من أوقاتهم، وأن يكثفوا هِمَمَهُم ويشحذوا همَّتَهم لهذا الأمر عبر تنظيمهم أوقاتَ عملهم بشكل جادٍ للغاية، وتوزيعِ العمل والتعاونِ فيما بينهم، وعليهم أن يستخدموا كلَّ طاقاتهم كي يَجْدُرُوا باهتمام الأمة وعنايتها بهم، فلا يأخذَنَّ النومُ من يومهم أكثرَ من أربع ساعات، ثمَّ ليخصصوا العشرين ساعة الباقية من اليوم للعملِ والتحصيلِ، فمن يدري! فربما لو تحرَّكوا على هذا المنوال لَمَنَّ الله تعالى عليهم في سنتين فحسب بما يستغرِقُ تحصيلُه عشرَ سنواتٍ عادة.

وبالمناسبة ثمة شعور يعتمل بداخلي لا أخفيكموه؛ ألا وهو أنني آخذُ على خاطري ممن يذهبون إلى الخارج لدراسة الدكتوراه ولا يستطيعون إنجازها في عشر سنوات؛ إذ أشعر بانكسار في قلبي تجاههم، ولا شك أنَّ الله تعالى سيسأل ويحاسب الإنسان عن إضاعة هذا القدر من الوقت بينما تحتاج بلادنا وأمتنا كثيرًا من الأشخاص المثقفين المتعلمين، إنَّ الزمن أكبر رأسمال بالنسبة للإنسان، فإن سلك إنسانٌ سبيلًا كهذا وجب عليه أن يحرصَ على الوقت ويعض عليه بالنواجذ، وأن يقدح ذهنَهُ ويشحذَه، ويستفيد من كل ما يمكنه الاستفادة منه، وينهلَ من كل المصادر التي يمكن أن ينهل ويستفيد منها، وعليه بدلًا من إطالة الفترة؛ أن ينهي رسالته للدكتوراه قبل الموعد المقدر لها إن كان قادرًا على ذلك.

وثمة شيء آخر متعلقٌ بأهل العلم أريد أن أذكره هنا، ألا وهو: أن الاستغناء مبدأٌ مهمٌّ وأساسيٌّ للغاية بالنسبة للعلم ولِعِزَّةِ أهله، وهو من الأصول والمبادئ التي يعتمد عليها منهجُ النبوة؛ إذ يذكر القرآن الكريم في كثيرٍ من آياته أن الأنبياء الكرام لا يسألون الناس أجرًا على تبليغهم رسالات ربهم، ومن ذلك مثلًا قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٢٦/١٢٧)، ومن هذه الزاوية فإنه ينبغي لأهل العلم ألا يضعوا أنفسهم في موضعٍ يضطرُّون معه إلى دفعِ ثمنٍ ومقابلٍ لأيٍّ كانَ؛ ليجتنبوا ذلك في جميعِ مراحِلِ حياتِهم؛ سواء في مرحلة التعلُّمِ أو التعليمِ أو التعمُّق.

فلـو أنَّ إنسـانًا تجرَّد من شـعور الاسـتغناء وعلَّـقَ مجموعة من الأعمـال التي يضطلـع بها على مجموعة من التشـوفات كأن يصبح مديرًا أو مديرًا عامًّا أو نائبًا برلمانيًّا أو وزيرًا أو رئيس وزراء فإن مثله لن يسـتطيـع أن يسـتفيق أو يُخلِّصَ نفسه من دفـعِ تكاليفِ وأثمانِ ما تحصَّلَ عليه -نسأل الله السلامة-، ومما يؤسَفُ له أن المقابلَ والثمنَ الذي سـيدفعُهُ سـيُكَلِّفُ الكثيرَ ليس له هو فحسـب، بل وللأمة التي ينتمـي إليهـا، ومن هنـا فإنه ينبغي لطـلَّاب العلـم أن يُنَظِّمُوا حياتهم وفقًا لمبدإ الاسـتغناء ويؤسِّسـوها عليه، وأن يسـتخدموا -إذا ما لزم الأمـر- إمكانيـات آبائهم إذا مـا توفر لهم ذلك، وعليهـم أن يتدبَّروا أمورَهـم بالحـلال الخالصِ من كـدِّ يمينِهم وعَـرَقِ جبينهم ولو كان قليلًا، وأن يعيشوا على الكفاف، حتى لا يضطروا أبدًا إلى دفـع ثمنٍ ومقابلٍ لأيِّ أحد.

اتساع الأفق الفكري

سـؤال: ماذا يعني اتّسـاع الأفق الفكري؟ وكيف يمكن الحصول على أفقٍ فكريٍّ واسِعٍ؟

الجـواب: أولًا: إننـا فـي عصرنا هـذا بأمسِّ الحاجـة إلى أرباب الأفقِ الفكري الواسـع، العاشـقين البحثَ والحقيقـةَ، القادرين على التحليـلِ والتركيـب، وإقامـةِ مـا يتناولونه من مسـائل على أرضيات وأسـسٍ علميّـة، بيد أنَّه ينبغـي لنا أن نعلمَ بدايةً بأنه ليس من اليسـير أن يُقبِـل النـاس فـي عصرنـا وينفتحوا علـى تعمُّقٍ وتوسّـعٍ في هذا الاتجـاه؛ إذ إننـا عَلِقْنَا بيـن فَكَّيْ هجمات الخارج الغاشـمة المباغتة وأوجهِ ضعفنا الداخلية في فترةٍ حقَّقَ الغربُ فيها لنفسـه ثورةً علميّةً وفكريّـةً وصناعيّة؛ ولهذا صرنا وكأننا أُصِبْنا بالشـللِ التّام اعتبارًا من القرن التاسع عشر، وانعقدَ لسانُنا لِما تعرَّضْنا له من ضَرَبات أخرسَتْنا تمامًـا، أما الحوادث التـي أعقبت ذلك فقد جـاءت ومعها ابتلاءات ومصائـب أعظـم من تلـك؛ فإذ بنـا جُعِلْنا أمّة محشـورةً في سـاحةٍ ضيّقةٍ للغاية، وقد عُزِلَتْ عن الدنيا، لا تهتمّ بآلام الشعوب الأخرى، ولا تنفتـح على أيّـة منطقة جغرافية، أَضِفْ إلى ذلك نشـأة النزعات

الشوفينيّة[٣٩] المُغالية؛ إلى أن بَدَأْنا نظنُّ التعاملَ مع الجميع بغليظِ الألفاظ والتأمُّرَ عليهم مهارةً!

الخطوة الأولى: التملُّصُ من عقدة الدُّونية

إن مشاعرَ كعقدة الخوف والذلّة والدُّونيّة قد تغلغلَتْ في جينات أجدادِنا منذُ العهدِ المذكورِ آنفًا، ولما كنّا نحن أيضًا نحمل جيناتهم فإنه يستحيلُ القولُ إننا استطَعْنا التخلُّصَ من تأثيرِ تلك الصدمة التي ما زلْنا نعيشها، وسواء علينا أأدركنا ذلك أم لم ندركه؛ فإننا نبدو وكأننا قد أُصِبنا بالشلل بتأثير هذه النوعية من الأحاسيس والأفكار، وبالتالي فإن الانعتاق من كل هذه الأفكار السلبية، والانفتاحَ إلى آفاق الفكر الواسع، والتمسُّكَ بهويتنا في الفكر، والتوجُّهَ إلى الأفق الذي أَرشد إليه اللهُ تعالى ورسولُه ﷺ، والذكرَ والتدبُّرَ والتفكُّرَ في ضوءِ التوجيهات القرآنيّة، واستحداثَ تركيبات والإتيانَ بتحليلات جديدة وحديثة دائمًا... إلخ كلّ ذلك ليس أعمالًا سهلةَ المنالِ ولا يسيرة التحقق بالنسبة لأجيال عاجزة مكبّلةٍ بعقدة الدُّونية، ومع ذلك لا يستحيل تحقيقها.

ويجب علينا أولًا أن ننفض عنَّا عقدة الدُّونية اللعينة التي أصابَتْنَا وتتضاعف يومًا بعد يومٍ، فإن أمكننا فعل هذا فقد خطونا أولى خطواتنا من أجل فتح الباب إلى آفاق الفكر الواسع والعميق.

الصفات هي الأهمُّ لا الأسماء

ثانيًا: ينبغي ألا ننسى أبدًا أنَّ الله جل جلاله أولى عنايةً خاصةً بصفات الناس، ولهذا السبب فإنه تعالى يكافئ الإنسان، حتى وإن كان غير

(٣٩) **الشوفينيّة**: إفراط في الوطنية ينتهي إلى معاداة الدول والثقافات الأخرى.

مسلم، طالما أنه يفوقكم باعتبار ما يحمله من أوصاف إسلاميّة كالاجتهاد، والعملِ الممنهج، وتحليلِ الحوادث والأشياء عشقًا للبحثِ والحقيقة، والقدرةِ على تركيب العناصر مع بعضها؛ لأن كلَّ هذه صفات مقبولةٌ ومَرضِيَّةٌ عند رب العالمين، واتصافُ إنسان غيرِ مقبولٍ بهذه الصفات المقبولة المرضيّة لا يُقلِّلُ من قيمتها، تمامًا كما أنَّ قطعة الماس لا تفقد شيئًا من قيمتها بسقوطها في الوحل.

وعليه فينبغي النظرُ إلى الصفات من هذه الزاوية، فإن كانت صفات المؤمن موجودةً في غير المؤمن فسوف يُوَفَّقُ المُتَحَلُّون بها ويثبُتُ حكمهم في الحياة الدنيا؛ وسوف يُخْضِعونكم لِوصَايَتِهم بفضل الإمكانيات والقوّة التكنولوجية التي امتلكوها بالعلم، تمامًا مثلما فعلوا بدءًا من حقبةٍ ما يُسمَّى "عصر النهضة".. ومتى عشقتم الحقيقة أنتم أيضًا، وعشقتم البحث وفقًا لها، وسخرتم أنفسكم لهذا العمل تسخيرًا يصل إلى حدِّ الجنون به، ودقَّقْتم الأشياء والحوادث تدقيقًا؛ فسوف يمُنُّ الحق تعالى عليكم حينها بمزيدٍ من النعم والألطاف الخاصّة، وهكذا تعمرون دنياكم، وتسلكون سبيل الفوز بدار السعادة الأبدية.

معايير الكتاب والسنة

عند تناوُلِنا لأيِّ مسألةٍ يجبُ علينا أن نتناولَها من وجهةِ نظرٍ عامّة، سواء أكانت تلك المسألة لصالِحِ مخطَّطَاتنا وتصوُّراتنا المستقبليّة، أم لِفَهْمِ الإسلام في إطارِ رحابته وشموليته، أم لأجل حياتنا القلبية والروحية؛ فنُخضع الحوادث إلى تحليل شمولي، ونسعى إلى رؤية الأشياء التي يمكن أن ندركها بأفقنا من المبدإ

حتـى المنتهى، ونُنْتِج أفكارًا بديلةً أيضًـا لما تعذّرت علينا رؤيته من الأشـياء، ونختبر تلـك الأفكارَ التـي ننتجها ونقيسُـها دائمًا بمقياس الكتاب والسنة، ولا يمكن الوصول إلى التفسيرات التي أماطَ الزمانُ اللِّثامَ عنها وفقًا لمعايير الكتاب والسنة إلا بكثرة التنقُّلِ المكُّوكي بين ظروف عصرنا ومصادرنا الأساسـية؛ فالزمان والملابسـات من أكبر المفسِّرين للحوادث والأشياء.

ومن ذلك على سبيل المثال أننا عندما نُفَكِّرُ في عالم اليوم يتحتّم علينا لمستقبلٍ واعدٍ أن نسعى لاحتضانِ الإنسانيّة جمعاء دون أنْ نَأبَهَ بالاختلافات العرقيّة والدينيّة والمذهبيّة، ولِتحقيقِ التفاهم والتعارف بيـن مختلـف الأمم والجماعـات وتلاحمها، ويجـب أن نعمل على تتويجِ البشـريّة جمعاء بالقِيَمِ الإنسـانية الأساسـية في العالم البشري أجمع، وليس في العالم الإسـلامي فحسـب، فثمة حاجةٌ مُلِحَّة، بل إننا في أشـدِّ الاحتياج إلى وجهة نظر واسـعة كهذه، حيث انتشـرت الأسـلحةُ القاتلـة فـي كلِّ مكان، وإلَّا فـإنْ تجرَّأ البعـضُ على القيام بأعمال شريرة في مكان ما فقد يدفـع هذا غيرهم إلى مقابلته بالمثل، وهو ما سيُنتِجُ بالـمُحَصِّلَةِ خراب الدنيا.

وهكذا فإنه ينبغي لِرجال الفكر والرأي الذين يفطنون إلى خطورة الأمـر أن يُصرِّحـوا بِقَلَقِهـم ومخاوفِهـم المحقّة في هـذا الموضوع، وأن يسـتدعوا الإنسـانية إلى الوحـدةِ والاتحاد، والوفـاق والاتفاق، ويسْـعَوا إلـى تحقيق تلاحمِ الإنسـانية حول هذا الفكـر، ولذلك فلا بدَّ من التركيز على العناصر التي سـتَكون قادِرة على تشـيكل الكيان المطلـوبِ، وحسـابِ الموانـع والعوائق التي قد تنشـأُ، وتكوينِ فكرٍ

مشـتَرَكٍ بين مختلف القطاعات، وإفراغِ الأفكار التي تخطر بعقولهم في حوض العقل المشترك الذي كوّنوه، والسعي إلى حلِّ المشكلات بواسطة الوعيِ الجمعيّ، أما بعضُ المشاريـع والخُطَطِ التي يستحيلُ تحقيقُها حاليًّا فلا بد من أن تُتْرَك أمانَةً لِتَقْيِيمِ وتنفيذِ الأجيالِ القادمة.

الظروف الجديدة الطارئة وسلامة الطريق

إن اتخـاذ التدابيـر والإجـراءات اللازمة من أجل تحقيق سـلامة الطريق والسـبيل المسلوك يشكل بعدًا آخر من أبعاد الفكر الواسـع، فربما تكونون مزوَّدين تمامًا بالإيمان والأخلاق، وقد تُدهِشُون العالم وتحيّرونـه بمسـيرِكم النشـطِ، بـل وتكـونُ ثقتُكم بعنايـةِ الله ورعايته وكِلاءتـه كاملـةً تامّة، غيـر أن كل هذا يشـكل جانبًا واحدًا فحسـب مـن المسـألة، أما الجانـب الآخر منها فهو القـدرة على أن نضـع في الحسـبان أحاسـيس وأفـكار وحـركات الآخريـن أيضًـا، وإلا فربما تواجهـون مجموعةً من الغيلان وأنتم تسـيرون من أجل تسـليم هذه الأمانة إلى أيدٍ أمينة، فإن تجاهلتم -وأنتم تقدمون ما تملكونه من قيمٍ إلى المجتمـع- قوَّةَ وقدرة من يعملون ضدّكم، وانطباعاتهم حولكم؛ فربمـا يرغبون في هدم وتقويض تراثكـم الخدمي، ومن هذه الزاوية فإنَّـه يجب عليكم التحلِّي بأبلـغ درجات الحساسـيّة مـع أيِّ تصرُّفٍ يتعلّـق بسـلامة خطِّ السـير على طـول الطريق كـي لا تتعرّضوا لأيّة مشـكلة في أثناء طريقكم، كما يجبُ إعـادة اتّخاذِ التدابير الضرورية من أجل سلامة خطِّ السير بحسب الظروف الجديدة الطارئة.

إن قـراءة العالـم الـذي نعيـش فيـه قـراءة صحيحـةً تمثـل بعدًا آخـر مـن أبعاد الفِكْـرِ العميقِ، وقد انفتَـحَ "فدائيُّو خدمةِ الإنسـانية"

في يومِنا الحاضرِ على مائة وسبعين دولة، وهذا يعني أنهم يتعايشون مع أناس نشؤوا في مائة وسبعين مناخًا وبيئة ثقافية مختلفة... وقد يتقبَّلكم المخاطبون ويستسيغون منطقكم ضمن أُطُرٍ محدَّدة؛ غير أنه قد تحدث بعد فترةٍ مصادماتٌ تنشأ عن الاختلاف الفكري والثقافي؛ ومن ذلك على سبيل المثال أنَّ أهل البلاد التي تذهبون إليها ربما يتوهمون أنكم تسعون لصهرهم فيكم قوميًّا وثقافيًّا، وعليه فينبغي أوّلًا تقييمُ كلِّ هذه المواضيع تقييمًا صحيحًا، واتخاذُ القرارات الصحيحة المتعلّقة بما سيتمّ من خطوات في هذه الشؤون، واتّقاء التصرفات والسلوكيات التي قد تثير القلق والريبة لدى الآخرين.

الفكرُ يترعرعُ في حضنِ الحركةِ والعمل

إن قراءةَ ما بِحَوزَتِنا من آثار كُتبت من أجل إقامة صرح روحنا قراءةً جيِّدةً، وحسنَ فهمِ الأهداف التي حدَّدَتْها من أجل حياتِنا المستقبليّة والأبديّة، إلى جانبِ فهمِ الرسائلِ المبثوثة فيها والمعاني التي عبرت عنها من أجل حياتنا، وتحليلِ طبيعة الدنيا التي رسَمَتْها من أجلنا تحليلًا جيِّدًا لأمرٌ مهمٌّ جدًّا، لأنَّ الاكتفاء بالموجود تقَاصرٌ في الهمّة، ومن هذه الزاوية فإنه بينما نُطالِعُ ما بأيدينا من مصادر لا بدَّ وأن نداوم على قراءتها ونحن تحدونا فكرة: "تُرى أيَّةُ معانٍ أخرى يمكننا أن نستخرجَها منها!"؛ فربطُ المسألةِ بمجرَّدِ التسلِّي بالقراءة فهمٌ ناقصٌ، والمهمُّ هو تناولُ تلك المؤلّفات بحسنِ المذاكرة، والقدرةِ على رؤيةِ ما تُظْهِرُهُ من أهدافٍ تَصُبُّ في صالحِ مستقبلنا.

ولا ننسى أنّه يجبُ أن يتزامنَ كلُّ هذا مع الحركة والعمل، ويسيرَ بمحاذاتهما، فإن تسنَّى تحويل الأفكار إلى أعمال وحركات أمكن

اتخاذ قرارات أكثر منطقية وعقلانية؛ فمن يقبعُ خاملًا دون حركةٍ ثمَّ يتخيَّـلُ عوالم برّاقة مثلما يفعل كُتَّابُ الطوبيا (المدينة الفاضلة)؛ فلن يعـودَ ذلك عليه بشـيءٍ من النفعِ والفائدة؛ ما لـم يكن لذلك وجودٌ ومقابـلٌ فـي الحياة العمليـة، وما أكثر الأفـكار البرّاقة التـي طُرِحَتْ حتى اليوم، ولكنها سـرعان ما فقدت بريقَها دون أن تتقدَّمَ خطوَتَين؛ وذلـك لأنهـا لـم تُتَرْجـم علـى أرضِ الواقـع، ولا سـيما أن القرآن الكريم تحدَّثَ عن العمل الصالح في معظم الآيات التي تحدث فيها عـن الإيمان، فأشـار بذلك إلى ضـرورة أن يتزامنَ العمـلُ والحركة مـع الفكر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/٢٥).

العقل المشترك

إن أفكارنا ورؤانا ليست نتاجَ الوحي، ولذلك فإنها دائمًا ما تكون مشـوبةً بموروثِنا المعرفـيّ القديم، أي إن مجموعـة من المعلومات الخاطئـةِ التي فـي أذهانِنا قد تدفَعُنا إلى تحليـلات وتراكيبَ خاطئة، وقـد نُخْطِـئُ في اجتهاداتِنا واسـتنباطاتنا الشـخصيّة، وبعضُ الأفكار التـي نطرحُهـا ربما لا تكـون صالحةً للجميـعِ دائمًا، ومـن هنا فإن اعتبارَ الأفكار التي نتوصل إليها والخطط والمشـاريع التي نرسـمها بشأن المستقبل محتاجةً للتصحيحِ ومطروحة للتشاور والنقاشِ؛ أمرٌ في غاية الأهمّيّة من أجل الوصول إلى رحابةِ الفكر واتساعه.

مناخ الفكر الحرّ وهجرة الأدمغة

إن تحويـلَ وجهـةِ هجـرةِ الأدمغةِ التـي تحدُثُ على المسـتوى العالميّ إلى عالمنا نحن عبر إبراز نتاجات خبراتنا العلمية يُشكِّلُ جانبًا

آخر من المسألة، والواقع أنَّ انسلالنا من التسوُّلِ على عَتَبَةِ الآخرين، وقدرتَنا الذاتيّة على الحياة، والوصولَ إلى تراكيب وتحليلات حديثة متجدِّدة بواسطة الفِكْرِ الحرّ أمرٌ لا يتحقَّقُ إلا بحصولِ العقولِ الشابّة والنشيطة على مناخٍ وإمكانيّاتٍ تستطيعُ فيها خدمةَ بلادِها.

التوفيقُ كُلّه منه سبحانه!

وبعد كل ما سبق فإنه ينبغي للإنسان مهما ارتفعَ وارتقى باعتبار أفقه الفكريّ والإمكانيّات التي حصلَ عليها، بل حتى وإن لامست هامتهُ الذرى؛ ألّا ينسى أبدًا أنّ الله هو المحسِنُ عليه بهذا كله، وعليه أن ينحني أمام الألطافِ والإحسانات الإلهيّة كالعكّاز تقديرًا وإجلالًا له ﷻ؛ لأن الرفعة تقتضي التواضعَ، كما كان من شأن مفخرة الإنسانية ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، صاحب أعظم الدرجات وأرفعِ المقامات؛ الذي جسَّدَ طيلَةَ حياته تواضعًا ولينًا لا ندَّ له ولا نظير، وكما تتمايل الأشجارُ نحو الأرض وترتكن إليها كلما تثاقلت الثمار في أغصانها؛ ينبغي للإنسان أيضًا أن يزيد من تواضعه ولين جانبه كلما زادت ألطافُ الله وإنعاماته عليه.

ومن ينظرون إلى ما وهبه الله لهم ومنَّ به عليهم على اعتباره مرتبة وترقية هم حقيقون بها؛ إنّما يتردَّون في الهاوية دون أن يشعروا على الإطلاق، وإنهم حتى وإن أنقذوا بلدًا أوشكت على الزوال؛ فسَيَحيقُ بهم تعنيف الله ولومه إيّاهم ويسقطون يومًا ما في هُوَّةٍ سحيقة جدًّا إذا نسبوا إلى أنفسهم ما أنعم الله تعالى به عليهم من تجلّيات وطلبوا التقدير والتصفيق مقابل هذا، وفي هذا قال فضيلة الأستاذ بديع الزمان: "مَن يقصّر منكم في الإخلاص فقد هوى

مـن علـى برجٍ عالٍ، ولربما يتردى في وادٍ سـحيقٍ، إذ لا موضـع في المنتصف"[٤٠]، وبتعبيرٍ مختلف؛ فإن مَن يتردّون مما يُعادِلُ قمّةَ جبلِ "إفرست" مثلًا يندفنون في قعرِ بحيرةِ لوط، وكثيرًا ما يتجاورُ الأعلى والأدنى؛ فإن أعطى الإنسان حقَّ الأعلى ظلَّ ثابتًا هناك، وإن لم يعطه حقّه تدحرج من القمة وانحطَّ إلى القاع.

---

(٤٠) بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الحادية والعشرون، ص ٢٢٤.

تعظيم الله وتقديره حق قدره

سؤال: ما الرسائل التي تحملها وتنقلها إلى الناس الآيةُ الكريمة: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (سورة الزُّمَر: ٣٩/٦٧)؟

الجواب: إن عبارة "وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْره" الواردة في صدر الآية تعني: أنهم ما عرفوا الله تعالى حقَّ معرفته مستجمعينَ صفات جلاله وجماله، وما عظَّموه حقَّ تعظيمه؛ إذ تجاهلوا قدرتَهُ المطلقة الغالبة على كل شيء، ورحمتَه وشفقتَه الأبدية، ونِعَمَهُ وألطافَهُ التي أَنْزَلَها على عباده، فلم يُعَظِّموه بما يليقُ به وبشأنه العظيم سبحانه؛ ولذلك فقد انزلَقُوا في مستنقعِ إنكارِ الجميلِ وعدم تقديرِ الجليلِ.

ومن عبارة "حَقَّ قَدْره" نفهم أنه وإن كان بين هؤلاء الناس من قدَّره وعظَّمه ﷻ بقدرٍ معين إلا أنهم لم يقدروا ذا الجلال والكمال بالشكل الذي يستحقُّه ويليقُ بذاته العليّة؛ فثمّة فرقٌ بين "مجرد التقدير" و"التقدير بحقٍّ"؛ فالله تعالى هو من خلَقَنا، وجعلنا في أحسن تقويم، ودعانا إلى الصراط المستقيم بواسطة الرسل والأنبياء وهدانا إليه، وحَفّزَ هِمَمَنا بما وعدنا به من خيرٍ جزيلٍ، ووجَّه أبصارنا إلى دار القرار، ولم يكِلْنَا إلى أنفسنا طرفةَ عين، ومعرفةُ كل هذه الأمور

واحترامُه تعالى وشكره بناءً على هذا العلم يمثل تقديرًا من العبد لربه ﷻ، وأما خلاف ذلك فهو عمى وكفر للنعمة وعدم تقدير.

وتَضربُ الذاتُ الإلهيّة مَثلًا على عظمتها وجلالها بقوله تعالى: "وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"؛ أي إن الدنيا تبدو نقطةً صغيرة وشيئًا تافهًا بالنسبة لقدرة الحقِّ تعالى أيًّا كان حجمُ هذه الدنيا وجسامتُها في نظركم، وتعبير الآية عن قدرته سبحانه على الأرض إنّما يُقدِّم لمن يعيشون فيها رسالةً مفادُها أنْ: "اخضعوا أمام قدرته القاهرة وإرادته الباهرةِ، وتحركوا في دائرة الأمر والطاعة".

وتخبرنا الآيةُ بعبارةِ "وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينه" الواردةِ قبل خِتامها أنه ﷻ سيطوي السماوات كطَيِّ السِّجلِّ للكتب؛ فيجعلها مطويّة كالورقِ الملفوف.

أما عبارة "سُبْحَانَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ" التي تُشَكِّلُ فذلكة الآية فتعني أنَّ الله مُنَزَّهٌ ومُبَرَّأٌ عما يشركُونه به هؤلاء.

بُعْدَا الخشية: المعرفي والوجداني

ثمة درجاتٌ مختلفةٌ لتقديرِ الله تعالى وإجلاله تتفاوتُ بحسب مدى التعمُّقِ أو السطحيّة في الشعور بقدرة الله وعظمته في الكون، ودرجةِ الإحساس بما يغمرنا به من نِعَمٍ وألطاف.

وقد يتبادرُ إلى الذِّهْنِ هنا هذا السؤال: "هل هذا التقدير مجرّد معرفة، أم أنه يشمل كل أعضاء الإنسان بما فيه من لطائف؟" كما أن المحبة تتشكَّلُ وتنمو في أحضانِ المعرفة؛ فإن الحب مرتبطٌ بالعِلم؛ والأمر هكذا تمامًا إِنْ تكوَّنَ في القلبِ شعورٌ بالخشية

أي شعورٌ بالخوف أساسُهُ ومحورُهُ احترامُ الله وتعظيمُه تعالى؛ فمثلُ هذا الشعور يقف وراءه العِلم بالدرجة الأولى، ومن ثم فربما يتحوَّل العلـم إلى معرفـةٍ وثقافةٍ وجدانيّة، ثم إلى طبيعة في الإنســان وعمقًا من أعماق طبيعته نتيجةً لذلك، والطاعات التي سيؤدِّيها المؤمنُ بعد هذه المرتبةِ تُصْبِحُ أحداثًا تتشكَّلُ بِفِعْلِ ما فيه من دوافـع داخليّة، أي إن قول الإنســان: "سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْده سُـبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ، اَللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا وَالْحَمْدُ لِلهِ كَثِيرًا وَسُـبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا" على سبيل المثال لن يكون لمجرد أنه أُمر ووُصِّي بقول هذا فحســب، بالعكس ســوف تنبــعُ مـن داخله هذه العبـارات التقديريّة والتعظيمية مباشـرةً حالَمَا يفيـضُ قلبُهُ جَيَاشًـا فائقًا بتدبُّرِ الأشـياء والحـوادث، ومطالعة القدرة القاهرةِ والإرادة الباهرة؛ فيسمو سُمُوًّا يفوقُ شعوره بالامتثالِ للأمرِ.

ومـن هذه الناحية يتسـنَّى القـولُ إنه يمكن للمؤمـن أن يُعَبِّرَ عن مشـاعرِ تقديره للقدرةِ القاهرةِ والإرادةِ الباهرةِ والمشـيئةِ السـبحانية نظريًّا، غير أن حقيقةَ المسـألةِ تكمُنُ في تحويله هذا التقدير إلى بُعدٍ داخليّ، وجعله جزءًا من طبيعته، وإلا فإنّه سَيُعَبِّرُ عن مشاعر التقديرِ والتعظيمِ لِمُجَرَّدِ أنه أُمِرَ بهذا فحسب، أو حينما وحيثما يُذكَّرُ بذلك، وأما القلوبُ المؤمنة التي شَكَّلَتْ مَعْسَلَةَ المعرفة في وجدانها بالتفكُّرِ والتدبُّر هي تلك التي تمتلِئُ وتفيضُ بأحاسيسِ التعظيمِ والتقديرِ في كلِّ مرحلـةٍ مـن مراحـل حياتها، بـل وفي كل فينةٍ مـن حياة بعضها، فمثـلًا حيـن يواجه حادثة ما يرى فيها تجلـي القدرة والعظمة الإلهية يقـول متأثـرًا بها: "سُـبْحَانَ اللهِ"، وحيـن يرى أنه قد غُمِـرَ بالنعم من مفـرق رأسـه إلى أخمـص قدميه يُردِف مـن فوره قائـلًا: "الْحَمْدُ للهِ حَمْـدًا كَثِيـرًا"، ويفيض حمدًا لله تعالى وثناءً عليه، وحين تتراءى أمام

ناظريـه تلك الإجراءات العظيمة الجسـيمة التي تـدلُّ على عَظَمَةِ الله تعالى وجلاله يلهجُ بذكر الله وتعظيمه قائلًا: "اَللّٰهُ أَكْبَرُ".

وكما قال "رجائِي زاده محمود أكرم":

الكون كُلُّه كتابُ الله الأعظمُ

فإذا تصفَّحْتَ أيَّ حرفٍ منه وجدتَ الله الأكرم

أي إن أيَّ حـرفٍ يعرضُ للمؤمِـنِ يُعَبِّرُ له عن الله تعالى بما يَليقُ بِعَظَمَته وجلاله، وذلك هو التقديرُ الحقيقيُّ، والمهمُّ هنا هو أن يجعلَ الإنسانُ تقديره لله تعالى مسألةً وجدانيّةً فطريّةً فيه.

تأثيرُ الخشيةِ على الفردِ ومحيطه

ثمـة حديثٌ نبويٌّ شـريفٌ من شـأنه أن يُسَـلِّطَ الضـوءَ على هذا الموضـوع، ألا وهـو قول مفخرة الإنسـانية ﷺ حيـن رأى من يعبثُ بِلِحْيَته في أثناء صلاته: "**لَوْ خَشَـعَ قَلْبُ هذا لَخَشَـعَتْ جَوَارِحُهُ**"(٤١)، فإن كان قلبُ الإنسـان عامرًا بشـعور الخشـية من الله واحترامه حقَّ الاحترام سَـرَى هذا في كلّ تصرُّفاته وسلوكيّاته حتى إنه يهيمن على كلِّ إيماءاته وإشاراته.

وهكـذا فإننـا حيـن ننظـرُ إلـى تصرُّفـات وحـركات وسـكنات الأشـخاص العظام من أصحـاب القلوب العامرة بالخشـية والتقدير فإننا نشـعرُ ونُحِسُّ بأمارات وانعكاسـاتِ خشـيَتِهم لله تعالى؛ وإذا ما خالَطْنَاهم اصطبَغْنَا بِصِبْغَتهم وحظينا بالسكينةِ والطُّمأْنينةِ؛ فقد عِشتُ تلـك المشـاعر والأحاسـيس التي تشـرح صدر الإنسـان حين كنت

(٤١) عبد الرازق: **المصنف**، ٢/٢٦٦؛ ابن أبي شيبة: **المصنّف**، ٢/٨٦؛ البيهقي: **السنن الكبرى**، ٢/٤٠٤.

أَشرُف بالوجود في حضرة الشيخ "محمد لطفي أفندي"؛ فهولاء الأشخاص العظام حين يذكرون اللهَ ﷻ والرسولَ ﷺ أو يتصرَّفون بحساسيّة في شتى المواضيع يبثُّون فيكم من الإيمان والإذعان ما تعجزُ الكتب أن تُعبِّرَ عنه، وحالُ الشيخ محمد لطفي أفندي كان خيرَ مثالٍ لهذا؛ فذات يوم حضر إليه أحدهم وقال: "سيدي الشيخ! حَجَجْتُ، فوجدت أن الكلاب التي في المدينة المنورة قد أصابها -من الإهمال أو من غيره- الجَرَبُ!!" فلما سمع الشيخُ هذا القولَ انتفضَ قائلًا: "اُسكُتْ! فالمدينةُ روحي فداها، بل وحتى فِدى كلابِها الجَرِبة!"، ولا بدَّ أنَّ ما دفعَ فضيلةَ الشيخ لقولِ تلك الكلمات هو تَرَبُّعُ حبّه العميقِ واحترامُه الجمّ لمفخرةِ الإنسانية ﷺ على عرشِ قلبه، فعبَّرَ الشيخ من فَوره عن هذه الحساسيّة، وهكذا فإن المسألةَ الحقيقيّة الجوهريّة هي إسلامُ المرء نفسَهُ لشلَّالٍ من الخشوع والخشية بحساسيّة عميقةٍ تجاهَ القِيَمِ المقدّسة، وتوجُّهَه إلى حيث يذهبُ به ذلك الشلال.

قيمةٌ مهمّة افتقدناها

مما يؤسف له أنَّ غرسَ هذه الأمور في الوجدان هو من أهمّ القِيَمِ التي افتقدناها؛ فقد افتَقَدْنَا نحن -ضحايا الإسلام الشكلي- قلوبَنَا، ونَسِينَا ديناميكيَّاتنا الداخلية، ومع أن بعضًا من القِيَمِ المنسوبة إلى الدين قد لُقّنتْ للأجيال -نسأل الله أن يرضى عمَّن فعل ذلك- إلا أنّنا اكتفينا بالمعلومات النظريّة والتقليديّة والنقلِ فحسب دون أن نتمكّنَ من تعلُّمِ القِيَمِ الخاصّة بحياة القلب والروح، ومن ثَمَّ لم يتسنَّ لنا أن نعيشها ونحياها، وكما ورد في قول الله تعالى:

﴿**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٨٨/٢٦-٨٩)، وقوله: ﴿**جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾ (سورة البَيِّنَةِ: ٨/٩٨)؛ فإن امتلاك الإنسان "قلبًا سليمًا" ينقذُهُ في الدار الآخرة إنما يتحقق باحترامه اللّٰهَ ربَّه وخشيته منه ﷻ.

وإن عدم تأثُّرِ قلوبِنا بتلك الآية التي تُزَلْزِلُ المنابرَ والمحاريبَ إنّما هو تعبيرٌ وأمارةٌ أخرى على حالنا الذي يدعو إلى الحسرةِ والندامة؛ فذات يوم تلا رسول اللّٰه ﷺ على منبره الشريف الآيةَ الواردة في هذا السؤال -الذي يشكل أساسَ موضوعِنا-؛ فتحرَّكَ المنبرُ تحته ﷺ حتى كاد يُسْقِطُهُ ﷺ من فوقه، ورسول اللّٰه ﷺ يقول هكذا بيده، ويحركها، يُقبِل بها ويُدبِر ثم قال: "**يَأْخُذُ اللّٰهُ** ﷻ **سَمَاوَاته وَأَرَضِيهِ بِيَدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللّٰهُ** -وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا- **أَنَا الْمَلِكُ**"، يقول سيدنا عبد اللّٰه بن عمر راوي الحديث: نظرتُ إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول: أساقطٌ هو برسول اللّٰه ﷺ؟![٤٢].

ولو أننا لم نفقدْ قلوبَنا وأحاسيسَنا لأَرْجَفَتْها هذه الآيةُ الجليلةُ التي هزَّتْ المنْبَرَ النبويَّ، ودفعَتْنَا إلى الخشيةِ.

فندعو اللّٰه تعالى أن يوفِّقَنا إلى النجاةِ من الشكليّة والسطحيّة، ويمكّننا من النفوذ إلى الجوهر، وينقلنا من القالب إلى المعنى، وأن يملأ قلوبنا بشعورِ الخشيةِ حتى تُسيطِرَ وتسودَ في كلِّ تصرُّفاتنا وسلوكيّاتنا مدى الحياة! اللَّهم آمين.

---

(٤٢) **صحيح مسلم**، صفات المنافقين، ٢٥؛ **مسند الإمام أحمد**، ٣٠٤/٩.

العشق والشجاعة والعقل الإستراتيجي

سـؤال: ما المقوّمات التي لا بدّ من اسـتحضارها والرجوع إليها عند حلّ المشاكل الضخمة التي تبدو عَصِيّة على الحلّ؟

الجواب: من غير المتصوَّر من إنسانٍ مات قلبُه وخمدتْ مشاعرُه وصارت علاقتُه بربه صوريّةً أن يتغلّب على ما يواجهه من مشكلات ضخمة؛ فحلُّ المشـكلات يتطلَّبُ من الإنسـان أن يكون لديه عشـقٌ وحماسٌ للوصول إلى غايةٍ مثاليّة، وأن يحرص على الوصول لهدفه بشوقٍ واشتياقٍ لا يعرفان السكون، وأن يمتلكَ عزيمةً تُؤهّله لمواصلة الكفاح ضدّ الظلم دون شعورٍ بيأسٍ أو قنوطٍ، ومهما تعرَّضَ للهزيمةِ مرارًا وتكرارًا فلا يتسلّل الوهنُ إلى قلبه، بل يستوي وينهض مجدّدًا، ويسـتمرّ في طريقه صامدًا ثابتًا وكأنَّ شـيئًا لم يحدث، وبذلك يقدر علـى تجاوز الجبال التي يصعب اجتيازُها، ويحوّل الهزيمة التي مُني بها إلى نجاحاتٍ عظيمةٍ.

نقطة الالتقاء بين العشق والوفاء

وسيدنا آدم عليه السلام خيرُ قدوة لنا في هذا الأمر، فقد أودع الله تعالى في جيناته قابليةً للزلل تتناسـب مع درجة المقرَّبين، فلقد بدرت زلةٌ تُعتَبـرُ فـي أفقِ صفـيِّ الله آدم عليه السلام خطأً بالنظرِ إلـى العلاقة بينه وبين

ربـه، يقـول الله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (سـورة طَـهَ: ١٢١/٢٠)، ويقـول أيضًـا: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (سـورة طَهَ: ١١٥/٢٠)، غير أن المهمّ هنا هو أن الإنسـان بعد أن يقترفَ خطـأً عليـه أن يمنـعَ اليأسَ والقنـوطَ من التسـلُّلِ إليـه، وأن يتوجّه إلى ربه ﷻ ويدعوه ألا يبتليه باقتراف مثل هذا الخطإ مرَّةً أخرى.

أجـل، لقـد فعـل آدمُ ﵇ ذلك، بـل وردَ في الأثـرِ أنه ﵇ ظلّ بعـد اقترافـه هـذا الخطأ يتضرَّعُ إلى الله ويتوسَّـل إليـه دون أن يرفـع رأسـه إلى السـماء مدة أربعين سـنة[٤٣]، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حـال المذنـب، يجب أن ينقصـمَ ظهرُهُ كالعصـا، وأن يعترف بخطَئه قائـلًا: "كيـف أعصيـه وأنـا أعرفه، وأعلـم أنَّ كُلَّ ما أملـك منه ﷻ، لِـمَ لَمْ أفـوِّضْ كلّ أمري إليـه؟"، وبعد ذلك يتَّجِهُ إلـى بابِ محبوبه الحقيقـيّ، ويطلـب منـه تعالـى السـماح والمغفـرة علـى مـا اقترفه من تيميمِ وجهِه إلى ما سواه من الأغيار.

فلو اضطرمت نارُ العشـق في صدر الإنسـان، وغَلَّفَ العِشْقُ كلَّ كيانه، فلن يفكِّرَ أبدًا في الانصرافِ عن باب معشوقه رغمَ ما يتعرَّض له من مشـقّات وابتلاءات، فالعشـقُ هو عنوانٌ للعلاقةِ بين الإنسـانِ وربّـه ﷻ، واتصـالِ قلبـه به سـبحانه دائمًا، والتحرُّقِ عشـقًا وشـوقًا في سبيل وصاله.

عـلاوة على أن الإنسـان الذي اكتوى قلبُه بنار الوصال والعشـق المتوَّج بالوفاء؛ سيسـتوعب رغم كلِّ شيء دقَّةَ امتثال الأمرِ، ويرجـع خطـوةً إلى الوراء ويقول: "اللهم لن أطلبَ منك القدوم إليك، لأنك

(٤٣) السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ١٤١/١.

لم تأمر بقبضِ روحي وطرحِها بين يديك، بل سأبقى إلى ذلك الحين أقومُ بمسؤولياتي نحوك بالخدمة في سبيلك"، وهذا هو أفقُ الالتقاء بين العشق والوفاء.

سبيل تحويل الهزيمة إلى نصر

والشجاعة أيضًا عاملٌ مهم للتغلُّبِ على المشكلات التي تبدو عصيّة على الحلّ؛ لأنها تعبر عن بُعدٍ مختلف للعشق، ولقد كان سيدنا مصعبُ بن عمير ﵁ مثالًا لشجاعةٍ تحار لها الألباب؛ حَمَلَ اللِّوَاءَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَمَّا جَالَ الْمُسْلِمُونَ ثَبَتَ به مُصْعَبٌ ﵁ فَأَقْبَلَ ابْنُ قَمِيئَةَ -وَهُوَ فَارِسٌ- فَضَرَبَ يَدَهُ الْيُمْنَى فَقَطَعَهَا وَمُصْعَبٌ يَقُولُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٤٤)، وأخذ اللِّوَاءَ بِيَده الْيُسْرَى، وَحَنَا عَلَيْهِ فَضَرَبَ يَدَهُ الْيُسْرَى فَقَطَعَهَا، فَحَنَا عَلَى اللِّوَاءِ وَضَمَّهُ بِعَضُدَيْهِ إِلَى صَدْره وَهُوَ يَقُولُ: "وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْله الرُّسُلُ"، ثُمَّ حَمَلَ عَلَيْهِ الثَّالِثَةَ بِالرُّمْحِ فَأَنْفَذَهُ وَانْدَقَّ الرُّمْحُ وَوَقَعَ مُصْعَبٌ وَسَقَطَ اللِّوَاءُ[٤٤]، فلقد هَزمَ مصعبٌ الهزيمةَ، وحوَّلَ وجهَ الموتِ من عبوسٍ إلى ضاحك، وهكذا فلم تكن هناك أيُّة مشكلةٍ عصيّة على الحلّ أمام مثل هذا الحُلاحِل.

أجل، لا جرم أن وجهَ الموتِ عبوسٌ، ولكنك إن تبسَّمْتَ له تبسَّمَ لك، زيادة على أن الله تعالى يتولَّى ردّ تلك الأمانة بنفسه دون أن يعهد بها لأحدٍ من الوسطاء، ومن هذا المنطلق كان الأولياء العظام أمثال الشيخ الجيلاني وأبي الحسن الشاذلي يرجون الله ويتضرّعون إليه دائمًا بأن يتولى قبضَ أرواحهم بيديه.

(٤٤) الواقدي: **المغازي**، ١/٢٣٩.

ولقد كانت الشجاعة والجرأة من صميمِ الخصالِ النبويّة المحمّديّة، واذكر إن شئتَ على سبيل المثال ما تعرَّض له المسلمون من هزيمةٍ مؤقّتةٍ يوم أُحُدٍ، فالقائد ﷺ كان مُصيبًا حقَّ الإصابة فيما أخذَ به من إستراتيجيّات؛ ولقد كان يرغبُ بدايةً في عدم الخروج من المدينة والبقاءِ للدفاع عنها، ثم نزل على رأيِ أصحابِه المفعمين بالحماس وأقرَّهم على الخروجِ إلى أُحُدٍ، كما أَمَرَ الرماةَ بأخْذِ مواقعهم الدقيقة على الجبل، إلى غير ذلك من الإستراتيجيات التي استخدمها في محلِّها فأضلّ الأعداءَ وأوقع بينهم، لكن لما نزل الرماةُ من فوق الجبل ومُنِيَ المسلمون بالهزيمة قال القرآن الكريم: ﴿**إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٥٥)، ونستنتج من الآية أن بعضًا من الصحابة المصطفين الذين كانوا حول سيدنا رسول الله ﷺ قد جانب الصوابُ اجتهادهم.

أجل، لم يكن بعضُ الصحابة رضي الله عنهم قد استوعب بعدُ دقَّةَ الامتثال للأمر يومَئذ، فمُنِيَتْ جحافلهم بهزيمةٍ مؤَقَّتةٍ، ولكن رسول الله ﷺ حوّل تلك الهزيمة المؤقتة إلى نصرٍ مؤزر، إذ إن المشركين بقيادة أبي سفيان لَمَّا انْصَرَفوا عَنْ أُحُدٍ وَبَلَغُوا الرَّوْحَاءَ، قَالُوا: لَا مُحَمَّدًا قَتَلْتُمُوهُ، وَلَا الْكَوَاعِبَ أَرْدَفْتُمْ، وَبِئْسَ مَا صَنَعْتُمْ، ارْجِعُوا فَلَنَكرَّنَّ عَلَيْهِم فنستأصلنَّ بَقِيَّتهمْ -وأرادوا أن يرجعوا للقضاءِ الكاملِ على المسلمين- فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَنَدَبَ النَّاسَ فَانْتَدَبُوا حَتَّى بَلَغُوا حَمْرَاءَ الْأَسَدِ وَبِئْرَ أَبِي عِنَبَةَ، فلما رأى أبو سفيان المسلمين بصحيحهم وجريحهم من ورائه عدَلَ عن فكرته وفضّلَ العودة إلى مكّة خشيةَ الاشتباك والهزيمةِ أمام كتائب المسلمين، فقال هو وأصحابه: "لِنَرْجِعْ إلى أهلينا بالنصر الذي حقَّقْناه، ونُثْلِجْ صدورَهم"، ولم يجرُؤْ على مواجهة المسلمين كرة أخرى.

وهكذا حوّل الرسول ﷺ وصحابتُه الفضلاءُ الهزيمةَ إلى نصرٍ من جديد، وذلك بشجاعتهم وإقدامهم وملاحقتِهم العدوّ رغمَ ما كانوا يُعانونه من جروحٍ وقروح، وأنزلَ الله تعالى قولَهُ: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ١٧٢/٣).

وما أشبه ما جرى في "حُنَين" بما حدث في "أُحُد"، فقد كانت هَوازن وثَقيف من أمهر القبائِلِ العربيّة رميًا بالسهامِ والنِّبالِ، ولما دخل المسلمون وادي حنين رشقوهم بالنبال، فتصدَّعَت صفوف المسلمين، لكن رسول الله ﷺ طفق يُركِّض بغلته قِبل الكفار وهو يقول: "**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ**"، يقول سيدنا العباس رضي الله عنه: "وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع"، ثم قال رسول الله ﷺ: "**أَيْ عَبَّاسُ نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ**"، قَالَ: فَوَاللهِ لَكَأَنَّمَا عَطَفْتُهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةَ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا، فَقَالُوا: "يَا لَبَّيْكَاهُ يَا لَبَّيْكَاهُ!"، فَاقْتَتَلُوا هُمْ وَالْكُفَّارُ، وَالدَّعْوَةُ فِي الْأَنْصَارِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، ثُمَّ قُصِرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَقَالُوا: يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِه، كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ فَقَالَ: "**هَذَا حِينُ حَمِيَ الْوَطِيسُ**"، ثُمَّ أَخَذَ ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بهنَّ فِي وُجُوهِ الْكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ: "**انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ**"، قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِه فِيمَا أَرَى، قَالَ: فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحَصَيَاته، فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا، وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا"[٤٥].

(٤٥) **صحيح البخاري**، الجهاد، ٥٢؛ **صحيح مسلم**، الجهاد، ٧٦.

ومـن ثمّ فمن الأهمية بمكان ألا يخنـع المؤمنُ لليأس والقنوط عند مواجهة المشاكل والأزمات، وأن يحاول التغلّب عليها بشجاعة وجرأة، وألا يتخلى عن شدّه المعنوي الذي يجعله يقول: "لو تجلّت مشيئة الله لي فيمكنني بفضله وعنايته أن أُغيّرَ مجرى الأرض".

أجل، ما من مشكلةٍ يمكنها أن تقهر المؤمنَ إذا ما لاذ إلى حول الله وقوَّته وامتلأ قلبُه شجاعةً وجرأةً.

لا بدّ لِلعشق والشجاعة أن يخضعا لحماية العقل المشترك

إن المشـاعر السـامية كالعشق والاشـتياق والشجاعة، وإن كانت مهمّة جدًّا في حل المشكلات الكبرى، إلا أنه يجب أن تُقام وتؤسّس علـى أرضيّـة إسـتراتيجيّة وفقَ منطقٍ حقيقـيّ وجادّ جدًّا، وتُسـتَعْمَلُ في مكانها المناسِـبِ، وتُربط بمخطَّطٍ سـليمٍ وقويٍّ، فأنتم تستطيعون بأنفاسـكم المخلصة الدافئة المنبعثـة من فؤادِكم أن تكونوا أصحاب جـذبٍ معنـويٍّ يسـتطيع أن يصهر ولو حتـى الجبـال الجليدية التي تعترضكم، غير أن هذا فحسـب ليس أمرًا كافيًا في حلِّ المشـكلات؛ فإلـى جانبـه يجب علينا أن نعـرفَ الطرفَ الآخر معرفـةً جيِّدَةً، وأن نضـع في حسـباننا القدرات والإمكانيات التي يمتلكها ونطوِّرَ خططًا وفقًـا لذلك، وإلا فإن كلَّ مجهودِكم الذهني والفكريّ يُصبح سُـدًى ويذهب أدراج الرياح هباءً منثورًا.

ولا سـيما إن كان يحيط بكم أناس يجاهرون بالعداء والخصومة في صورة دوائر متداخلة متشابكة؛ فهذا يعني أنكم في مواجهة جبهةٍ معاديةٍ ضخمةٍ جدًّا، وإن كان لكلِّ جبهةٍ عدائيّةٍ حسـاباتها الشخصية الخطـرة جـدًّا ومخطَّطاتها الإباديّة ضدّكـم، وكان بعض هؤلاء يتفق

مـع بعضهم، وقسـمٌ من تلك المخططات يتواءم مـع غيره فإن هذا يستوجب أن تكونوا أكثر حذرًا، وأن تتصرَّفوا وتتحرّكوا بيقظةٍ وانتباهٍ أكبر؛ لأن دوائر العداء المتلاحمة التي تشـكل فيما بينها صفًّا واحدًا قـد تنزل على هامتكم كالمطرقة بشـكل غير متوقـع ودون أن تنتبهوا أنتم لذلك.

ومن هذه الناحية فإن العشق والحماس والشد المعنوي والشجاعة والجسـارة لا بد وأن تخضـع كلها لحماية وضمان المحاكمة العقلية مطلقًـا، ويمكنكم أن تعتبروا هـذا توازنًا يتطلّبُه البناء، ولنفرض أنكم أسَّسـتم بنـاءً علـى أرضٍ غيـر صلبة ولا ثابتة فإن كلَّ شـيءٍ سـوف يتقـوَّضُ وينهارُ في مواجهةِ أصغرِ صدعٍ أرضيٍّ قد يحدثُ، وسـوف تُعانُون أنتم أيضًا تحت وطأة ما فعلتموه، وهكذا فإنه ينبغي لكم كي لا تضيـع كلُّ هذه الجهود سدًى أن تَحْمُوا حماسَكم وتُؤمِّنوا نشاطَكم بالمنطِقِ والمحاكَمَةِ العقليّة، والأهمّ من ذلك بالعقل المشـترك، فإن وجـود أنـاسٍ يُناقِشُـون القضايـا والمشـكلات مع بضعةِ أشـخاص ويتشـاورون حولهـا فيما بينهم أعلى وأرفـعُ درجـةً من وجود بضعة عباقرة يغيرون الجغرافية العالمية بمنطقهم ومحاكماتهم العقلية.

وإذا ما ربط الحقُّ تعالى عنايته وتوجهه إلى الناس بالاستشـارة، فـلا طاقـة لكـم على تغيير هذا، كما أن رسـولنا ﷺ قد قـال في هذا: **"مَـا خَـابَ مَنْ اسْـتَخَارَ، وَمَـا نَدِمَ مَنْ اسْتَشَـارَ"**[(٤٦)]، فضـلًا عن ذلك فإن مفخرة الإنسـانية ﷺ ربما لـم يترك أمرًا إلا واستشـار فيه، لدرجة أنـه حين افترَتْ كَذِبًـا وإفكًا مجموعةٌ من الأفـواه الجوفاءِ المغرضة

(٤٦) الطبراني: **المعجم الأوسط**، ٦/٣٦٥.

على أمنا السيدة عائشة التي تُوازي بِطُهرِها ونقائِها ملائكةَ السماء؛ فإنه -وهو الذي لم يجزع ولم ير الذعر في حياته ولو حتى في المنام- استشارَ بعضًا من أصحابه حتى في هذه المسألة. أجل، لقد تباحث ﷺ مع كلٍّ من: سيدنا عمر وسيدنا عثمان وسيدنا عليّ ومع آخرين غيرهم في قضيةٍ خاصّة وسرّيّة تتعلق بزوجه المصون، فتفضلوا جميعُهم بكلام جميل طيّبٍ يؤيِّدُ ويقوِّي رأيَ وقناعةَ رسولِ الله الطاهرةِ النزيهةِ بحقِّ حرَمه المصونِ أمِّنا السيّدة عائشة رمزِ العفَّةِ والعصمة ﵂.

والواقع أن سيدنا رسول الله ﷺ المؤيَّد بالوحي لم يكن في حاجة إلى أن يستشير الآخرين في أيّة مسألة قطّ صغيرةً كانت أو كبيرةً، وإن فكرتم في خلاف ذلك فقد أسأتم الأدبَ تجاهه، وكشفتم أنكم لم تفطنوا إلى معنى الوحي ولم تعوه، فالله ﷻ لم يتخلَّ عنه ولم يودّعه قطّ طيلة حياته ﷺ، ولم يتركه في أيِّ وقتٍ قطّ عُرضة لأيِّ موقف يمكن وصفه بأنه خيبةٌ وفشلٌ؛ حاشا وكلَّا، بل كان إلى جواره دائمًا كما يُفهم من الآية الكريمة: ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللّٰهَ مَعَنَا**﴾ (سورة التَّوْبةِ: ٩/٤٠)؛ فواصل رسول الله ﷺ حياته -التي نفديها بأرواحِنا- في حمايةِ الله وضمانِه ومعيَّتِه، وبالرغم من هذا فقد كان ﷺ يحُلّ حتى أصغر المسائل عبر الاستشارة، وعلّم أمَّتَه كيف يجب عليها أن تتصرَّف، وأرشدها إلى ذلك، ومن هنا نقول إن حلَّ القضايا والمشكلات التي تتعلّق بالعامة على وجه الخصوص عبر الرجوع إلى العقل المشترك والوعي الجمعي أفضلُ وأسمى بكثير وكثير مما يقوم به العباقرة.

إنكم حينما تقومون بمسؤولياتكم وواجباتكم ربما تطوِّرون الخُطَطَ البديلة من الألف إلى الياء حتى في مواجهة مشكلةٍ واحدةٍ، غير أنه ورغم كل هذه التدابير قد تواجهكم مشكلات لم تضعوها في حسبانكم تكمن وراء حساباتكم، فتحدثُ في أعماقكم انكساراتٌ جزئيّة، وهكذا فإنه ينبغي في مثل هذا الموقف أيضًا ألا نيأَس أبدًا، ولا نسمح للوهنِ والقنوط أن يتسلَّل إلى أفئدتنا؛ إذ إنه توجد في الوقت الراهن صدوعٌ مبدئيّة مصدرُها الظلمُ والحسدُ والبغضاء الموجودةُ مع الأسف في كلِّ المناطق الجغرافية التي يعيش بها المسلمون، وهي مهيَّأةٌ للانكسار والظهورِ في أيّةِ لحظةٍ، ومن هذه الناحية فقد تواجهون في بعض المواقف مجموعةً من السلبيات غير المتوقَّعة مهما كانت حساباتكم سليمةً ومدروسة، ولذلك فإنه ينبغي ألا يسيطرَ اليأسُ أبدًا في مثل هذه المواقف، وألا يُستسلم لآراء وأقوالٍ سلبيّةٍ تشُلُّ الإرادة من قَبيل: "ليس ثمَّةَ ما يمكن فِعْلُهُ بعدَ هذا، لقد غُلبنا"، وذلك لأن: "اليأسَ يمنع كلَّ كمالٍ" كما قال الأستاذ بديع الزمان.

ويقول الشاعر محمد عاكف أيضًا:

اليأس مستنقع عميق الغور، إذا وقعتَ فيه فأنت غريقُ

فعانِق الأملَ بقوة، وانظر ما ستؤول إليه حالك يا صديقُ

إن من يحيا يحيا بعزيمته وبأمله المنشودِ

واليائس يغلّل روحه وضميره بقيد حديديٍّ منضودِ

إنه عقدة في الذهن ملعونة لا تُحَلُّ

واليأسُ عبوسٌ كجَانٍ مخيفٍ عُتُلُّ

كمـا يخاطب القانطَ في أول قصيدته التي تلفت الانتباه إلى هذه الحقيقة قائلًا:

أيها الحيّ الميت! لكلّ رأسٍ يدانِ

هلمّ فانهض... فَلَكَ الرأسُ ولك اليدانِ

لماذا عزيمتُكَ عن الاستمرار في طريقِ الخلاصِ عاجزة!؟

أأنت الجبانُ أم أَمَلُكَ الموتُ نَاجَزَه؟

والحاصـل أن الذيـن اختلَّـت عقولُهـم وتعكَّـرَتْ نظراتُهم ربما يريـدون عرقلـةَ خدماتكـم الأكثـر بـراءةً وصفـاءً، ويعرقلـون عجلةَ العطـاء والنمـاء، ولكنه حتى وإن أُعدّت كثير مـن المؤامرات فلا بدَّ مـن تجنُّـبِ اليأس والقنوط تجنُّبًا تامًّـا، وألا نهتزَّ أبدًا، بل نقف دائمًا ونثبـت منتصبيـن كالأَلِـفِ، ولا بدّ من البحث عن السـبل المناسِـبَةِ لتحويـلِ "أُحُـد وحُنيـنَ" إلى نصرٍ من جديـد، ومواصلةِ السـيرِ قُدمًا نحـو كعبـة الإيمـان وقِبلتِه، مما يؤدي بدوره إلـى ثقة الناس في هذه المسـيرة، وينبغي لنا ألا نَمَلَّ ولا نَكِلَّ في مواجهة كلِّ ما نتعرَّض له من مؤامرات، وأن نواجه المعوّقات والطرق المسدودة بالتوكُّل على الله، ونبحـث عـن البدائل المختلفـة، فربما لا يُمنَحُ الإنسـان كلَّ ما يريـده ويرغبُ فيه فورًا حتى وإن كان يسـيرُ فـي طريق الحقِّ ويطلبه بإخلاص، ولا نسـتطيـعُ معرفةَ الحكمة مـن المِحَنِ الجارية، غير أنه قد يمنّ الحقُّ بعد هذه المحن بأضعافِ ما منَّ به سابقًا، ولنترقّب في صبرٍ فعَّالٍ نَشِطٍ؛ فكم مِن فَجْرٍ يُولَدُ من رَحِمِ الليالي.

مهمة الإرشاد، واللين في المعاملة

سؤال: ما العلاقةُ بين مهمّة الإرشاد واللين في المعاملة في ضوء قول الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ١٥٩/٣)؟

الجواب: نزلت هذه الآية الكريمة بمناسبة معركة أحد، وكما هو معلوم؛ فقد تعرض المسلمون لهزيمة مؤقتة في هذه المعركة، إلا أنَّ تلك الهزيمة النسبية الجزئية التي حدثت تُوِّجَت في نهاية المطاف بالنصر[٤٧].

ولْنُورِد بدايةً شرحًا موجزًا لمعنى تلك الآية الكريمة؛ حيث استُهلّت بقوله تعالى "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ"، وإذا كان حرف الجر "الباء" الوارد في لفظ "فَبِمَا" يفيد المصاحبة يكون المعنى: "لقد لنتَ لهم وعاملتَهم برفقٍ بفضل رحمة الله وعنايته ورعايته وكلاءته"؛ فبيّن الله تعالى هنا أوّلًا أنَّ النبي الأكرم ﷺ محفوفٌ بعنايةٍ ورعايةٍ إلَهيّةٍ

(٤٧) لمّا انصرف المشركون عن أحد وبلغوا "الرَّوحاء" ندموا على انصرافهم قبل أن يستأصلوا المسلمين وقالوا فيما بينهم: "لا محمدًا قتلتموه، ولا الكواعبَ أردفتم، وبئس ما صنعتم، ارجعوا!" فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فندب الناسَ وأمر بلالًا أن ينادي: "إن رسول الله يأمركم بطلب عدوكم، ولا يخرجنّ معنا إلا مَن شهد القتالَ بالأمس!" فخرجوا والجراحُ فيهم فاشيةٌ، فبعضهم خرج وهو يزحف، وبعضهم يحمل بعضًا، وخرج رسول الله ﷺ وهو مجروح، في وجهه أثر الحلقتين، ومشجوجٌ في جبهته في أصول الشعر، ورباعيته قد شظيت، وشفتُه قد كُلمت من باطنها، وهو متوهن منكبه الأيمن بضربة ابن قميئة، وركبتاه مجحوشتان، حتى بلغوا "حمراء الأسد" وبئرَ أبي عنبة، وقد انصرف أبو سفيان وأصحابُه خائفين وجلين، فبذلك حوَّل رسولُ الله ﷺ الهزيمة المؤقتة التي تعرضوا لها إلى نصر عزيز. (انظر: الواقدي: **المغازي**، ٣٣٤/١-٣٣٦)

خاصّـةٍ، فدفعَ من الأذهان منذ البداية احتماليّةَ أن يكون ﷺ قد وقـعَ في أيِّ تقصيرٍ.

ومن المفيدِ هنا استحضارُ مخاطبةِ الحقّ تعالى لكلٍّ من: سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام بشأن الإرشاد، كي يتسنى فهم وإدراك الوضع والميزة السامية لرسولنا الأكرم ﷺ في هذا الموضوع؛ فبينما أَمَرَ الله سبحانه وتعالى باللينِ سيدَنا موسى وهارون عليهما السلام إذ أرسلهما إلى فرعون قائلًا: ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى**﴾ (سورة طَه: ٢٠/٤٤)؛ ذكَّرَ بقوله "لِنْتَ لَهُمْ" أنَّ مفخرة الإنسانية ﷺ على خُلقٍ سامٍ كهذا أصلًا.

وبعد أنْ أفصح الله جل جلاله عما يتحلَّى به سلطانُ الأنبياء ﷺ من خُلق قرآنيٍّ قال: "وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ"؛ فلفت بذلك الانتباه إلى صنوف الجمال والحسن التي أدت إليها أخلاقه الرفيعة السامية ﷺ، ثم أمره أمرًا إثر آخر بألّا يترك العفوَ عنهم والاستغفارَ لهم ومشاورتَهم في الأمر فقال تعالى: "فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ".

إكسيرٌ حوّلَ الهزيمة إلى نصرٍ

عقد النبيُّ ﷺ مع أصحابه مجلِسًا للشورى قبل الخروجِ إلى معركة أُحد، وقد أخذَ برأيهم إيمانًا منه بضرورة ترسيخ مبدإ الشورى عند الجميع، غير أنهم تعرضوا لهزيمة مؤقتة كبَّدتهم خسائر فادحة، ودفعًا لما قد يقعُ في نفسِ الرسول ﷺ من انكسارٍ وحزن تجاه أصحابه وجَّهَ الله تعالى نبيَّهُ إلى التحلِّي بأخلاقِ الصفح والعفو والمسامحة، وأن يتوجَّه إلى الله بالاستغفار لهم، وألا يستنكفَ عن مشاورتهم مجدَّدًا.

وبينما كان المشركون قافلين في طريق عودتهم إلى مكة متبخترين مَزْهُوّين بالنصر جَمعَ رسول الله ﷺ أصحابه، وعرض عليهم تعقُّبَ المشركين، فنزلوا هم أيضًا على هذا الرأي الذي رآه رسول الله ﷺ، ولم يتخلَّفْ عنه أحدٌ ممن شارك في موقعة أُحُدٍ... وبإمعانِ النظرِ في هذا المشهد وتأمُّلِ ما فيه يتسنّى لنا أن نُدرِكَ مدى تأثيرِ المشورةِ في الوصول إلى نتيجةٍ طيبةٍ؛ لأنَّ سادتنا الصحابةَ الكرام رأوا كيف أنَّ إصرارهم -وإن كان بسيطًا- على رأيهم في المشورة التي أجراها رسول الله معهم قبل أُحدٍ تسبَّبَ في وقوع المصيبة؛ وعليه فإن جميعَ من حضرَ أُحُدًا من الصحابة بمن فيهم الجرحى الذين لا يقدرونَ على المشي جاؤوا وقد حُمِلَ بعضهم على الأكتافِ، وطاردوا المشركين حتى موقع حمراء الأسد، فما لبثوا أن تحوَّلوا من وضعيّة المنهزم إلى وضعيّة المنتصر.

وهذا يعني أنه ينبغي لنا ألا نتخلَّى عن أسلوب اللِّين حالًا وقالًا إنْ كنَّا نريد أن نصبح مركزَ جذبٍ في نظرِ المخاطبين؛ لأن الفظاظة والغِلظة في التعامل والتصرُّف مع الناس تجعلهم ينفضُّون من حولنا وينفرون منّا كما بيَّنَت تلك الآية الكريمة.

أما القسوة والغلظة فتتعدَّدُ أنواعُها وتتباين؛ فكما أنَّ تفوُّهَ خَطيبٍ بكلماتٍ بذيئةٍ ووقحةٍ، ومخاطبتَه الناس بقسوة وشدة، وإفراطَه في رفع صوته تعبيرٌ عن الغلظة؛ فإن انتقادَ الناس انتقادًا موجعًا أو التولي والإعراض عن أحدهم نموذجٌ آخر من نماذج القسوة والغلظة، وكلّها سلوكيات وتصرفات تُنفِّرُ الناسَ وتُبعدهم عمَّن يُخَاطِبُهم.

إن الأخلاق الإلهية لهي الأساس في هذا الصدد، والأنبياء العظام هم مَنْ يمثلونها، فما دام الحق ﷻ يأمرُ سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام باتباع اللين والرفق حتى عندما يخاطبان فرعون الذي يدعي الربوبية، ويُثني على سيدِنا رسولِ الله ﷺ ويَمدَحه بسبب تصرفه اللَّيِّنِ وبيانه الرقيقِ؛ فذلك يعني أنَّ هذا هو المبدأ الإلهي الأساسُ الواجب اتباعه في كل زمان ومكان، وعليه فإن المؤمنين مطالَبون بأن يعاملوا الناس من حولهم بلينٍ ورفقٍ مهما يلاقون منهم.

حدُّ اللين عدمُ التفريط في حقوق الله

ومع هذا فإن اتخاذ موقفٍ ضدَّ المتمرِّدين العصاة الذين لا ينتصحون، بل يُصِرّون على تكرار الخطإ والتقصير دائمًا دون خجل ولا استحياء منهم هو تعبيرٌ عن إعلاء حقِّ الله وتعظيمه، وزيادةً في الإيضاح نقول: ينبغي علينا تجاه أولئك الذين يتكسَّبون دون مراعاة للحلالِ ولا للحرامِ ويعيشون حياة إباحيّة مضرّةً لهم ولغيرهم؛ أنْ نُحذِّرَهم بأسلوبٍ لَيِّنٍ وهَادِئٍ، فإن لم يتعَقّلوا وينتهوا عما يفعلون وجب اتِّخاذُ موقفٍ واضح تجاههم، وكما هو معروف فإن قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ (سورة التَّوْبةِ: ١١٨/٩) نزل في الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك؛ فثمة امتحانٌ في هذا، والحقيقة أنَّ رحى الحرب لم تَدُرْ في غزوة تبوك رحمةً من الله تعالى، ولو أنها دارت لكان هؤلاء الثلاثة قد وقعوا في ذنبٍ أعظم بقعودهم عن المشاركة في الحرب، ولهذا السبب فقد أخبر الله تعالى بعد تلك

الواقعة بخمسين يومًا أنه عفا عنهم رحمة منه بهم، لكنَّ هذه الأيامَ الخمسين ما عاشوها إلا في عزلةٍ فريدة، امتنعَ النبيُّ فيها عن الكلامِ معهم، ومنعَ جميع الصحابة من تكليمهم؛ لأنهم لم يشاركوا في حملة جُهّزت في سبيل الله، وفي تلك الفترة أيضًا لم يكن المنافقون يشاركون في الحرب، ولذلك فإن من تخلَّفَ من المؤمنين فقد أدخل نفسَه ضمن هذه الفئة مؤقّتًا؛ فاتُّخذ ذلك الموقف تجاههم لأنهم دَنَّسوا فلكهم، فكانت المقاطعة الجماعيّة من قِبلِ المجتمع تعبيرًا عن تعظيم حقوق الله ومراعاتها.

وإلا فإن اللين والرفق هما أساس أخلاق المؤمن، ومَنْ يتمثَّلون اللين والرفقَ في أقوالهم وتصرّفاتهم وسلوكياتهم يجذبون الناس إليهم، وإن كان ثمة إنسانٌ جديرٌ بقدرٍ معينٍ من التقدير والالتفات بالنظر إلى منزلته الاجتماعية فيلزم ألا يُبخَس حقَّه في نيل ما يستحق من الاهتمام، ولا ريب أن العلاقة التي تُؤسَّس مع الآخرين ستختلف من شخص إلى آخر، غير أنه لا بدَّ لكلِّ فردٍ أنْ يأخذ نصيبه من تقديركم وعنايتكم بحسب خصوصيَّة الطريق الذي يسير عليه، ولا بدَّ من إقامة العلاقات والتواصل مع الجميع بدءًا بالمؤمن المهموم على أمّته، ومرورًا بالمؤمنِ العادي، وانتهاءً بمن يتحرك في اتجاه مختلفٍ عنكم.

السبيلُ الوحيد لإقامة جسور المودة

لا بد من الوصول إلى كل الناس في المجتمع، وفتحِ الصدور للجميع باستخدام سبلٍ ومناهج مختلفة؛ فهذا هو المقصدُ الأصلي من "الحوار"، والسبيلُ إلى التواصل مع الناس يتأتّى من اللطافةِ

في التعامل واللينِ في السلوكِ حالًا وقالًا، ويستحيل عليكم التعبير عن أفكاركم بشكل كاملٍ وتامٍّ إنْ لم تحققوا ذلك، فإن كنتم ترغبون في أن يستفيد الناس مما تقولون استفادة تامةً أو جزئيّة؛ فيميلوا إليكم وينجذبوا لكم أو لا يكونوا ضدّكم ويتصدوا على الأقل لمن يتحركون ضدَّكم فعليكم أن تتحركوا بلين ورفق تجاههم فتُقيموا جسور الودّ واللينِ معهم، وتضمنوا بذلك أن يعرفوكم بشكل صحيح.

وإن كنتم تريدون إعلاء كلمة الله، وإيصال الرسالة المحمدية الجليلة إلى الجميع، وإبراز صورة الإسلام البهية ووجهه الطاهر النقيّ تصدّيًا لمحاولة البعض تشويهه، وإفراغَ العصارة الذكية المنسابة من جذوركم الروحية والمعنوية في صدور الآخرين؛ فعليكم أن تفتحوا صدوركم للجميع وتحتضنوهم دون تمييز بينهم على الإطلاق، بل وحتى عليكم -إذا لزم الأمر- أن تضعوا رؤوسكم تحت أقدام الآخرين كأحجار الرصيف كي تفرغوا مشاعركم وأحاسيسكم في أرواح الناس وتبثّوها فيها، ولا تظنّوا أنَّ هذا الأمر عظيم، بل إنّه ليسَ شيئًا يُذكر؛ لأن الأمرَ هنا مرتبطٌ برضوان الله وحقِّه، وبرضا مفخرة الإنسانية، وفيه مراعاةٌ لِخاطرِ مَنْ يعيشون الإسلامَ الدين المبين ويطبقونه ويحملون رسالته إلى كل أنحاء الدنيا.

وَعَوْدًا منَّا على ذِي بدءٍ نقول: إن رسولنا ﷺ أظهر بأقواله وأفعاله وتصرفاته وسلوكياته طيلة حياته أنه رحمة مجسمة تسير على الأرض؛ فكان هكذا حقًّا كما بَيّنَت الآية الكريمة: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: ٢١/١٠٧) ويمكن مطالعة مظاهر هذه الرحمة ورؤيتها في عديد من فصول ولقطات حياته ﷺ،

ومن ذلك على سبيل المثال أنَّه ﷺ عندما دخل مكة قال لأولئك الذين ما تركوا شوكةً إلا ووضعوها في طريقه، ولا محاولةً إلا وبذلوها في سبيلِ إيذائِه، بل وأرادوا منعه من دخول مكة -قال لهم- مثلما قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿**لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ (سورة يُوسُفَ: ٩٢/١٢)، "**اِذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**"، فأرانا بهذا القمَّةَ في اللين والصفح والرحمة والتسامح[٤٨].

رحمةٌ مجسَّمة تسير على الأرض

لقد أصبح مردودُ هذا اللين والرفق الذي أبداه سيد الأنبياء رسولنا ﷺ عظيمًا؛ إذ دخل الناس في الإسلام أفواجًا وجماعاتٍ كما ذُكر في سورة النصر، وإذا نظرنا إلى المسألة من زاوية تكرر الأحداث التاريخية في دوران دائمٍ يمكننا القول إنه: أيًّا كانت العوامل التي أثرت في دخول الناس الإسلام بالأمس فإنها ستظل تؤثر في اعتناقه اليوم وغدًا، وكما قال الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي: "لو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارمَ أخلاق الإسلام وكمالَ حقائق الإيمان، لدخلَ أتباعُ الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجًا، بل لربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام"[٤٩].

أجل، إن تجسيدَ الرحمةِ على وجه "الأصالةِ" حاصلٌ برسولِنا ﷺ، ولا قِبلَ لأحدٍ على الإطلاق أن يُزاحمه في هذا المقام، غير أنه ينبغي للأعين أنْ تطمحَ إلى هذا الأفق دائمًا؛ ولا بد من السعي إلى تحصيله على مستوى "الظليّة"، وحريٌّ بنا أنْ ندعوَ الله جل جلاله أنْ يجعلنا

(٤٨) انظر: البيهقي: **السنن الكبرى**، ١٩٩/٩.

(٤٩) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: **صيقل الإسلام**، الخطبة الشامية، ص ٤٦٢.

رحماء مشفقين؛ إذ يُمثّلُ هذا في الوقت نفسه سببًا ووسيلةً مهمة لأنْ تنزل بنا رحمته ﷻ، ولقد قال رسول الله ﷺ: "**مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ، لَا يَرْحَمْهُ اللهُ** ﷻ"(٥٠)، وقال في حديث آخر أيضًا: "**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَانُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**"(٥١).

ومن هذه الناحية فإنه ينبغي لفدائيِّي المحبّة في عصرِنا أنْ يَتُوقُوا للوصول إلى أفق تجسيد الرحمة، وأنْ يسيروا في سبيل إدراك هذا دائمًا، وأيًّا كانت النقطة التي ستحملهم إليها ملكاتُهم؛ فلسوف يُرافِقُون في الآخرةِ الإنسانَ الأُفُقَ في هذا الطريق الذي يسلكونه، وهو رسولُنا ﷺ، وسيكونون في معيته ما داموا يسيرون في إثر هدفٍ كهذا.

---

(٥٠) **صحيح مسلم**، الفضائل، ٦٦؛ **سنن الترمذي**، البر، ١٦.

(٥١) **سنن الترمذي**، البر والصلة، ١٦؛ **سنن أبي داود**، الأدب، ٦٦.

التراب والورد

سؤال: يقول سعدي الشيرازي[52] في أثره المسمى "كُلِسْتَانْ (روضة الورد)": كُن تُرابًا أيُّها الإنسانُ تُنْبِت وردًا؛ فما يَنبُتُ الوردُ إلَّا في التُرابِ"؛ فما المعاني التي تعبِّرُ عنها عبارته تلك بالنسبة لمفهومنا الخاصِّ بالعبودية؟

الجواب: إن هذه العبارةَ الجميلة بمعناها الحقيقيّ تقول: إن الوردَ ينبُتُ في التراب فحسب، وكما أنَّه لا يمكن أن ينبُت وينمُو في الجرانيت والرخام أو الحديد فلا يمكن أيضًا أن ينمو في المعادن النفيسة التي تحظى بغايةِ تقديرِ الناسِ مثل الفضة والذهب والزبرجد والياقوت.

والحقيقة أنَّه يمكنكم ربطُ دفنِ الناس في التراب بعد موتهم أيضًا بهذا المعنى؛ إذ إن الإنسان لا يُرمى جانبًا في أيِّ مكانٍ حين يموت، وإنما يُدفن في التراب كي يَنبت وردةً أخروية، سواء أربطتم الأمر بحقيقة "عَجْب الذَّنَبِ" أو بشيء آخر؛ فإن في الإنسان "جوهرًا"

(٥٢) **سعدي الشيرازي** (١٢١٩-١٢٩٤م): شاعر ومتصوف فارسي، تميزت كتاباته بأسلوبها الجزل الواضح والقيم الرفيعة، مما جعله أكثر كُتاب الفرس شعبية، فتخطت سمعته حدود البلدان الناطقة بالفارسية إلى عدد من مناطق وأقاليم العالم الإسلامي، وبلغت الغرب أيضًا، من أشهر آثاره: "الكُلِسْتان (روضة الورد)" و"البستان".

يُحْييه الله جَلَّ جَلَالُهُ به من جديد، غير أنَّه لا يمكن أنْ يبدو كالوردة في الدار الآخرة إنسانٌ أطلق لنفسه العنان فَتَحَلَّلَ معنويًّا وهو ما يزال حيًّا ولَمَّا يَمُتْ أو يُدْفَنْ في التراب بعدُ.

سنام العبودية: السجودُ

يُذكر الترابُ في بعض الثقافات الشرقية منذ القِدَم على أنَّه رَمزٌ للتواضعِ والمحويّة دائمًا، لأنَّه جُعِلَ بأمرِ الله مصدرًا لحياةِ الإنسانِ ولغيره من الأحياء، رغم أنَّه يُداس تحت الأقدام، وبالتالي فإن سموَّ الإنسانِ وإثمارَه مرهونٌ بتواضعه واستحقاره نفسَهُ ومحويَّته وتَذَلُّله بين يدي ربِّه وتأدُّبه معه، أمَّا إنْ همَّ يتكبَّر ويتفاخر فإنه سينقلب رأسًا على عقبٍ يومًا ما؛ فيهلك.

وعليه فإنه ينبغي للإنسان أن ينحني لله بقدر نِعَمه وإحسانه وألطافه عليه، ويمكنكم تمثيل هذه الحقيقة في أذهانكم وإحياؤها عبر التفكير في أركان الصلاة؛ فعلى سبيل المثال: إن الإنسانَ الذي يقومُ للصلاةِ مكبِّرًا تكبيرةَ الإحرامِ "الله أكبر" فيقف فيها خاشعًا خاضعًا؛ يَسْتَقِلُّ موقفه هذا بين يدي الله تعالى؛ فيُسارع إلى الركوع الذي يعني تعظيمًا آخرَ له سبحانه؛ فينحني راكعًا معظِّمًا لله فيبدو كعصًا ملتويةٍ، ثمّ يستشعرُ نِعَمَ الله أكثرَ فأكثر فيخِرُّ ساجدًا بمشاعر: "اللهم لك الشكرُ كلُّه على ما وفَّقتني إليه من عبادتك، فما أعظمك! وما أجلّك! أنا الحقير الوضيع وأنت الكبيرُ المُتَعَال، غير أنني عاجزٌ عن التعبير عن هذا بقيامي هكذا، وها أَنَذَا أنحني لك خشوعًا وخضوعًا"، ثم يرفع رأسه من السجود وكأنه يبحث عن ضالَّته ومراده؛ فيتوجَّه إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكأنه يراه من فُرجة بابٍ فُرِّجَت له، ويسجُدُ مجدَّدًا وهو يقول: "كلا، إن هذا ليس بكافٍ!".

وقد ذكر مفخرةُ الإنسانيّة ﷺ أنَّه ليسَ ثمة وضعٌ ولا حالٌ يكون فيه الإنسانُ أقربَ إلى ربّه من حاله في السجود؛ إذ قال: "**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّه وَهُوَ سَاجِدٌ**"(٥٣)، وقد عُبِّرَ شعرًا عن هذا المعنى الذي يُفِيدُه السجود على النحو الآتي:

الرأس والقدم على السواء   والسجادةُ تَلْثُم الجبهة الغراء

هذا سبيلك أيها الإنسان   لترقى وتقترب من ربِّ السماء

آفة نسبة النجاح إلى النفس

وهذا يعني أنَّ الإنسان يكونُ قريبًا من الله تعالى بِقَدْرِ تواضُعه وخضوعه له ﷻ، والحقيقة أنَّ هذا هو السَّمت العام بالنسبة لإنسانٍ تعلّق قلبُه بربّه حقًّا تجاه النعم النازلة عليه زخًّا زخًّا؛ فهو ينحني بتواضُعٍ أمام النِّعَمِ اللامتناهيةِ لِربه الكريم، ويضعُ جبهتَهُ حيث تطأُ قدماه، فَيُعْلِنُ ويُقِرُّ بأنّه الصِّفْر الفاني أمام الكبير المتعالي.

ومن هنا فإنه ينبغي لمن نذروا أنفسَهم لخدمة دينهم وبلدهم وأمتهم والبشرية جمعاء ألّا يَعزوا إلى أنفسهم أيَّ نجاح أبدًا، ومهما كانت الدرجة والمكانةُ التي يرتقون إليها، يلزمهم أن يتواضعوا دائمًا، وألَّا يتشوّفوا إلى أيِّ شيءٍ سوى رضاه ﷻ؛ وألَّا تتعلَّقَ قلوبُهم بأيِّ شيءٍ؛ دنيويًّا كان أو أخرويًّا، وهذا هو ما يَجْدُرُ بهم فعلُهُ؛ إذ نذروا أنفسهم للخدمة في سبيلِ الحقِّ، عليهم ألَّا يتطلَّعوا إلى أيِّ شيء مُقابِلَ ما أدَّوه من خدماتٍ، فلا يقول أحدُهم مثلًا: "فلتُحَلّ شؤوني الدنيويّة، وليكن لديَّ بيتٌ فأعيش في راحةٍ؛ وليصل ولدي إلى هذا المقام أو ذاك"، وألَّا يربطوا تلك الخدمات حتى بدخول الجنّة

(٥٣) **صحيح مسلم**، الصلاة، ٢١٥؛ **سنن أبي داود**، الصلاة، ١٤٨؛ **سنن النسائي**، التطبيق، ٧٥.

أو اتِّقاء النار، وإنما يجبُ عليهم أنْ يطلبوا هذا من لُطْفِ الله وفضله وعنايته تعالى.

أمَّا منْ يملؤون خزائنهم ويجمعون الأموال لأنفسهم فحسب رغم أنهم حين خرجوا كانوا يزعمون خدمة الدين والأمّة فهم كاذبون، كما أنَّ سعيَ الإنسان إلى الشهرة ونيلِ التصفيق وانتظارَه التقديرَ ورغبتَه في أن يُشارَ إليه بالبَنَانِ وسعيَه خلفَ المناصِبِ والدرجات الدنيويّة فيما يقوم به من خدمات يعني الرياءَ من جانبٍ والتجرُّؤَ على مساومة الله تعالى من جانب آخر، والذين ينسبون إلى أنفسهم ما يتحقَّق على أيديهم من نجاحاتٍ وما يُصيبُهم من نِعَمٍ مَنَّ الله بها عليهم، فيردُّونها إلى ذكائهم وفِطْنَتهم ودرايتهم، ويتحدثون بِفَرْعَنَةٍ؛ فإنّهُ وإن أُتيحَتْ لهم الفرصة اليوم إلّا أنّها سَتُسلَبُ منهم غدًا وسيفقدون ما في أيديهم وسينكفِئُون على مناخرهم، وسيُصابون بالخزي بقدر بَطَرهم وتغطرُسهم، وتلك هي سُنَّة الله تعالى، ولن تجِدَ لسُنَّة الله تبديلًا.

كن ترابًا فتنبت الورود!

إن المؤمن الحقيقي لا يُتصور منه استغلالُ النجاحات التي حظي بها ونالَها لصالحِ منافعه الشخصية، كما لا يُتصور بطرُه وتغطرسُه لأنَّ البلابل تصدح من فوقه، ولا ينبغي له ذلك، وعليه في مواجهة مظاهرِ الإحسانِ والإكرامِ التي حظي بها أن يتحرَّى سبلَ العودة إلى الأرض من جديد بِوَرْدَتِه وزَهْرَته وأوراقه ليشكِّل مناخًا وأرضيّة جديدةً مناسبةً لِتَبَرْعُمِ ونموِّ مجموعةٍ جديدةٍ من الورود.

كان الأستاذ نجيب فاضل[٥٤] -أسكنه الله فسيح جناته- يقول حين يتحدَّثُ عن نفسه: "اعتبروني سمادًا"، إنني لا أنسى قوله هذا أبدًا؛ فتفكيرُهُ على هذا النحوِ رغمَ معرفته عظمةَ نفسه وقدرَهُ مهمٌّ للغاية من حيث تعبيره عن تواضعه ومحوهِ، وعليه فينبغي للمؤمن أن ينظر إلى نفسه على هذا النحو، فإن تحوَّلَ إلى حديقةِ وردٍ طالت وامتدَّت في كلِّ الأنحاء، وغرّدت فيها البلابل من كل الاتجاهات وحطَّت على أوراقها وأغصانها وراحَت تنشدُ الأغاني والنعوت لأجله فلا بدَّ وأن ينهالَ على الأرض كي تنبت الورودَ الجديدة ثانيةً؛ إذ الواجبُ علينا تجاه نِعَمِ الله التي يُنزِّلُها علينا زخًّا زخًّا أن نُعمِّق تواضُعَنا وخجلَنَا ومحوَنَا أكثرَ فأكثر، حتى إنه يلزم علينا حين يتحدَّثُ البعض عنّا ويذكروننا بتقديرٍ وإشادةٍ أن نتعجَّبَ من هذا قائلين: "عجبًا يا إلهي! ماذا فعلنا من أخطاءٍ حتى يتحدَّثَ بشأنِنا هؤلاء بتلك العبارات المليئة بالثناء في الظاهر، إلا أنها ليست عندنا إلا سبًّا وشتيمة".

وإنْ كان ينبغي إسنادُ تلك الخدماتِ المُنجَزَةِ إلى سببٍ ما في إطار دائرة الأسباب العادية؛ فلا ريبَ أنَّ هذا السبب هو ما يتوافر بين المؤمنين من وفاقٍ واتّفاقٍ، ولا بدَّ من الاعتقاد بأنَّ الحقَّ تعالى رأى الوفاقَ والاتفاقَ توجُّهًا إليه وإقبالًا عليه فقابله بالمثل؛ لأنَّهما أعظم وسائل التوفيق الإلهي.

(٥٤) **نجيب فاضل** (١٩٠٤-١٩٨٣م): مفكر وكاتب وشاعر تركي، لقب بـ"سلطان الشعراء"، له أكثر من مائة كتاب، تتناول أشعاره وكتاباته العديد من القيم الإسلامية والأخلاقية والموضوعات التاريخية والفلسفية.

إن أساس الأمر هو عناية الله تعالى ورعايته وكلاءته كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة الأَنْفَالِ: ٦٣/٨)، وإننا بقدر ما نُحكِمُ علاقتنا به سبحانه وتعالى يُعِينُنا جل وعلا ويُقوّينا؛ فهو يُظهر ملامح عظمته وجلاله بأن يُجرِيَ على يدِ قطرةِ ماءٍ عملَ محيطٍ عظيمٍ، وعلى يد ذرّةٍ وظيفةَ الشمس، وعلى يد نملةٍ صغيرةٍ وظيفةَ الفيلة، لأنَّ مِنْ مظاهر ومعالم إظهاره عظمتَه وقدرتَه تعالى تحقيقَه أمورًا عظيمة باستخدام عناصر صغيرةٍ للغاية.

ومن ذلك مثلًا أنَّ ساداتنا الصحابة الكرام حين ارتحل فخر الكائنات ﷺ إلى أفق روحه؛ تغلبوا على القوتين العظمَيَيْنِ في ذلك العصر فارِسَ والروم، وتبوّؤوا مكانًا مهمًّا في التوازن الدولي آنذاك؛ فنظموا الدنيا من جديد، علاوة على أنهم تغلَّبُوا على إحدى عشرة واقعة رِدّةٍ؛ حجمُ الواحدةِ منها يفوق حجم ما نعانيه من المنظمات الإرهابية اليوم ببضعةِ أضعافٍ، وقد أخمدَ سيِّدُنا أبو بكر رضي الله عنه كلَّ هذه الفتن خلال فترةِ خلافته التي لم تتجاوز العامين ونصف، وحقق السِّلمَ والأمنَ، وعليه فإنه ينبغي أن يخجل ويستحييَ من أنفسهم اليوم من لا يستطيعون التغلب ولو حتى على أبسط التشكيلات الإرهابية رغم أنهم يعتبرون أنفسهم قوًى عظمى، ويتحدثون عن امتلاكهم وحدات آليّة مزوَّدة بأجهزةٍ متطوّرة.

اندمِجْ مع التراب لدرجة ألَّا يُعرَف قبرُك!

الله حسبُنا وما سواه عبثٌ وهوى؛ فنحن لا نحتاج إلى تصفيقٍ ولا إلى تقديرٍ، ولا إلى عبارات التبجيل والتعظيم، وينبغي لنا أن

نخدم في سبيل الحق تعالى في تواضعٍ ومحوٍ حقيقيٍّ، ونبتغي رضاه فحسب، ونُدفنَ في الترابِ كي نصبحَ بَذْرَةً لوردةٍ تَنْبُتُ من جديدٍ لاحقًا، ويجب ألَّا نتشوَّفَ إلى أيِّ تقدير، ليس ونحن أحياء فقط، بل وحتى ونحنُ نُوارَى الثرى؛ ولو من قَبيل: "أرجو أن يشارِكَ في جنازتي أناسٌ كثيرون"، وألَّا ننسى أبدًا أنَّ الأصلَ والأساسَ هو أن نُقوِّيَ علاقتنا بالله تعالى.

يجبُ أن نعيشَ حياتنا بسطاء متواضعين، وأن نسيرَ إلى أفق روحنا هكذا، ونرغب -إن أمكن- في أن تظلَّ قبورنا مجهولةً غير معروفة مثلما رغب قامة العصر العظيم الأستاذ بديع الزمان؛ إذ قال: "ألَا فلا يعرفنَّ قبري أحدٌ سوى اثنين أو ثلاثة من طلابي"، أنشُدُكم الله أيُّ نوعٍ من فهمِ التوحيد هذا!؟ ما أروعَهُ من اتِّصال بالله تعالى! فلا أحدَ يعرفُ مكانَ قبره منذ أن انتقل إلى أفقِ روحه وحتى اليوم سوى بضعة أشخاص؛ فقد جعلَ مبدأَ التواضعِ والمحو والخجلِ الخارق للعادة الذي عبَّر عنه في كتبه دستورَ حياتِه، وعاش حياته محقِّرًا نفسه.

وإن كنّا لا بد وأن نتشوف شيئًا نتيجة الخدمات التي يُجريها ربُّنا على أيدينا فلا بد وأن يكون تحليقَ الروح المحمدية في كل أرجاء الدنيا، غير أنَّه يجب علينا في هذا الصدد أيضًا ألَّا نُلِحَّ على رؤية النتيجة، بل إحالةُ الأمرِ إلى الإرادة الإلهية؛ لأن مراد الله أمام رغباتنا، نحن راضون بما أراده الله ورضي به، فنحن نريدُ ونرغبُ في الشيء، ولكننا لا نستطيع معرفة مراد الله ﷻ، ولن يهتدي مَن طُبع

علـى قلوبهـم وإنْ أردنا نحن لهم الهداية؛ ولذلك فإننا نسـعى سـعيًا حثيثًـا لتحبيب القلوب في الله ﷻ ورسـولِه عليـه أكمل التحايا، لكن نحيل النتيجة ونتركها إلى ربِّنا ونرضى بحكمه وتقديره.

منظومة تقدر على حمل الإسلام

سـؤال: ذكرتم فيما سـبق أنَّه لا يمكن حملُ الإسـلامِ وتبليغُهُ إلا بواسـطة منظومةٍ فعّالةٍ تُمثِّلُ الفهرسَ المعنوي للوجود كله، تتشـكَّلُ من العقلِ والوجدانِ والروحِ والجَسَدِ[٥٥]، فما المقصود بذلك؟

الجواب: كُلُّ ما ذُكِر في السـؤال من عناصر يشـكِّلُ في حدِّ ذاته أعماقًا مختلفةً مفطورةً في الإنسـان، وهي بمثابة ركنٍ ركينٍ بالنسـبة لِفَهْمِ الإسلام وتبليغِ الناس به.

العقل

إذا نظَرْنـا إلى العقلِ نجدُه يؤدّي وظيفتَه في التفريق والتمييز بين الحسَـن والقبيح والنافعِ والضارِّ؛ إذا ما اسـتُخدم على نحوٍ صحيحٍ تحـت مظلّة إرشـادِ القلبِ والـروح، لكن أنصار المذهـب العقلانيّ اعتبـروا العقـل كلَّ شـيء، كمـا أنَّ عقلانيِّـي عصرِنا الجـدد جعلوه ركنًـا مقدَّمًـا على الكتاب والسـنة، أما بعضُ معارضيهـم فقد أنكروا العقـلَ تمامًـا، أي إن الإفراط في إعلاءِ قَـدْرِ العقل من قِبَلِ فئةٍ معيّنة ولّـد التفريـطَ في شـأنه من قِبَـلِ أُخرى، وإذا مـا نَظَرْنَا إلـى الوضعِ العام للعالم الإسـلاميّ اليوم يتَّضحُ جليًّا إهمالُ العقلِ بكلِّ وظائفه، وحدوثُ الانزلاقِ المروِّع نحو التفريطِ في هذا الموضوع.

---

(٥٥) فتح الله كولن: **ونحن نقيم صرح الروح**، أثناء استكشافنا خط السير، ص ٢٣.

والحـال أن ثمـة حكمة مهمّة لخلقِ العقل؛ إنه -قبل كل شـيء- مناطُ التكليفِ والعبوديّة؛ فإنْ حُرِم الإنسـان من نعمة العقل حُرِم من شَـرَفِ مخاطبةِ الله تعالى إيَّاه، فهو سـبحانه يخاطب الإنسـان بوصفه صاحبَ عقل، ويعقد الصفقات بين الإنسان وبينه سبحانه، ومن ذلك على سـبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (سـورة البَقَرَةِ: ٢/٤٠)، وقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (سورة البَقَرَةِ: ٢/١٥٢)، وفهمُ هذا وممارسـتُه مرتبطٌ بالعقل، أما إدخـالُ الله تعالى عبدًا فاقدَ العقل الجنـةَ أو عـدم إدخاله إياه فهذه مسـألةٌ أخرى، غير أن نَيلَ الإنسـان شـرفَ مخاطبـة الله تعالـى إيّـاه في ظلّ نعمـة العقلِ وفهمـه الأوامر الشـرعية المنوطـةَ به وتطبيقه إيّاها أمرٌ شـديدُ الأهمّيّة بالنسـبة لِفَهْمِ مكانةِ العقلِ وقيمتِه في الدين.

وإلى جانبِ ما سبقَ يُمثِّلُ العقلُ العنصرَ الأساسَ في فهم الأشياء المرئيّة والمحسوسة، غير أنَّ له دائرة محدّدة تتناسبُ مع طبيعته هو؛ إذ إنـه قـد يَـزِلُّ ويحيدُ عن الصـواب في أيِّ وقتٍ ما لـم يزن بميزانِ الشرع ما يحصل عليه من معلومات، ولهذا فلا بدَّ أن يُقدّر العقل بقدر قيمتِه التي يسـتحقّها، ومن جهةٍ أخرى فإنكم تَشـلّون جانبًا من الآليّة أو النظـام الـذي تمتلكونه إذا مـا عزلتم العقل ونحيتمـوه جانبًا دون أن يقوم بوظائفه كلها؛ ومن ثَمَّ فَنِظامٌ شُلَّ على هذا المنوال يستحيلُ أن يـؤدّي الوظيفـةَ المرجـوة منـه، وكما يتعـذَّرُ على سـيّارةٍ تنقصُها دوّاسـة الوقـود أن تتحرّك بأيّة حال بالرغم من سـلامتِها ووجودِ كلِّ أجزائهـا في أماكنها؛ فإن النظام العام للإنسـان أيضًا يُصاب بالشـلل مـا لم يؤدِّ العقلُ -أحـدُ أهم أركان هذا النظام- المهمةَ المطلوبةَ منه والمنوطةَ به.

الوجدان

يشكِّلُ الوجدان ركنًا آخر من أركان هذا النظام، وعلى حدِّ تعبير فضيلة الأستاذ بديع الزمان فإن للوجدان أربعةَ أركان هي: الحسُّ والإرادةُ والشعورُ واللطيفةُ الربّانيّة، وللّطيفة الربانية أعماقٌ هي: "السرُّ" الذي هو وديعةٌ ربَّانيةٌ في قلب الإنسان، و"الخفيُّ" المتعلّق بالصفات السبحانيّة والله أعلم، و"الأخفى" الذي يمكننا أن نسميه أفق البحث عن "الذات البحت"، وإن عدم معرفة الأمّيين من أمثالنا بمثل هذه الأمور ليس دليلًا على عدمِ وجودِها؛ لأنَّ مَنْ أدركوا هذه الآفاق أخبرونا عنها بِفَضْلِ تجاربِهم الروحيّة.

وإذا اجتمعت كُلّ هذه العناصر التي تُشَكِّلُ آليَّةَ الوجدان يتحقَّقُ "الحَدْس"، ويمكننا أن نسمي هذا بالحسّ الداخلي، أو التقييم أو التحليل الداخلي؛ حيث إن الإنسان يُرشِّحُ الأشياءَ والحوادث التي تقعُ في العالم الخارجي ويُصفِّيها بواسطة الحدس هذا، ويفهمُها فهمًا صحيحًا، غير أنه إذا ما أهمل ولو حتى عنصرًا واحدًا من تلك العناصر الخاصة بالوجدان فإنه يتعذَّر عليه تشغيلُ الوجدان تشغيلًا تامًّا، وإننا لنشُلُّ ذلك الموجود المسمى بالإنسان حين نُعَطِّل آليّة الوجدان التي هي ركنٌ أساسٌ في منظومته، وفي مثل هذه الحالة تنعدمُ قيمةُ وأهمّيّةُ كونِ هيئةِ الإنسان وبنيته البدنيّة وملامح وجهه وأعضاء بدنه من عينٍ وأُذُنٍ وشفةٍ... إلخ فائقة الحُسْنِ والجمالِ.

الروح

الروح هي الأخرى ركنٌ من أهمِّ أركان هذه الآليّة العجيبة المُلغزة، فهي نظام يفوق اللطيفة الربانية، وقد قال الأولياء عند تحديد

خطِّ السير والسلوك الروحانيّ: ينبغي الانتقال من اللطيفة الربانية إلى الـروح، فللروح جانبٌ إلهـيّ؛ إذ إنها هدية نضرة نَدِيَّة جاءتنا من عند الله تعالـى باعتبارهـا نفخةً إلهيّـة؛ فنُحَسُّ بها ونُـرَى ونُعرَف ونُراعى، إنهـا أمانة إلهيّة؛ ولذلك فـإن القفز من اللطيفة الربانية إلى أفق الروح تعبيـر عن احترام هذه النفخة الإلهيـة التي أودعها الله تعالى فينا أمانةً منـذ بداية الخلـق؛ قال تعالى: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**﴾ (سـورة الْحِجْرِ: ٢٩/١٥)، وهذا في الوقت نفسِه أفقٌ عالٍ مَن يرْتَقِ إليه يُحِس ويشعر بأنَّ مصدَرَهُ إلهيٌّ صِرْفٌ، ومهما كان نيلُ اللطيفة الربانية والفوزُ بها مرتبة مهمـة فـإن مـن يَحبُون في مرابِعِها ولا يتسـنى لهم الصعـود إلى أفق الروح يتعذَّرُ عليهم الإحساس بشيءٍ كثير بالنسبة لتلك المنة الإلهية.

الجسد

نضيف إلى ما تقدم من العناصر عنصر الجسد الذي هو الجانب المـادي مـن الإنسـان، وكمـا أنَّ أنظمـةً كالعقل والوجـدان والقلب والروح التي تشـكل الجانب المعنوي من الإنسـان مهمَّةٌ للغاية؛ فإنّ الجسـد الـذي يمثـل الجانب المـادِّيَّ منه ذو أهمية خاصـة به أيضًا؛ فالقـدرةُ علـى عبـادة الله تعالـى، وأداء عبـادات كالصـلاة والصيـام والحـجّ أمرٌ مرتبطٌ بسـلامة تشـغيلِ هـذا النظام، وكما أننـا لا نُدركُ مـا الذي يحدثُ بأدائنا الصلاة وخشـوعنا بين يدي الله تعالى وتلاوة القرآن؛ فإنّه يتعذَّرُ علينا كذلك أن نعرف كيف سـيكون مردودُ القيام بهـذه العبادات، وكمـا أخبرتنا الأحاديـث النبوية الشـريفة فإنه: "**إِذَا أَحْسَنَ الرَّجُلُ الصَّلَاةَ فَأَتَمَّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا قَالَتِ الصَّلَاةُ: حَفِظَكَ اللهُ كَمَا حَفِظْتَنِي فَتُرْفَعُ، وَإِذَا أَسَاءَ الصَّلَاةَ فَلَمْ يُتِمَّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا**

قَالَتِ الصَّلَاةُ: ضَيَّعَكَ اللهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي فَتُلَفُّ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الْخَلِقُ فَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُهُ"(٥٦).

ومن جانبٍ آخر فإنكم تُهَذِّبون أجسادكم وتُربُّونها بعباداتكم التي تؤدّونها بدنيًّا؛ فهي تحقق مجموعةً من الفوائد للإنسان بالنظر إلى بنيته الطبيعيّة والتشريحيّة، غير أنّها لم تُبنَ على هذا النوع من الحكم والمنافع، بل شُرِعَت لِتأهيلِ الإنسانِ للجنّة وتخليده فيها، ولكي يحظى برؤية الله سبحانه، ويبلغَ مستوى يُرضي الله ﷻ، أي إنّه حتى وإنْ كانت ثمة مجموعةٌ من الفوائد الدنيوية وبعض المنافع التي تصبّ في صالح تربية النفس تتحقّقُ وتنجمُ عن عبادات كالصلاة والصيام والزكاة إلا أنَّ الثمرة الحقيقية من ورائها تُجنَى في الدار الآخرة.

والجسدُ من حيث كونه وسيلة لنيل الإنسان هذه النعم كلها وفوزه بها في الآخرة هو من النعم والهباتِ الإلهيّة الغالية، ولقد جرى التأكيدُ على هذه النعمة منذ النشأةِ الأولى حينما خُلِقَ آدم عليه السلام، إذ أمر الله تعالى الملائكة بالسجودِ له؛ فسجدوا أجمعون إلا إبليس تكبَّرَ ورفض الانصياعَ للأمر ولم يكن من الساجدين، وهو ما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٣٤/٢). نعم، لم يسجد إبليس تكبُّرًا منه وأنانيّةً وغرورًا، بينما رأى الملائكةُ ما في الإنسان من وسعة وما يكمن في الانصياع للأمر من دقّة ورقّة فَخَرُّوا ساجدين، فكان هذا بمثابة عملية إلهيّة لإثارة الاحترام لدى الأرواح لجسدِ آدم عليه السلام، وكما صرحتُ في مناسبات

(٥٦) أبو داود الطيالسي: **المسند**، ٤٧٩/١؛ عبد الرزاق: **المصنّف**، ٥٨٧/١؛ الطبراني: **المعجم الأوسط**، ٢٦٣/٣.

شتى سابقًا فإنه لو جاز السجودُ لأحد سوى الله لجاز السجودُ للإنسان؛ لأنه مخلوقٌ مُكَرَّمٌ بالنظر إلى بنيته الداخلية والخارجية.

وباعتبارِ طبيعةِ الملائكة فإنّهم مدركون الدقَّةَ التي في إطاعةِ الأمر، ويعرفون أسرارَ الألوهيّة، ويعيشون منفتحين على عالم الملكوت، ويتسنّى لهم التواجد في أكثرَ من مكان في آنٍ واحد، غير أنهم لا يستطيعون أن يشعروا تمامًا بخصائصِ العالم المادّي، ولهذا السبب تعجّبوا أمام موجودٍ غريبٍ كالإنسان؛ فقالوا تعجُّبًا منهم لا اعتراضًا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/٣٠)؛ وذلك لأن الإنسان مخلوقٌ يفورُ شهوةً، وأنانيّة، وفخرًا وغضبًا وعقلانيّةً، وهو بالنظر إلى جوانبه هذه كائنٌ مُهيَّأٌ لمقارفةِ المساوِئِ والعيوبِ، غيرَ أنه سرعان ما يرتقي إلى أن يكون عبدًا لله مقبولًا محبوبًا محمودًا عند ربّه ﷻ ما إن يُهَذّب كلّ هذه الأمور؛ فيخلق الله تعالى بكلّ هذه الشرور النسبية خيرًا كثيرًا، أي إن الملائكة لا تستطيع معرفة هذا الجانب من الأمر، والإنسانُ باعتبار بنيتيه الروحية والجسدية، والعلاقة القائمة بينهما يتضمن معاني ونكاتًا لا تستوعبها الكتب.

وعليه فإن فهم الإسلام بهويته الأصلية ورحابته وشموليته الصحيحة وتطبيقه وتبليغه إنما يتحقَّقُ باستخدام أجزاءِ هذه الآليّة كلٌّ في مكانه دون إهمالٍ لأيٍّ منها على الإطلاق. أجل، ينبغي استخدام العقل والوجدان والروح والجسد كلٌّ لما خُلِقَ له، وفي الاتجاه الذي أُوجِدت من أجله؛ لأن الإنسان لا يمكنُهُ أن يؤدّي حقَّ الأداء ما كُلِّف به من وظيفة ومهمّة إنْ أهمل أيَّ واحد منها.

مفتاح القلوب السحري: معرفة حال المخاطبين

سؤال: إنّ مهاجري الغاية المنشودة المنفتحين على كلِّ أنحاء العالم المندفعين بفكرة المحبة والحوار لَيلتقون مع بيئاتٍ ثقافية متنوِّعة؛ فما هي الأمور التي ينبغي لهم الانتباه إليها في هذا الصدد؟

الجواب: إن الذين نذروا أنفسَهم من أجل تحقيق سعادة الإنسانية وسلامها يبذلون جهودًا طيبةً في هذا السبيل، وكي يتمكنوا من إبلاغ مخاطبيهم بمشاعرهم وأفكارهم في بساطة ويُسْرٍ ينبغي لهم بالدرجة الأولى أن يدرسوا جيّدًا الأماكن التي يذهبون إليها، ويستقرئوا ويتعرّفوا على شعوب تلك المناطق وبيئتهم الثقافية... وهذه وظيفةٌ مهمّة تعدِلُ في أهمِّيَّتِها قدسيةَ الفكرة التي يُمثِّلونها؛ لأنَّ رجلَ الغاية المنشودة يَسْهُل عليه أن ينقلَ الإلهامات الخاصة بروحه إلى الناس فيما حوله بقدر تمكُّنه من معرفةِ البيئةِ التي يعيشون فيها.

ومما يُؤسَفُ له أنَّ بعضَ الناس في عصرِنا يتسبَّبون في وقوعِ مجموعةٍ من الارتكاساتِ وردودِ الفعلِ السلبية المختلفة بسبب بعضِ الأخطاءِ الأسلوبيّةِ التي يقعُون فيها بالرغم من زعمِهم التمسُّكَ بالقرآن الكريم والسنَّة النبويّة المطهَّرة والاقتداءَ بأعظم وُرَّاثٍ للدعوةِ النبويّة؛ فيؤدُّون بذلك إلى تشكيل جبهات معادية للإسلام ومناهضة

له، فكَما قد يُصاب الإنسانُ بالغثيان بسبب بعض الأخطاء الأسلوبية التي تحدث عند تقديم حتى أشـهى أنواع الطعام، فكذلك الأمرُ هنا. أجل، لا ريب في سـلامة الحقائق الخاصة بالوحي والدينِ من شـتى أنـواعِ السـوء والقُبحِ، وحاشـاها أن تحتـوي على ما يُثيـرُ الغثيان أو يدعو للاشمئزاز، بل العكس؛ إن كلَّ نظام ودستورٍ قرآنيّ هو من عند الله يقينًا، وليس في هذا أيُّ جانبٍ تضليليٍّ أو يثيرُ الشـكَّ والريبةَ في أذهان الناس، وكذلك الشـأنُ بالنسبة لِكَلامِ سيّدِ الأنبياء ﷺ الذي هو شرحٌ وبيانٌ لكلّ واحدٍ من الأسسِ القرآنية، والتصرُّفاتُ والسلوكياتُ التي أتى بها السـلف الصالح تمثيلًا لذلـك إنما هي في غايةِ العَظَمَةِ والتكامـل، غيـر أن تقديـم هذه الأسـس المتكاملة بـكلِّ جوانبها قد يتسـبَّبُ فـي ردودِ فعـلٍ خطيرةٍ جدًّا ما لـم يَعرف القائـمُ على الأمر حالَ المخاطبين الذين يوجِّهُ إليهم هذه الأسَس ولم يتفهّم مشاعرهم وأحاسيسهم بشكلٍ كاملٍ ويضـع نفسَه مكانهم.

أجل، إن صحة الحقائق القرآنية أمرٌ مُسَـلَّمٌ به، ولا شـكَّ في أنه رسـالةٌ إلهيّةٌ نزلت من السـماء، غير أنَّه يلزم أن يُوضـع في الحُسـبان جيّـدًا إن كانـت البيئـة والثقافـة التي نشـأ فيهـا المعنيُّـون بالخطاب وأحوالُهـم وأطوارُهم ملائمةً لقبول تلك الحقائقِ السـماويّة وفهمِها أم لا؟ وينبغـي ألا يُنسـى أبـدًا أنَّ "الدواء بحسـب الـداء"، وكما قال فضيلة الأسـتاذ بديـع الزمان فإنه: "عليك أن تقـول الحقَّ في كلّ ما تقولُ ولكن ليس لك أن تُذيـع كلَّ ما هو حق، وعليك أن تَصْدُقَ في كلِّ ما تتكلمه ولكن ليس صوابًا أن تعلن كلَّ حقيقة"[٥٧]، فقد يحدث

(٥٧) بديع الزمان سعيد النورسي: **المكتوبات**، المكتوب الثاني والعشرون، الدستور الثاني، ص ٣٢٣.

أن يفهـمَ أهلُ تلك المنطقةِ الجديدةِ الحقائقَ السـاميةَ العظيمةَ -التي تُقـدِّم تمثيلًا للديـن- فهمًا خاطئًا ارتباطًا بالبيئة والثقافة التي نشـؤوا وتربَّـوا فيهـا، وقد يشـعرون بـأنَّ كلَّ واحدة منها بمثابـة مطرقةٍ تنزل على هاماتهم.

والواقـع أنَّ هذا الوضـع سـارٍ بالنسـبة لبني جِلْدتنـا نحن أيضًا، وليس قاصرًا على سـكان البلاد المقصودة الـمَزُورَةِ فحسب، ولستُ علـى قناعـةٍ بـأنَّ الذيـن اجتمعوا حـول أمرٍ معقـولٍ قـد عَرَفَهم حقَّ المعرفـة حتـى بَنُو وطنهم أنفسـهم، فضلًا عن الذيـن لا يرغبون في التعرُّف عليهم أو لا يَسمح لهم وضعُهم بهذا، لأن هؤلاء لا يُبصرون أساسًـا، ويعيشـون حالةً مـن "عمى البصيرة" بسـبب بعدهـم عنهم، ولكنني -في الوقتِ نفسِه- على قناعة بأنَّ مَنْ يقفون معهم في نفس الصـفِّ ويُصَلُّـون معهم جنبًـا إلى جنبٍ ويسـجدون معهم في نفس الموضـع؛ لم يعرفوهم معرفة كافية؛ فَتَرَاهم يتصرَّفون أحيانًا وكأنهم لم يروا قَطُّ الكثيرَ من أوجُهِ البرِّ والخير التي تحقَّقَت، ولم يقرؤوا ما كُتِبَ حولها، ولم يسـمعوا القصصَ التي تُسْـرَدُ بشـأنها، ولم يُحَلِّلوا خلفيـة هـذه الأعمـال فيحصلوا منها علـى نتيجة، وإننـي على قناعة بضـرورة أن يَطَّلِع بنو جلدتنا اطِّلاعًا كافيًا على هذه الأعمال الخيرة النافعـة فـي فترةٍ صارت فيها تلك الأعمال حديـثَ الناس في العالم وبدأت تجمع بين مختلفِ الشـعوب والأمـم، وبينما يتمُّ إنجازُ هذا يجـبُ توخِّي الحَذَرِ من إيذاءِ النـاسِ وإيلامِهم وإرهابهم وإبعادهم، ومـن الوقوعِ فـي داء "الأَنَانية الجماعيّة" قائليـن "خدماتنا، وحركتنا، وأنشِـطَتنا"، كمـا يلزم الحرصُ والتأكيدُ على النقاط المشـتركة تمامًا كمـا هي الأفكار والمشـاعر التي تُعاش عند الذهاب إلى المسـجد،

ولا بدَّ من تبادُلِ الجماليّات المشتركة، حيث إن البشر على مختلفِ مستوياتِهم في الفهم والأفكار يذهبون إلى الجامع مفعمين ببهجةٍ عظيمةٍ، ويصطفُّون خلفَ الإمام، ويعلِنون عبوديتهم لله ﷻ في تسليمٍ وخضوع.

بعضُ المعايير المطلوبة في التعرف على الإنسان

قد يسألُ سائلٌ عن المعيار والقسطاس في "معرفة المخاطب والتعرف عليه"، وهذا الأمر يلعبُ دورًا كبيرًا ومهمًّا في توحيد القلوب مع الحقّ والحقيقةِ، وللجواب عنه نقول: إن ثمة واقعة تُروى عن سيدنا عمر رضي الله عنه من شأنه أن يوضِّحَ لنا وجهةَ نظرٍ معيّنة ومهمّة في معرفة الإنسان والتعرف عليه:

شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: إِنِّي لَسْتُ أَعْرِفُكَ وَلَا يَضُرُّكَ أَنْ لَا أَعْرِفَكَ فَائْتِنِي بِمَنْ يَعْرِفُكَ.

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَنَا أَعْرِفُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

قَالَ: بِأَيِّ شَيْءٍ تَعْرِفُهُ؟

قَالَ: بِالْعَدَالَةِ وَالْفَضْلِ.

قَالَ عُمَرُ: هُوَ جَارُكَ الْأَدْنَى تَعْرِفُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ وَمَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ؟

قَالَ: لَا.

قَالَ: فَمُعَامِلُكَ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ اللَّذَيْنِ يُسْتَدَلُّ بهمَا عَلَى الْوَرَعِ؟

قَالَ: لَا.

قَالَ: فَصَاحِبُكَ فِي السَّفَرِ الَّذِي يُسْتَدَلُّ به عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ؟

قَالَ: لَا.

قَالَ عُمَرُ: فَلَسْتَ تَعْرِفُهُ، ثُمَّ قَالَ لِلرَّجُلِ: ائْتِنِي بِمَنْ يَعْرِفُكَ"[٥٨].

وكما يتَّضح من هذه الواقعة فإنه ينبغي لأيِّ إنسانٍ كي يُقِرَّ بمعرفته شخصًا آخر أن يَعلَمَ عنه بضعةَ أمورٍ، نذكر منها.

أوّلًا: معرفة ما يشتغل به نهارًا ذلك الشخص المقصود، وكيف يقضي ليله، وهلْ يتحرَّق محاسبًا نفسَه يوميًّا على ما فعله من أعمال أم لا؟ والاطلاع بقدر الإمكان إن كان يَئِنُّ ويتألَّمُ مستغفرًا الله تعالى ألفَ مرَّةٍ يوميًّا حتى في مواجهة أمورٍ ليست في نفسها "سلبية"، إنما يُخيَّلُ إليه أنَّها سلبية.

ثانيًا: يجب السفر مع ذلك الشخص، وتحمّل مشقَّة هذا السفر سويًّا، ومن ذلك السفرُ معًا إلى أماكن شتى من العالم في سبيل غاية سامية، وتحمُّلُ مشقّاتِ الحجّ في هذا الإطار، لأنه يمكن الاطِّلاع في ظلِّ أسفارٍ كهذه على حالة الناس من حيث مدى تصرّفهم بحلمٍ ورويّة أو عدم تحملهم المشاق وسيطرة الغضب عليهم، وفقدهم اتزانهم ووقوعهم في مجموعة من الضغوط أو محافظتهم على ثباتهم وقوتهم، وإلا فإنه يتعذَّر الإقرار بمعرفة أولئك الأشخاص معرفةً كافيةً دون التصدِّي سويًّا إلى تلك المشاقّ والصِّعابِ المُشارِ إليها.

ثالثًا: إن التبادلَ والتعاملَ في التجارةِ والأموالِ فحسب هو ما يُظْهِرُ أفكارَ الناس وآراءَهم الإيجابيّة أو السلبيّة فيما يتعلَّقُ بإحقاقِ

(٥٨) البيهقي: **معرفة السنن والآثار**، ١٤/٢٣٧؛ **السنن الصغرى**: ٤/١٣٤.

الحـقِّ ومدى حساسـيّتهم ودقّتهم البالغة فـي مراعاة هذا الأمر، ولذا فإنه يتعذَّرُ التعرُّفُ على مدى حساسيّة الناس ودقّتهم في هذا الصدد مـا لم نُتاجِر معهـم بهذا المعنى، وهو ما يعني عـدم معرفتهم بالقدر الكافي.

وبالإضافة إلى ما سـردناه آنفًا من أمورٍ للتعرُّف على أيّ إنسـان فإنـه يُمكنُنـا أن نذكـرَ أيضًا مسـألة التعايُشِ وتقاسُـمِ آلامِ الحياة في الأماكـن المغلقَةِ كالسـجونِ؛ حيث إن بيئةَ السـجنِ ومناخَه مِن أكثرِ الأماكـن التـي يُـرى فيها بجـلاءٍ ووضوحٍ كيـفَ يتناقـشُ الناس مـع بعضهـم حتى في أبسـط المسـائل، وكيف أنّ أرزَنَ النـاس وأعقَلَهُم يقـع فريسـةً للضغـوطِ والتأثيرات وكأنه يُصاب بالشـلل في مواجهة التصرُّفـات الصادرة تجاهه، ويَعرِفُ هـذا جيّدًا من جرَّبَ العيش في تلك البيئة.

وإذا انتفت المعايير الآنفة الذِّكْرِ فإن ادِّعاءَ معرفةِ الناس هو -في أقـلِّ ما يمكن أن يوصَـفَ به- نوعٌ من التصريـحِ المخالِفِ للواقـع، لأن معرفـةَ النـاسِ وإصـدارَ الأحكامِ بشـأنهم يُمْكِـنُ أن تتحقَّقَ في إطار المبادئ والقواعد المسـرودة أعلاه، لا بمجرَّدِ الكلامِ فحسـب، وعليه فإن مراعاة أمثالِ هذه المبادئ تمنَحُ الخبرةَ في كيفيّة التصرُّفِ تجـاه هـؤلاء الناس، وفيما قـد يُثير حفيظتَهـم ويُغضبُهم من الكلام، وفيما من شـأنهِ أن يكسِـبَ مشاعرهم ويرُوقَهم من السلوكيّات، وإلَّا فقد يُبغَّض الناسُ دون وعيٍ أو شـعور حتى في الموائد الإلهيّة أثناء تقديمها إليهم، وقد يُدفعون إلى الشعور بالنفور وعدم التعاطفِ تجاه تلك القِيَمِ والعياذُ بالله.

التدرّج في التبليغ مع بذلِ قصارى الجهدِ

تتطلَّبُ مسألةُ جعلِ الأسسِ الدينيّةِ روحًا للحياة جهدًا وتضحيةً فدائيّةً بقدرِ ما بذَلَهُ سيّدُ الأنبياء رسول الله ﷺ من جهدٍ وسعيٍ ليلَ نهار استجابةً ووفاءً لأمر الله في قوله تعالى: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ**﴾ (سورة الْحِجْرِ: ١٥/٩٤)، غير أنه عند تحديث الآخرينَ بتلك الحقائق ينبغي التحرُّكُ على نحوٍ يتناسبُ ويتوافقُ مع التدَرُّجِ في نزول القرآن الكريم، ولذلك فإنه تلزمُ معرفةُ ما سيُقالُ ولِمَنْ؟ وأينَ؟ وكم؟ وكيف؟؛ عَبْرَ تطويرِ مبادئَ واضحةٍ محورُها التأمُّلُ والتدبُّرُ والتذكُّر الدائم فيما يتعلَّقُ بالموضوعِ، ولا بدَّ من التَّحَرُّكِ وفقًا لذلك، ومن هذه الناحية أُريدُ أن أُذَكِّرَ مجدَّدًا بأنَّ معرفة البيئةِ ومعرفة مَنْ نخاطِبُ وظيفةٌ مهمّةٌ تعدلُ في الأهمِّيَّة قدسيَّةَ الرسالة التي تُمثِّلها، لأن بثَّ إلهاماتنا الروحيّة في صدورهم سيكون أمرًا سهلًا بقدرِ معرفتِنا إيَّاهم، وفي حال حدث العكس فإنه يجب علينا ألَّا ننسى أبدًا أنَّ الناس قد يُؤذَون نفسيًّا، وتُثارُ فيهم مشاعر العداء والبغضاء ضدَّ الحقائق السماوية والقِيَمِ السامية.

فما أَمَرَّهَا من خطيئةٍ أن يُصبِحَ الناس أعداءً لله ورسولهِ بسببِ عدمِ الانتباهِ إلى الأسلوبِ وعدم الحذر عند تحديث الناس عنهما بقصدِ التحبيبِ فيهما! وما أحزنه وأفجعه من موقفٍ إحداثُ جروحٍ لا تندمل في أذهانِ الناس حديثي العهد بالدين والإيمان بسبب تحديثهم أوَّلًا عن جهنّم وعذابها، ومن ثم إبعادهم عن الدين والتديُّن بهذه الطريقة وتنفيرهم بحيث يتعذَّرُ استرضاء قلوبهم مرة أخرى!

اللهـم لا تؤاخذنـا بمـن آذيناهم ونفَّرْناهم بسـببِ خطإٍ أسـلوبِنا ونحنُ نتحدَّثُ عنك جلَّ جلالُكَ، وعن الحقِّ والحقائق، اللهم اعفُ عنَّا، واغفر لنا! آمين.

قوة الإيمان المنيعة

سـؤال: مـا هـي أكبـر العوائق التي قـد يواجهها مـن يرغبون في إيصال إلهامات أرواحهم وتبليغِ جماليّات القِيَمِ التي يؤمنون بها إلى قلوبِ الآخرين؟

الجـواب: إن أكبرَ عناصرِ الامتحانِ بالنسـبةِ لِلْبَشَـرِ هي الرغبات والأهـواء الدنيوية، وقـد ارتُكِبَ كمٌّ هائلٌ من المظالم ووقعَت حِزْمةٌ من الأزمات في المجتمعات التي تُطَوِّقُ هذه العناصرُ مشاعرَ أفرادِها وأفكارهـم، وتُخيِّـمُ عليها وتطغى، وتعرَّض العديـدُ من رجال الحقِّ والحقيقـة وفـي مقدِّمتهـم الأنبياء عليهم السلام لاعتـداءاتٍ وهجماتٍ قاسـيةٍ جاحدةٍ، ولشـتّى أنواع الإهانات والافتراءات، بل وحتى لِمحاولات القتلِ وللمذابحِ أيضًا، كما أنَّ أوَّلَ حادثةٍ تكوي القلوب والأكباد قد وقعـت في بيت سـيدنا آدم عليه السلام الـذي تنزَّلَ عليه الوحـي زخًّا زخًّا، ومـع أن قابيل نشـأ فـي مناخٍ كهذا إلا أنه قتلَ أخـاه هابيل كي يَصِلَ إلـى شـهواته الدنيويّة الفانيـة، قال تعالـى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَـأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ**

قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۞ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۞ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۞ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٥/٢٧-٣٠)، وهكذا بدأَتْ أَوَّلُ جريمةٍ بإغواء الشيطان للإنسان، وتتابعَ على إثرها الكثيرُ من حوادثِ الإغواء والانخداع، ولـمَّا تنتهِ بَعْدُ.

وكما ورد في أحَدِ الكتبِ المقدَّسَةِ؛ فإن سيدنا داود عليه السلام الذي أرسَلَهُ الله إلى بني إسرائيل ليُنقِذَهم من الاضطهاد والذُّلِّ وليقودَهم إلى العِزَّةِ والرِّفْعَةِ قد تعرَّضَ على أَلْسِنَةِ قومه لافتراءاتٍ لا يُتَّهَمُ بها ولو حتى الأفراد العاديّون مثل تهمة الزنا والقتل، -حاشا وكلّا أن يقعَ منه ذلك عليه السلام- واضطره قومُه إلى الحلفِ بالله على التابوت، محاولين التضييقَ عليه وإلجاءه إلى ما لا يرغبُ في فِعْله.

أما سيِّدُنا رسولُ الله مفخرة الإنسانية ﷺ فقد تعرَّضَ للعديد من الاتهامات على أيدي أعدائه؛ فَرَمَوهُ بأنه -حاشا وكلَّا ألف مَرّة ومَرّة- ساحرٌ مرّةً، قال تعالى: ﴿**أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ**﴾ (سورة يُونُسَ: ١٠/٢)، ومرّة أخرى بأنه شاعر، قال تعالى: ﴿**بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: ٢١/٥)، ومرّة أخرى بأنه كاهن، قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿**وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ**﴾ (سورة الْحَاقَّةِ: ٦٩/٤٢)، وبذلوا جهدهم كي يمنعوا الحقائق التي سيُبَلِّغها عن ربه تعالى من أن تدخلَ في القلوبِ فتُنِيرَها.

"أَذْهَبْتُمْ طيباتكم في حياتكم الدنيا!"

وقد تقعُ حوادث كهذه في يومنا هذا أيضًا، ومن المُؤكَّدِ أنّها لن تتوقَّفَ لاحِقًا، والمهمّ هو ألا نفعلَ مثلما فعلَ بعضُ الشعراء حينما خلَّدوها كملاحمَ للأحزانِ والهمومِ، ونقلوها إلى الأجيال اللاحقةِ كرسائل شكوى. أجل، إن المهمّ ههنا هو أن يتقبَّلَ الإنسانُ برضًا تامٍّ كلَّ هذه الملِمَّات التي تحلُّ به، وألَّا يتشكَّى منها إلى الناس، وأن يتحيَّنَ الفُرَصَ وأوقاتَ العزلةِ فيلجَأَ إلى الله تعالى ويبثّ إليه ﷻ ما يعتمِلُ في صدره، بيدَ أنه ينبغي له وهو يفعلُ ذلك ألا يُسمِعَ أحدًا صَرْخَتَهُ وصيحتَهُ؛ فاللهُ ﷻ ولا أحدَ سواه هو المالكُ الحقيقي للزمانِ والمكان، والحكمُ حكمُهُ، ومِنْ ثَمَّ فليسَ مِنْ شأنِنا التدخُّلُ في النتائِجِ، وعلينا أن نحترمَ أحكامه تعالى بشأننا ونقدرها حقَّ قدرِها، ونمضي قدمًا في طريقِنا متمثِّلين قولَ الشاعر التركي إبراهيم تَنُّوري:

ما أعذب البلاء إن كان من جلالِهْ!

وما أحلى الوفاء إن كان من جمالِهْ!

فكلاهما صفاءٌ للروح

فما أحلى لطفه! وما أعذب قهره!

فقد يأتي الجفاءُ من الجلالِ حينًا، والصفاءُ من الجمالِ حينًا آخر، ولا بدَّ من التسويةِ بينهما هما الاثنين؛ فلا يُفرَحُ بالصفاءِ، ولا يُستاءُ من الجفاءِ، ولنتَرَفَّعْ عن مثلِ قولِ: أَلِأَنني فعلتُ كذا وكذا أصابني ما أصابني؟ لماذا تحُلّ بي أنا دائمًا هذه الآلام والأزمات والشائعات والأحقاد والمظالم؟! وما أجملها في هذا الموضوع من كلماتٍ أبيات الشيخ "محمد لطفي أفندي" التي تَبُزُّ بِحُسنِها بريقَ اللؤلؤِ والمرجان:

يقول عاشق الحقّ عن مُرهَفِ الحِسّ:

لا تـمتعض ممّن يؤذي

فمن امتعض من الأذى

قلّتْ درجتُه عن المؤذي

أجل، إن كنتم تتشوَّفون إلى الكمال في الآخرة فَحَذَارِ أن تطلبوه هنا من الأشياء الدنيويّة؛ فما طلبُ ذلك من الدنيا إلا علامةٌ على النقصِ؛ وإن انتظارَ أمورٍ دنيويّة مثل تصفيق الناس وتقديرهم ليس إلا استثمارًا خاسِرًا وزائفًا بالنسبة للآخرة، وقد حذَّرَنا القرآن الكريم من هذا فقال ﷻ فيه: ﴿**أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا**﴾ (سورة الأَحْقَافِ: ٢٠/٤٦)، ولذا فحريٌّ بنا أنْ نُرجِئ إلى الدار الآخرة طلبَ كلِّ ما سيمُنُّ به الحقُّ تعالى علينا من أنواع اللُّطْفِ والنعيم، وألا نستَنْفِدَ ههنا في دار الفناء هذه كلَّ الخيرات والهِبات التي وُعِدنا بالحصول عليها في الآخرة.

وثمة قصة مُعَبِّرَة تُحكى فيما يتعلقُ بهذا الموضوع؛ إذ حُكيَ أنَّ زوجةَ أحد عباد الله الصالحين اشتكت إلى زوجِها صَلَفَ العيش وضيقه، وطلبت إليه أن يدعو الله كي يخلصهم من هذا الحال؛ فلم يكسر الرجل الصالح بخاطر زوجه وراح يدعو الله؛ فاستجاب الله دعاءه؛ فما برِحا مكانهما إلا وقد ظَهَرَتْ إلى جوارهما لَبِنَةٌ من الذهب؛ فقال الرجل الصالح لزوجه: "ها هو ذا! إنها إحدى لَبِنَاتِ قصرِنا في الآخرة"، فقالت المرأةُ المباركة نادمةً على أن طَلَبَتْ من زَوجِها ما طَلَبَتْ: "رغمَ أنَّنا محتاجون حقًّا؛ لكنه وكَيلَا تضيعَ في هذه الدنيا الفانية جائزةٌ واحدةٌ سنحصلُ عليها بإذن الله في الآخرة

عالـمِ البقـاءِ، وكَيلا تنقصَ لبنةٌ مـن لَبِنَاتِ قصرِنا في الجنّة؛ أسـألُكَ أن تدعـوَ الله تعالـى ثانيـةً -كما دعوتَـهُ أوَّلًا- أن يَرُدَّ هـذه اللبنة إلى مكانهـا"؛ فدعا الرجل الصالح ربَّـهُ ثانيةً نزولًا منه على رغبةِ زوجته الصادقـةِ هـذهِ، فاختفَـتْ تلـك اللَّبِنَـةُ فجـأةً عـن الأنظـارِ، وعادت من حيثُ أَتَتْ.

أجل، إن القوَّةَ المنيعةَ لِمَنْ نَذَرُوا أنفسَهم للحقِّ، وتعلَّقَتْ قلوبُهم بغايةٍ سـاميةٍ واستهدفوا إعادة نجمِ مسـتقبلِ أمَّتهم إلى بَريقه ولَمَعَانه مـن جديـد؛ لَتَتَمَثَّلُ في أنْ يُباعِـدوا بينهم وبين الدنيـا، وأن يتحرّكوا بروحِ الاسـتغناءِ، ويقِفوا أنفسَهم على تحقيقِ سعادة الآخرين التامّة، وهـذا لا يمنـعُ مَنْ يعيشـون علـى التجـارة ويواصلـون حياتهم بما يكسـبون منها، ويدعمون خدمةَ الإيمان والقرآن مِنْ أن يطلبوا الدنيا كسـبًا شـريطةَ أن يهجروها قلبًا، غير أنه ينبغي لرجالِ الخدمة الذين يُمَثِّلون هذا العمل وقد نَذَرُوا أنفسَهم له أن يَثْبُتُوا في مواجهة الدنيا، وأن يتصرَّفُـوا باسـتغناءٍ دائمًا؛ لأن اسـتغناءَهم هو أعظـمُ أَرْصِدَتِهم، وكلّما اسـتغنوا أكثر كلّما أصغى الناس وَوَثِقوا بهم ووافقوا مطمئنِّين لِكلِّ مسألة يُشارُ إليهم بها، ومن ثَمَّ يُؤَدُّون الوظائف والمهام الواجبةَ عليهم دون تردُّدٍ ولا شَكٍّ، ولو مثقال ذرّةٍ.

وبينمـا يجبُ أن يتحقَّقَ هذا ويحدثَ؛ إلا أنّ المؤسـف هو كثرةُ عددِ من مال إلى الدنيا بدعوى "أنه لا بأس في الاستفادة منها قليلًا" فـي أول الأمر، ثـم غاصَ وانخرط فيها حتى الأعماق؛ فانهزم أمامها بالرغم من أنهم حين انطلقوا في هذا السبيل كانوا متّحدين ويحملون روحَ التضحية والفداء؛ فكانوا كما قال الشيخ "محمد لطفي أفندي":

كم من شخصيّاتٍ عظيمة

وسلاطين ذوي وجوهٍ نورانيّةٍ

وملوكٍ وأباطرةٍ كـ"كسرى أنو شيروان"

ولّـوا وانهـاروا واحدًا تلـوَ الآخر، وغرقوا في بحـر الدم والقيح والصديد الذي نُطلِق عليه اسمَ الدنيا، وإن استسلامَ رجالِ الحقّ لمثل هذهِ الأفكار الشّـيطانيّة، وقولُهُم: "فلنكسـب نحـن أيضًا، ولتكن لنا منازلُنا وثرواتنا ولنعِشْ مثلهم..."؛ إنما يعني قضاءَهم على أرصِدتهم بأيديهم أنفسـهم لا بأيدي غيرهم، ومن ثم يقضي القَدَرُ بأن تُسْـلَبَ مـن أيديهـم النِّعَمُ التـي يملِكُونها، وأن تَنْزَلِقَ أقدامُهـم ويضلُّوا، فإن يحـدثْ خـلاف ما هو مرجوٌّ ومحمودٌ فإنّ الله ﷻ يذهبُ بِمَنْ تعفَّنوا وصاروا أجسادًا بلا روحٍ، ويأتي بدلًا منهم ﴿**بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٥/٥٤).

السبيل إلى إرغام المتكبرين

إن حِمايـة قيمةِ وشَـرَفِ التضحية والفدائيّـة وصيانةَ ذلك في كلِّ الأحـوالِ أمرٌ لا بُـدَّ عنه، وقد كان مفخرةُ الإنسـانيّة المُضحِّي الأول الذي يُمثِّلُ القمَّةَ في هذا الشـأن؛ حالُهُ في ذلك كحاله في غير ذلك من الأمور والمواضيـع؛ فقد ارتحلَ ﷺ إلى أُفُقِ روحه ودرعُهُ مرهونة عند يهودي من أجلِ إطعامِ أهله، فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: "تُوُفِّيَ رَسُولُ **الله** ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ، بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ"[٥٩].

ولـم يكـن سـيدنا أبو بكر رضي الله عنه مختلِفًا عن رسـول **الله** ﷺ أو متخلِّفًا عنه في هذا الأمر؛ فلما حضَرَتْهُ المنية أبلـغَ من حوله بأنه كانَ يُحاوِل

(٥٩) **صحيح البخاري**، الجهاد، ٨٩؛ **سنن الترمذي**، البيوع، ٧؛ **سنن ابن ماجه**، الرهون، ١.

طِيلـةَ حياتـه ألا يسـتهلك ما يزيدُ عن حاجته، وأنـه جمعَ ما زادَ عن حاجتـه ممّـا خُصِّـص له، فإذا هو مـاتَ فليَرجِـعْ به المسـلمون على بيـت المـال، فعَنْ أَنَـسٍ ﷺ قَالَ: "أَطَفْنَـا بِغُرْفَةِ أَبِي بَكْـرٍ الصِّدِّيقِ فِي مَرْضَته الَّتِي قُبِضَ فِيهَا، قَالَ: فَقُلْنَا: كَيْفَ أَصْبَحَ أَوْ كَيْفَ أَمْسَى خَلِيفَةُ رَسُـولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: فَاطَّلَـعَ عَلَيْنَا اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: أَلَسْـتُمْ تَرْضَوْنَ بِمَا أَصْنَـعُ؟ قُلْنَـا: بَلَى قَدْ رَضِينَا، قَالَ: وَكَانَتْ عَائِشَـةُ هِـيَ تُمَرِّضُهُ قَالَ: فَقَالَ: أَمَا إِنِّي قَدْ كُنْتُ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أُوَفِّرَ لِلْمُسْلِمِينَ فَيْئَهُمْ مَعَ أَنِّي قَـدْ أَصَبْـتُ مِـنَ اللَّحْـمِ وَاللَّبَـنِ، فَانْظُـرُوا إِذَا رَجَعْتُـمْ مِنِّـي فَانْظُرُوا مَا كَانَ عِنْدَنَا فَأَبْلِغُوهُ عُمَرَ، قَالَ: وَمَا كَانَ عِنْدَهُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، مَا كَانَ إِلَّا خَادِمٌ وَلَقْحَةٌ وَمِحْلَبٌ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عُمَرُ يُحْمَلُ إِلَيْهِ قَالَ: يَرْحَمُ اللهُ أَبَا بَكْرٍ، لَقَدْ أَتْعَبَ مَنْ بَعْدَهُ[٦٠].

وقـد أدَّى سـيِّدُنا عمـرُ ﷺ عملَه خليفةً للمسـلمين بنفـسِ الفهمِ والشـعورِ؛ فلم يتَّخِذْ له كرسـيًّا لِلعرش قطّ، بل جلسَ في المسـجد، وأدار شؤونَ الأمّة منه، ولـم يتعذّر بمقولةِ "التكبّر على المتكبّر صدقة" مـن أجل أن يحيا حيـاةً فارهةً تموج بالأبهـة والخيلاء، بالعكس من ذلـك لقد اسـتطاع -مع تواضعه- أن يُخضِـعَ لـه دول العالم آنذاك، ولـمّا ذهبَ لاسـتلام مفاتيحِ المسـجدِ الأقصى خـرجَ حكّامُ القدس وقتها لِلقائه ﷺ وقد ارتدوا الملابس المزخرفة المزركشـةَ، بينما كان هـو متواضعًـا لأقصى درجـة كما تبين من ملابسـه المرقعـة وتعاقبه علـى الدابـة مع خادمه، ولقد اشـتهرَ أنّه لما لقيَهُ أُمـراءُ الأجنادِ قَبْلَ أن يَصِـلَ إلـى بيتِ المقـدسِ قالوا: يا أمير المؤمنيـن إنك تقدم على

(٦٠) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، ٣/ ١٧٣.

أنـاس، وأنـت على هذه الحالة قميـصٌ مرقّعٌ، وعلى بعيـرٍ مرحّلٍ!! هـذا بـرذونٌ تركبه، -والبرذون ما بين الفـرس والبغل، وله تبخترٌ في المشـيِ- وهذا قميصٌ جديد تلبسُـه، فلما جـيءَ بالقميص وكان من الكتّان قال: ردّوا عليَّ قميصي واغسـلوه، فغسـلوا القميص المرقَّع، وجـيءَ بـه ولَبِسَـهُ، فلما قدَّمـوا إليه البـرذون رفضَه وأمَرَ بـردِّ بعيرِه، وكان رحاله من الليف، فدخل إلى بيت المقدس والدورُ لخادِمِه في الركـوب، فكان يقودُ البعيرَ وخادمه راكـبٌ، فلما قدمَ على دهاقِنَتِهم وقساوِسَتهم وأهلِ دينهم الذين عرفوا نعتَهُ عندهم قالوا: هذا الوصف الـذي نجده عندنا في كتبنا، وسـلموا إليه مفاتيـح بيت المقدس[٦١]، وكما يتَّضِـحُ تمامًا من هذه الحادثة فإن التواضـع والتفاني هو السبيل إلى إرغام متكبّري العصر أيضًا، فمثل هذا الحال والتصرُّفِ يسـحقُ أمامَهُ كلَّ أنواع الكِبْرِ والخيلاءِ ويدفنُها في أسفل سافلين. أجل، لقد كان هذا هو أسلوب سيدنا عمر ﷺ وديدَنُه طيلةَ حياته، فلم يُفَكِّرْ في أيِّ وقتٍ قطُّ أن يورِّثَ أبناءه ولا أحفاده شـيئًا، بل تركهم أمانة لفهم الصحابة الكرام ورعايتهم، وعلى هذه الحال انتقل إلى أفق روحه.

وقـد كان سـيدنا عثمـان ﷺ تاجـرًا يُعَـدُّ مـن أغنـى أغنيـاءِ مكة والمدينـة؛ وقـد "تـرك الدنيا قلبًـا لا كَسْـبًا"[٦٢]، حيث إنّـه لما دَعَت الحاجـةُ إلى تجهيزِ جيشِ العُسْـرَةِ الذي سـيتحرّكُ إلـى "تبوك" تبرّع ﷺ بثلاثمائـة بعيـرٍ بأحلاسـها وأقتابهـا دون أدنـى تبـرُّمٍ أو ضيـقٍ أو نـدمٍ علـى مـا فعل، تبرع بذلك لا لشـيء سـوى رضـا الله ﷻ[٦٣]،

(٦١) ذكره عطية سالم في شرح بلوغ المرام، ٨٦/٣.
(٦٢) بديع الزمان سعيد النورسي: **المثنوي النوري**، الحبة، ٢٣١.
(٦٣) **سنن الترمذي**، مناقب عثمان، ٢؛ الطبراني: **المعجم الكبير**، ٦٢٥/٥.

ولـو أنَّ مفخرةَ الإنسـانيّة ﷺ قال لـه: أَنفِقْ كلّ مالك؛ لَمَـا تَردد ألبتة ولأنفقه كلّه في سبيل الله على الفور.

وكانـت حيـاة سـيدنا علي رضي الله عنه تسـير على نفـس المنـوال أيضًا، فكان حاكمًا لرقعة جغرافية ربما كانت مسـاحتها تفوق مساحة تركيا اليوم بعشرين ضعفًا، وبالرغم من أن حدود الدولة التي كانت تحت حكمـه شـهدت بعض المنازعـات السياسـية إلا أنها كانت شاسـعة واسـعة متراميـة الأطراف لدرجةٍ تسـتطيع معها أن تسـتوعبَ أعظم إمبراطوريّتيـن قبلَ الإسـلام؛ فـارس والروم، ومـع ذلـك كان يلبسُ ثيابَ الشّـتاءِ في فصلِ الصيف وثياب الصيفِ في فصلِ الشـتاء، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، قَالَ: كَانَ أَبُو لَيْلَى يَسْـمُرُ مَعَ عَلِيٍّ، فَكَانَ يَلْبَسُ ثِيَابَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ، وَثِيَابَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ(٦٤).

هذا هو الإسلام الحقيقي، فأين نحن منه؟

واليـوم لا بد من سـؤال مـن يقضون حيواتهم بالسـياحة والتنقُّلِ من المصايف إلى المشاتي ويتشدَّقون قائلين: "نحن أيضًا نسير على نهـج هؤلاء الصحابة الكرام"، ومن يفكّرون كيف سـيكون مسـتقبل أولادهـم وأحفادهم وينشـغلون بذلـك، ومن يتصرّفـون وفقَ المثل الـكاذب القائـل "إن مال الدولة بحرٌ من لا يشـرب منه فهو أحمق"؛ لا بـدَّ مـن سُـؤالهم: "من هو قدوتكـم، من هو مثلكـم الأعلى؟" ألا يلزمهـم كمؤمنيـن أن يسـتحيوا مـن الله تعالـى ويبتعـدوا تمامًـا عن مثـل هـذه الأفكار التي لا تجـول إلا بعقول أمثال قارون ورمسـيس وآموفيس؟ إنني أسأل الله العظيم أن يوفق من نذروا أنفسهم للخدمة

(٦٤) سنن ابن ماجه، المقدمة، ١٥؛ مسند الإمام أحمد، ١٦٨/٢.

الإيمانيـة المثالية السـامية إلى الحفاظ على مشـاعر الحياء والخجل هـذه؛ فـلا يميلوا إلـى الدنيا، وألّا يُطـاحَ بهـم، وألّا تذهب ريحهم، وأرجو من الله لهم أن يصبروا ويحتسبوا قائلين: "إننا نعضُّ على ديننا بالنواجـذِ ونصبرُ، وحسـبنا ألا ينقـصَ من أَجْرِنا في الآخرة شـيء"، وعليهم أن يرضوا بالابتلاءِ والظلْمِ متمثِّلين قولَ "ضياء باشا" رحمه الله:

الجاهل يعيش في ترفٍ ونزهةٍ ورخاءٍ

والعارف يسبح في دوّامة المحن والبلاء

ولكـن حَذَارِ أن يغبطوا الآخرين على حياتهم الفارهة المطنطنة، ويجـدر بهـم، بل وينبغي لهـم أن يعتبروا الأشـياء الدنيويـة قذارات علقـت بأطـراف أقدامهـم، وعليهم أن يسـيروا بحماسـة إلـى الدار الآخرة، فإذا ما سُئِلُوا وهم ينتقلون إلى الدار الآخرة: "ماذا تركتم في الدنيا؟" أجابوا: "لا نتذكَّرُ شـيئًا"، لأن الاسـتغناءَ والتفانيَ والتواضـعَ هو أساسُ عملِنا، وتصرف رجال الغاية المثالية -الذين نذروا أنفسهم لإعادة تشـييدِ صَرحِ الأخلاقِ المتهدِّمِ- تصرفًا خلاف ذلك سـيؤدّي إلى خسارتهم اعتبارهم ومكانتهم لدى الحقِّ تعالى، كما أنه سَيُزَعْزِعُ مشـاعرَ وثقةَ الناسِ بهم، وإن من ضلّوا عن الحقِّ إلى الباطلِ، وعن الطريقِ المسـتقيمِ إلى الطريقِ المعوجِّ، وما أكثر أمثلتهم في التاريخ! ليتدحرجون ويفنَون كقارون -حفظنا الله-، حتى وإن أظهروا أنفسَهم بمظْهَرِ سيدنا هارون عليه السلام.

أجـل، ينبغـي لأرباب التضحيـة والتفاني ألّا يتخلّـوا عن مبدئهم هـذا حتى ولو تمَّ إغراؤهم بأعلى الرتبِ وأرفـع النياشـين، ولو حتى كانـت الرتبـة من قبيـلِ فاتح إسـطنبول مثلًا، أو فاتـح فيينا بل فاتح

رومـا، ولا بـد أن نُغادِرَ الدنيا كما جئناها صفرًا لا نملِكُ من حطامِها شيئًا، وكما رأينا في الأمثلةِ المذكورةِ أعلاه، ولْيرَ هذه الأمثلة ويعتبر بهـا مـن يراها، وليغـضّ الطرفَ عنها مـن يغضه؛ فمـن رأى وعرفَ وغرفَ وقدَّرَ فإنّ ذلك سيكون شفيعًا له في الآخرة، وأما من استخفَّ ولم يُقدِّر ولم يهتمّ فإنّ المطارقَ ستنهالُ على رأسه يوم الحساب.

"إنهم لا يخافون لومة لائم!"

يقول نائلي قديم:

سقطت الوردة بين الأشواك فدمى قلب العندليب

ونظرَ إلى الشوكة تارةً وإلى الوردة تارة وبكى العندليب.

إن الأمر كما قيل في البيت أعلاه؛ فكثيرةٌ هي الورودُ التي سقطت بين الأشواك، وكثيرةٌ هي البلابل التي أنَّت وبكت حزنًا عليها، واليوم أيضًـا حان الأنينُ والبكاء لِأبطال الغاية المثالية؛ فما أكثر الافتراءات المزعومـة والانتقـادات والاسـتهزاءات والسـخريات والمؤامـرات والحيل ضدهم... عليهم في مواجهة كل هذه الابتلاءات أن يتحركوا وهـم يتمثلـون موقفًا وقـورًا ثابتًا وفقَ المنطق الذي عبَّرَ عنه الشـاعر التركي "نفعي" قائلًا:

ما تنعّمنا بالدنيا وما ابتغينا شيئًا من أهلها

وما لجأنا إلا إلى الحضرة الإلهيّة

وما أعذب قول الشاعر الحكيم "سعدي" حينما قال:

إن أصاب حجرُ المقلاعِ -خطأً- سلطانيّةً ذهبيّةً

فلا ترتفعُ قيمةُ الحجر، ولا تنقص قيمة السلطانيّة

وعليه فليرموكم بالأحجار كما شاؤوا، ما دمتم كأسًا ذهبيًّا؛ فَبِإذن الله تعالى وعنايته لن يستطيع أحدٌ أن ينالَ منكم ولا أن يؤذيَكم، ولا سيما أن الله تعالى قال في القرآن الكريم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٥/٥٤)؛ فأرشدنا إلى التصرُّف والسلوك الذي يجب اتباعه في مثل هذه الحالات، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنه ينبغي اعتبارُ كلِّ ما يقعُ للإنسان من حوادثَ تتخطَّى الأسبابَ الظاهريّة امتحانًا وابتلاءً يؤدّي إلى التقرُّب من الحبيب ﷺ، ولا سيّما أن بطلَ هذا الأفق مهمومَ هذا العصرِ الأستاذَ النُّورسي قال: "وليكن كلُّ ما قاسَيتُهُ في غضونِ ثمانٍ وعشرين سنة من الأذى والمصائب حلالًا زلالًا، أما الذين ظلموني وجرجروني من مدينة إلى أخرى، والذين أرادوا أن يَصِمُوني بمختلف التُّهَمِ والإهانات، وأفردوا لي أماكن في الزنزانات فقد غفرتُ لهم ذلك وتنازلْتُ عن حقوقي تجاههم"(٦٥)، وعلى من يُدركون أنهم سالكو نفس الطريق أن يقولوا مثلما قال الشاعر "نسيمي":

أنا عاشقٌ لك ملوَّعٌ أيها الحبيب المحبوب

حتى وإن شققتَ قلبي بالخنجر فلن أتزحزحَ عن حبّك أو أؤوب

ولو وضع النجَّارُ منشارَه على رأسي مهدِّدًا

بل وإن شقّوني نصفين كزكريا مجدّدًا

وإن أحرقوا جسمي وذرُّوا رمادي

يا إلهي يا ستّارُ لن أتنازلَ عنك يا مرادي

---

(٦٥) بديع الزمان سعيد النورسي: **الملاحق**، لاحقة أميرداغ ٢، ص ٣٣٧-٣٣٨.

وعليهم أن يُكثِّفُوا كل همَّتهم ويُسَخِّروها في عملٍ ما يجب عمله دون أن يُلقُوا بالًا إلى الكلمات المبذولةِ، أو أن يشغلوا أذهانهم بها، وعليهم كذلك أن يسيروا ثابتين مرفوعي الرأس في السبيلِ الحقِّ الذي يعرفونه.

ولا يساورنَّكم شكٌّ في أن القلوب التي نذرت نفسها لخدمة الإيمان سوف تواصِلُ خدماتها في ظلِّ عناية الله ورعايته، ولن يُوقِفَ أو يُعَرقِلَ مسيرتها أحدٌ على الإطلاقِ طالما أنها استمرَّت في عملها وسيرها وقد أسلمت أمرها لله ودستورها في عملها:

لنرَ المولى ماذا سيُقدِّر
فالأجملُ كلُّ ما هو يُقَدِّر...

كل شيء منه ﷻ

سؤال: تقولون: كان من الحتمي اجتماع آلاف الوسائل كي يتحقَّقَ ما أُنجِزَ من خدمات حتى الآن، ولا قِبلَ لأحدٍ على الإطلاق أن يفعلَ هذا سوى الله تعالى خالق الأسباب ومالكها جميعها؛ وإن نسبةَ النجاح إلى النفس والذات فقط سلوكٌ غير عقلاني، فهل توضحون معنى ذلك؟

الجواب: بدايةً لا بدَّ من بيان أن مسألةَ تحقُّق النجاحات الملموسة بلطفِ الله مسببِ الأسباب وإحسانِه ﷻ ليست محصورةً بنا ولا حكرًا علينا وحدنا دون غيرِنا؛ وإنّما هي سنّة الله المتعاقبة على مدار التاريخ، ومن ذلك مثلًا أنَّ سيدنا نوحًا ﷺ بعد أن نجا من الطوفان بإذن الله تعالى وعنايته -كما هو وارد في كتب التفاسير- وَاصلَ تبليغ الناس بالحقِ والحقيقة في الفترة التالية لنجاته أيضًا؛ فأعتَقَ أمته من رِقِّ الحيوانية وخَلَّصَها من محبسِ البدنِ الضيق، ووجَّهَها إلى مرتبة حياة القلب والروح، وقد اتَّجَهَت هي كذلك إلى الله تعالى وحاولَتْ الوفاء بشروط العبوديةِ وواجباتِها، ومن ثَمَّ فإن مظاهرَ العنايةِ الإلهيّةِ تبدو بمجرَّد النظر إلى حياة سيدنا نوح ﷺ المليئة بالكفاح والنضال واضحةً وضوحَ الشمس، لأنه إن أُرجِعَ

الأمر إلى الأسـباب فحسـب يسـتحيلُ تفسـيرُ وفهمُ كيفيّةِ نجاتِه من الطوفـان وكيفيّـة تأثيره في الناس بعد ذلـك، ألا يُبيّنُ الله تعالى بقوله ﴿بِسْمِ اللّٰهِ مَجْرَاهَـا وَمُرْسَـاهَا﴾ (سـورة هُـودٍ: ٤١/١١) أنَّ سـفينةَ نوح عليه السلام تتحـرَّك وتَقِـفُ بعنايـة الله ورعايتـه؟! إذًا إنّها العناية الإلهيّة وليسـت الأسباب.

وعلى نفسِ الشاكلةِ أيضًا؛ فإنّه لمن العسيرِ بمكانٍ على الأسبابِ أن تُقنِعَنا بنجاة سيدنا موسى عليه السلام من ظلمِ فرعون، وأن تشرحَ لنا تِيهَ بني إسـرائيل في صحراء "التيه" أربعين سنة بعد خروجهم من مصر، وأن توضِّحَ لنا كيفيّةَ دخولهم تحتَ لواءِ سـيدنا يوشـع بن نون عليه السلام إلى أرض فلسطين بعد فترةٍ زمنيّةٍ معيّنةٍ؛ لأنه إذا ما نُظر إلى الأمر من زاوية الأسباب فإن مثل هذه الحادثة تتحقق بنسبة واحد في المليون.

الرعاية الإلهية والمؤامرات الفاشلة

إذا نظرْنـا إلى الحياة المباركة لمفخرة الإنسـانيّة ﷺ فإننا نُشـاهِدُ العنايـةَ والرعايـةَ الإلهيّة فيها بوضوحٍ وجلاءٍ تامَّين؛ لأن المشـركين كانـوا يَسـعَون دائمًـا إلـى تحطيـم آمالـه هـو والمسـلمين؛ إذ كانوا يترصَّدونهـم عند كلِّ ناصيـةٍ كالوحوشِ الكاسـرة فَيُهاجمونهم على حيـنِ غِرَّة، ويُذيقونهم شـتى أنواع الأذى، بما فـي ذلك القتلُ وإراقة الدماء، إلا أنَّ هذه الشخصية الخالدة عليها الصلاة والسلام لم تيأسْ قطُّ ولم تقنطْ؛ فكانت ذات حالةٍ روحيّة فريدة؛ كأني بالشاعر التركي "سليمان نظيف" حاول التعبير عنها قائلًا:

ما دامت روحي مفعمة بهذا الإيمان فإنها

تصبر ثلاثمائة، أربعمائة، بل وخمسمائة عام

وكما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّٰهُ وَاللّٰهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (سورة الأَنْفَالِ: ٨/٣٠)؛ فقد كان مشركو مكّة يُدبِّرون مكائد شتى للتخلص من سيد الأنبياء ﷺ، ولما حُوصر بيته ﷺ ولم تبقَ ثمَّةَ إمكانيّة للنجاة حسبَ قانون السبب والنتيجة، ولمّا سالت الدماء الزكيّةُ من رأسِه المباركة نتيجة لِشَجِّ خدِّه المبارك وانكسار سِنِّه الشريفة في غزوة أُحُد، كان يعيش نفس القَدَرِ المشترك مع غيره من الأنبياء.

إن العثور على مخرج في أيٍّ من هذه الحوادث لم يكن ممكنًا باعتبار الأسباب، لكنَّ الله ﷻ كان ينقذُ رسولَه الحبيب في كلِّ مرة بشكل معجزٍ، فلقد حمى الله نبيَّه وعصمَه من الناسِ واستلَّه من بين جحافلِ الكفرِ والفجورِ المحاصِرَةِ للبيتِ النبويّ كما تُستَلُّ الشعرةُ من العجين، ثمَّ يسَّرَ له اجتيازَ طريقٍ يزيدُ طولُهُ عن أربعمائة كيلومتر، ومكّنَهُ من قطعه دون أن يُمسِكَ به أحد، حتى إن سراقة بن مالك المدلجيّ الكناني الذي اقتصَّ أثَرَهُ من خلفه لِيُمسِك به خَابَ وزَلَّ فعاد أدراجَه، ووَجَّهَ قُفَاةَ أثرِ المصطفى ﷺ وقيَّافَةَ سَيره إلى جهةٍ أخرى تضليلًا لهم عن خطِّ سَيْرِ رسولِ الله ﷺ[٦٦].

والواقعُ أننا حين ننظر إلى الأمر بنظرةٍ متأنِّيةٍ يتبيَّن لنا أنه تتسنى مشاهدةُ مظاهر العناية الإلهيّة في حياة جميع المجاهدين في سبيل الله تعالى، ومن أمثالِ تلكَ القامات والشخصيّات العظيمة "طارق ابن زياد" و"عقبة بن نافع" رحمهما الله، فكما هو معلومٌ فَتَحَ عقبة بن نافع إفريقيا من أوَّلِها إلى آخرِها، وقد سارَ حتى بلغ شواطِئَ المحِيطِ،

(٦٦) انظر: **صحيح البخاري**، المناقب، ٢٥، ١٠٤؛ فضائل الأعمال، ٢، مناقب الآثار، ٤٥؛ **صحيح مسلم**، الزهد، ٧٥.

فقـال: "يَـا رَبِّ لَـوْلَا هَـذَا الْبَحْـرُ لَمَضَيْـتُ فِـي الْبِـلَادِ مُجَاهِـدًا فِـي سَـبِيلِكَ"(٦٧)، وحين ننظرُ إلى الحيـاة النموذجيّة لهؤلاء الأفاضِلِ يتبيّـن لنـا أن هذه النِّعَم التي وُهِبت لهم إنّما تحقَّقَتْ باجتماع العديد من الاحتمالات فقط.

ويجـدر بنـا أن نضيـف إلـى هـذه الأمثلـة أيضًـا ازدهـارُ الدولة العثمانيّـة، وفتـح إسـطنبول، وخدمـات مَنْ نـذروا أنفسـهم للدين، والتـي بَـدَأَتْ بالأسـتاذِ بديعِ الزمان ولا تزالُ مسـتمرَّة في يومنا هذا أيضًا، فمثلًا لم يكن ثمَّةَ احتمالٌ في بداية الأمر بأن يُحدِث الأسـتاذ انفتاحًا بهذا المسـتوى الذي تحقَّـق حاليًا؛ فقد وُضِـعَ تحت المراقبة الدائمـة، فـكان وكأنه يخضـع لمتابعـة حثيثةٍ، ونُفِيَ مـن هنا وهناك، إلا أنَّ أنـوار القـرآن والإيمـان التـي عرضها بإذن الله تعالـى وعنايته انتشـرت فـي كلِّ الأنحاء والأرجـاء بالرغم من كل هذه السـلبيات، فالأسـتاذ بديـع الزمان رجـلٌ من رجالات الأمـل، إذ كان يصدَحُ به حتـى فـي أحلك الظروف ويقول: "كونوا على أمل؛ إن أعظم صوت مدوّ في انقلابات المسـتقبل هو صوت الإسـلام الهادر"(٦٨)، ويبعث الأمـلَ فيمـن حولـه بقوله أيضًـا: "وأنا على يقينٍ بأنَّ مسـتقبل آسـيا بأرضِها وسـمائِها يستسلِمُ لِيَدِ الإسـلامِ البيضاء"(٦٩)، وحين نُفكِّرُ في ظروفِ ذلك العصر نرى أن كل هذه أمورٌ لا تتحقَّقُ في ظلِّ الظروف الطبيعيّـة، غيـر أنَّ هذه الخدمات قد تكون مظاهر لِبشـاراتٍ سِـيقَتْ في تلك الأيام.

(٦٧) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٢٠٦/٣.

(٦٨) بديع الزمان سعيد النورسي: **السيرة الذاتية**، ص ١٦٠-١٦١.

(٦٩) بديع الزمان سعيد النورسي: **الكلمات**، ص ٧٥٥؛ **الشعاعات**، ص ٧٣٩.

واحد في المليون

إن أبطـال التربية والتعليـم المتطوِّعين في عصرنا هذا أيضًا تلقّوا رسـالة جلال الدين الرومي: "لا تفقد شـمعةٌ أشعلت غيرَها شيئًا من نورها"، وهم ينفتحون على كلِّ أرجاء الدنيا بمصدر الضياء الذي في أيديهم، ويحظون بفضل الله تعالى وعنايته بحُسنِ القبول أينما حلّوا، والواقـعُ أن الخدمـات الحاليّـة يمكنُ أن تتحقَّقَ باجتمـاعِ مجموعةٍ مـن الشـروطِ والظـروفِ، مثلُها في ذلـك مثلُ تلـك الخدمات التي تحقَّقت في الفترات السـابقة، فإذا تحدثنا مثلًا عن أوَّلِ انفتاح تحقَّقَ في التسعينات من القرن المنصرِمِ في آسيا الوسطى نجدُ أنه في تلك الفترة التي تفكَّك فيها اتحادُ الدول بعدَ أن كان يُشكِّلُ إحدى القوى العظمى في العالم آنذاك؛ كان لا بدَّ من وجود مدرِّسين ومُرَبّين شبابًا يافعين يستطيعون الذهاب إلى تلك الأماكن تطوّعيًّا، وعلى الرغمِ من كلِّ الظـروف الصعبـة التي كانت تنتظرهم هناك كانت الرغبة والأمل تَحْدُوَانِهـم في الذهاب إلى تلـك الدول التي لا يعرفون مكانَها حتى علـى الخارطة، وكان لهؤلاء الشـباب من الرجالِ والنسـاءِ المتخرِّجِ معظمهـم حديثًـا أن يرغبـوا فـي البقاء ببلدهـم والخدمة فيهـا؛ فدَاءُ الصِّلَة (الحنين إلى الوطن) صعبٌ جدًّا؛ غير أنهم رغمَ حداثَةِ سـنّهم تجـاوزوا هذه المشـاعر وتغلّبـوا عليها، وذهبوا إلى بـلادٍ لا يعرفون عاداتها وتقاليدها، ولا حتى لغاتها دون أيِّ تردُّدٍ أو قلقٍ.

ويجـب ألا ننسـى أنَّـه كان لآبـاء وأمهـات هـؤلاء الذيـن نذروا أنفسـهم وهـم حديثو العهد بالتخرج من مدارسـهم بعـضُ الرغبات والأمنيـات التي يطمحون في أن تتحقـق، ولكن كيف أقنـع متطوّعو

التربيـة والتعليـم الذين نذروا حيواتهـم للإحياء آباءَهـم وأمهاتِهم!؟ -مـا أجمل ما أقنعوهـم به!!- وكيف رضي هـؤلاء الآباء والأمهات بذلـك، واسـتطاعوا مفارقـة أبنائهم!؟ إن هذه لَمسـألة أخـرى يطولُ الحديثُ حولَها، وفي نفس الوقت فإن ثمة قسمًا من هؤلاء الفدائيين الذين ذهبوا إلى دول شـتى اضطروا إلى مفارقة مخطوباتهم مدة من الزمـان والذهابِ إلى تلك البلاد، فـلا المفارِقُ ولا المُفَارَقُ رأى أن هـذا الشـوق والهجران يمنـع مـن الخدمات المنشـود أداؤها، وإنما أبانـوا عـن فدائيّة تبهرُ العيون وتبكيهـا قائلين: "هذا هو ما يلزم عمله والقيـام به الآن من أجل أُمَّتنا والإنسـانيّة جمعـاء"، وعندما نُفكِّرُ في كلِّ هـذه الأمـور مجتمعةً يبـدو اجتماعها وتحققهـا جميعًا في نفس الوقت وكأنه أمرٌ مستحيل الوقوع في إطار دائرة الأسباب.

فضـلًا عـن ذلك فإن الأسـباب اللازمة لهذه الفعاليـات الجميلة التـي تتحقَّـقُ لِصالِحِ الإنسـانيّة لا تقتصـرُ على هذا الأمر فحسـب؛ فَثَمَّـةَ حاجـةٌ إلى مُمَوِّلين فدائيِّين يؤمنون بصحّـة الخدمات التعليميّة وضرورتهـا، ومن الصعبِ إلى حدٍّ كبيرٍ العثورُ على هؤلاء المموِّلين وإقناعُهم بالأمرِ وطلب تكفُّلهم بالاحتياجات الماديّة لهذه الخدمات تطوُّعيًّـا، وهنـا أريـدُ أن أزيدَ الأمرَ توضيحًا عبـر الحديث عن حادثةٍ واقعيّةٍ حدَثَت معي شـخصيًّا؛ فقد كنتُ أزور سويًّا مـع رجلين ثَرِيَّين المصانـعَ في مدينة "إزمير" بحثًا عن دعمٍ للمعهد الإسـلامي العالي الذي سيُنْشَـأُ هناك، ونَطْلُبُ المسـاعدةَ من أصحاب تلك المصانـع، فكانا يصطحبانِني معهما كالواعظ كي يُبَيِّنُوا للناسِ مدى أهمّيّة المسألة ويقنعوهم بها بشـكلٍ أيسـر، وبعد أن تحدَّثْنا عن أهمية المسـألة في أحد مصانـع الطوب التي زرناها من أجل هذا المقصد والهدف أخرجَ

صاحب المصنع من جيبه خمسين ليرة على ما أذكرُ وأعطانا إيّاها، ولكم أن تُقدِّروا كم كان إنشاء المعهد الإسلامي العالي بهذه المبالغ البسيطة أمرًا صعبًا لدرجة المستحيل، وأمام هذا الموقف قرَّرْنا نحن والإخوة المعنيّين بالأَمْرِ في ختام جلسةٍ استشاريّة عقدناها فيما بيننا دعوةَ من يمكن دعوتهم مِنْ ذوي الإمكانيات والمقدرة المادّيّة إلى اجتماع وأن نستَنْهِضَ همَّتَهم قدرَ ما نستطيع، وعلى ما أتذكَّر لم يأتِ إلى الاجتماع من الأشخاص الذين دعوناهم إليه سوى عدد قليلٍ جدًّا ربما يشغل طاولةً واحدةً فحسب، ولقد قمتُ فيهم خطيبًا فتعهَّدَ الحاضرون ممن لبّوا الدعوة بأن يساهموا ماديًّا بمبالغ مختلفة مثل: مائة ألف ليرة، ومائة وخمسين ألف ليرة، وأربعين ألف ليرة، وثلاثين ألف ليرة، إلَّا أن أحد المدعوين قال وكأنه يفسد الأمر: "كل إنسان يعطي بقدر إيمانه بالمسألة، وإنني سأعطي ألفين وخمسمائة ليرة فحسب"، غير أنه شاء الله أن يأتي يوم شجَّعَ الناسُ بعضهم بعضًا على القيام بمثل هذه النوعية من الأعمال الخيريّة في شتى أنحاء الوطن، لدرجة أنهم كانوا إذا لم يُخبَروا بأيّ اجتماع تُرجى فيه مساعداتهم وهمَّتُهم يلومون قائلين: "لماذا لم أُدْعَ أنا إلى هذا الاجتماع؟!"، حتى إنني عندما انزويت بإحدى الغُرَفِ عقب كلمةٍ أَلْقَيتُها في أحدِ المجالِسِ التي عُقِدَت من أجل هذا المقصد عينه دخلَ عليَّ الغرفةَ ضابطُ صَفٍّ متقاعدٌ يحملُ مفاتيح في يده، وقال بتأثرٍ وحرقة: "لقد ساهم الجميع قبل قليل، أما أنا فليس لديَّ ما أقدمه، ولذلك فإنني أحضرت إليكم مفاتيح بيتي"، وبالطبع لم يكن ممكنًا أن أقبلَ عرضًا كهذا، فشكرتُه ورَدَدْتُ عرضه هذا بأسلوبٍ مناسِب.

وعندما وصلنا إلى أيام أول انفتاح لنا على الخارج في التسعينات من القرن المنصرم كانت هذه الروح قد تكونت في بني جلدتنا، ولذلك لم تكن القضية قضية المعلم والمربي فحسب، وما كان لهذه الفعاليات التربوية التعليميّة أن تتحقَّقَ على المستوى العالمي إلا باجتماع وتوفر العديد من العوامِلِ مثل رضا الوالدين، وملائمة الظروف والأوضاع في الأماكن والبلاد المقصودة، والدعم الماديّ من أهل الأناضول الأسخياء لمن سيذهبون إلى هناك، واجتماعُ كلّ هذه العناصر في آنٍ واحدٍ لا يُساوي في ميزان الحسابات إلا واحدًا في المليون، إذن يستحيل أن يعزوَ إنسانٌ إلى نفسه وذكائه وفطنته وكياستِه وعقلِه الألمعيّ ومنطقه ومحاكمتِه العقليّة مسألةً كهذه تتحقَّق باحتمالٍ يُمَثِّلُ واحدًا في المليون، فإنْ همَّ أن يفعلَ ذلك فقد ارتكبَ ظلمًا كبيرًا وأساءَ الأدب كثيرًا.

صاحبُ الفضلِ هو اللَّه ولا أحدَ سواه

الواقع أنَّ العقيدة والأخلاق الإسلاميّتين قد ركّزتا بحساسيّة شديدة على الإيمان بأنَّ كلَّ شيءٍ في كلِّ الأعمال الجميلة والنجاحات إنما هو من عند الله، وكمثالٍ على ذلك فلقد أقال الفاروقُ عمر ﵁ قائدَ الجيوشِ خالدَ بن الوليدِ بسبب فكرة كهذه؛ رغمَ أنّه كان يتولّى قيادةَ الجيش في معركةٍ غايةٍ في الحساسيّة كموقعة اليرموك؛ إذ إن قوات الأعداء كانت تفوقُ قوَّةَ المسلمين عدَدًا وعدَّةً بحوالي سبعة أو ثمانية أضعاف، إلا أن هذه المعركة كُلِّلت بإذن الله وتوفيقِه بالنصرِ المُؤَزَّرِ للمسلمين، فأنْهَتْ سيادةَ البيزنطيِّين على سوريّة وأضفت عليها السيادة الإسلاميّة، ولقد أبرزَ

القائدُ العسكريُّ أبو سليمان خالد بن الوليد دهاءَه العسكريّ آنذاك، فوضعَ إستراتيجيّاتٍ حربيّة في غاية الإحكامِ والروعة، وأبدى من الفتوّة والفروسيّة والشجاعةِ ما حازَ تقديرَ وإعجابَ الجميعِ، وبينما كانت مثل هذه الحرب الضروس دائرة أقالَ سيدنا عمرُ سيدَنا خالدًا رضي الله عنهما من قيادة الجيش، وحضر خالد رضي الله عنه أمام الخليفة وكلُّهُ تواضعٌ وامتثالٌ لأمرِ أميرِ المؤمنين، وهو الذي نزل على هامة الساسانيين والبيزنطيين كالمطرقة فقضى عليهما، وهو من قال عنه سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: "عجزت النساء أن ينسلن مِثْلَ خَالِدٍ!"(٧٠)، وكما قال أحد الغربيين: "إننا نرى القادة من أمثال "هانيبعل" يتسوَّلون على باب خالدٍ"، وهكذا وبالرغم من كونه قامة سامية تحظى بتقدير الجميع فقد صار جنديًّا عاديًّا بعد أن عُزِلَ من منصبِ قيادة الجيش، ولما وصل خالد إلى جوار عمر رضي الله عنهما -فداهما روحي ونفسي- قال له سيدنا عمر: "يا خالد، والله إنك عليَّ لَكريم، وإنك إليَّ لَحبيب"، ثمَّ تمثَّلَ قول الشاعر:

صَنَعْتَ فَلَمْ يَصْنَعْ كَصُنْعِكَ صَانِعٌ
وَمَا يَصْنَعُ الأَقْوَامُ فَاللهُ يَصْنَعُ

ثُمَّ كَتَبَ عُمَرُ إِلَى الأَمْصَارِ: "إِنِّي لَمْ أَعْزِلْ خَالِدًا عَنْ سَخْطَةٍ وَلا خِيَانَةٍ، وَلَكِنَّ النَّاسَ فُتِنُوا به، فَخِفْتُ أَنْ يوكلوا إِلَيْهِ وَيُبْتلُوا به، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ الصَّانِعُ، وَأَلا يَكُونُوا بِعَرَضِ فِتْنَةٍ"(٧١)، وأمام هذا الموقف تَمثّل سيدنا خالدُ بن الوليد رضي الله عنه عظمةً أخرى فوق ما يتَّصِفُ به من عظمةٍ تُحَيِّرُ العقول والألباب؛ فانصاع لأمر

(٧٠) الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، ٣/٣٥٩.
(٧١) المصدر السابق، ٤/٦٨.

أبـي عبيـدة بن الجـراح ﵁ الذي كان حتى ذاك اليـوم جنديًّا خاضعًا لإمرته هو، وناضل حتى آخر يوم في حياته كجندي وسـيفٍ مسلولٍ برّاقٍ من سيوف الجيش الإسلامي.

وخلاصـةُ القول: إنّـه لا احتماليّة ولا إمكانيّـة لتحقيقِ أيّ نجاح على أرضِ الواقـع ما لـم تحالِفْه قدرة الله تعالى وعنايته. أجل، إن كلَّ جمـال يتحقـق لا يكون إلا بإذن الله وعنايتـه ورعايته تعالى، ولأجل ذلك فإنه لا بدَّ من الإيمان بأن الأنشطة التي تحقَّقَتْ حتى اليوم إنما هـي مظهـرٌ من مظاهرِ رعايـةِ الحقّ تعالى، وتجلّيـات أخرى متعدّدة الأبعـاد من تجليات عنايته ولطفه سـبحانه، وفي الوقت نفسـه يجب أيضًا أن تثير مثل هذه المظاهر مشاعرنا فتدفعنا إلى شكر الله وحمده، فتتزايد بالشـكر كلُّ النِّعَمِ التي تحقَّقَتْ حتى اليوم وتسـتمرّ، وإلا فإن نَسَـبْنَا -معـاذ الله- تحقيقَ النجاحاتِ إلى أنفُسِـنا يَكِلُنـا الله إلى قوَّتِنا وإرادَتِنا الضعيفة، لأنَّنا قد خنَّا هذه الأمانة المباركة التي وصلت إلينا بواسـطة أيادٍ مخلصةٍ حقًّا، ذلك أنَّ الحقائق القرآنية يمكن أن تُخيّمَ علـى الكـون حقًّا عبر ارتباطِنـا الدائم بحقيقة التوحيـد، وإيمانِنا بأنه يسـتحيل ولو حتى لورقةِ شـجر أن تتحـرَّكَ دون أن تلفّها عنايتُه ﷻ، وعبرَ ديمومةِ التمسُّكِ والارتباطِ بهذا الاعتقاد.

الشيطان وأتباعه في كل عصر

سؤال: ما هي الرسائلُ الكامنة في الآيات التي تتحدُّث عن طغيانِ الشيطانِ وإضلالِه كقولِه تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّٰهِ﴾ (سورة النِّسَاءِ: ٤/١١٨-١١٩)؟

الجواب: لقد بَيّنَ الله عصيانَ الشيطان في مواضع متعددة من القرآن الكريم؛ ففي سورة الحجر مثلًا نجد الشيطان بسبب حسده الإنسان وبغضه إيّاه تحدث بوقاحة وصفاقة فـ**﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾** (سورة الْحِجْرِ: ١٥/٣٩)، وفي سورة "ص" **﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾** (سورة ص: ٣٨/٨٢)، وكذلك أيضًا فقد فصَّلَ القرآن الكريم موضوعَ هَذَيَانِ الشيطانِ الممتلِئِ حقدًا وكرهًا في قوله تعالى: **﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾** (سورة الأَعْرَافِ: ٧/١٦-١٧).

ولا تختلف تلك العبارات عن بعضها من حيث إنها تعبير عن ضلالٍ وانحرافٍ واحدٍ، فالشيطان أسيرُ الغيرة والحسدِ، وقد أسلمَ نفسه في ذات الوقت للحِقْدِ والكرهِ، وأعمَتْهُ تمامًا تلك المشاعرُ

القاتلة؛ فتدفَّقَتْ من فمه هذه الصنوفُ من الأباطيل وهو في حالةٍ من الهذيـان، ومن ثمَّ فإنـه تكلم وتحدث وتصرف نتيجة هذه المشـاعر السلبية المُسيطرة عليه رغم أنه يعرف الحقيقةَ جيدًا.

طاغوتٌ يسوقُ مجموعات من الطواغيت

والواقـع أنَّ تلك العبارات التي تلفَّظ بها الشيطان بوقاحة وصفاقة تجـاه الله تعالـى تُبيّـن أنَّه كان في السـابقِ ينطوي على مرضٍ نفسـيٍّ خطيـر، مـن الممكنِ أن يكون من قَبيلِ التشـوُّفِ إلى منصبٍ أو مقامٍ أو إلـى تقديـرٍ وتبجيلٍ، لأنهُ رُوِيَ عن بعض المحققين قولهم: إنه لم يبق مكان على وجه البسـيطة إلا وسـجد فيه الشيطان لله تعالى، وهو يعـرف الله كمـا يُفهم من قَسَـمه وحَلِفِه به ﷻ، غيـر أنَّ معرفته الله لم تفده شيئًا؛ لأنها معرفة بلا عملٍ، ونتيجة لذلك فقد تردَّى في مستنقـع الغيرة، ولـم يتقبل آدمَ عليه السلام، وانهزم أمام مشاعر الحسد.

والشيطان يهذي ويهرِف كلما رأى نجاحَ الإنسان وأداءه ونشاطه العاليَ في سبيل الله تعالى، وتشتد عداوته للإنسان حقدًا عليه فيصير واحدًا من ألدِّ أعداء الإنسـانية، وهو بهذا يقف وراء عصيان وضلال كل المجموعات العصيّة الضالّة، لأن الإنسـان المخلوق في "أحسن تقويـم" غيـرُ منفتحٍ باعتبار فطرته الأصلية علـى الدهماوية والجدلية وتشـويه الآخريـن والحسـد وما إلى ذلـك، وإن مَنْ يقعـون في مثل ذلك إنما يقعون فيه بِلَمْزِ الشيطان وغمزه حتى وإن كانوا يظنّون أنهم يسـتخدمون خلاياهم العصبية وعقولهم، أو يعتقدون أنَّ تلك الأمور السـلبية التـي يتفوّهون بها من نتـاجِ أدمغتهم أنفسـهم، أو يتوهَّمون أنهم هم منْ جعل بعضَ السلبيات أمرًا واقعًا.

وتذكر الآيات الكريمة أنَّ الشيطان سيلجأ إلى عِدَّةِ طرق ومسالك في محاولةٍ منه لإضلالِ الإنسان عن الصراطِ المستقيم حَسَدًا منه وحقدًا؛ فتأمر الآيةُ التالية المؤمنين بالتَّمَسُّك بالطريق المستقيم الذي بَيَّنَه الله تعالى وبعدمِ الابتعاد عنه قائلة: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**﴾ (سورة الأَنْعَامِ: ٦/١٥٣)، لأنَّ من ينحرف عن هذا الطريق المستقيم يضلّ في طرق شتّى، ويقع أسيرًا لهواه وشهوته؛ فيتخبط بين اتباع هذه الأيديولوجية وتلك، ويظنُّ أن تلك الأضواء الكاذبة تمنح الإنسانية السعادة والرفاه، ونتيجة لذلك فإنه يُفني عمره لهثًا وراء أيديولوجيات باطلة، في حين أن السبيل الأنسب لطبيعة الإنسان واحتياجاته والذي سيضمن السلم والطمأنينة للمجتمع إنما هو السبيل الذي حدده اللهُ خالقُ الإنسان وصاحبُ الرحمة والعلمِ المطلق، أما الشيطانُ المفسدُ البارع في الإفساد الذي يعلم هذا الأمر جيدًا فقد حاول وما زال يحاول إضلال الناس وإبعادهم عن هذا الطريق المستقيم مستخدمًا آلاتٍ ومزامير مختلفة بحسب ظروف الزمان واختلافِ الشخصيات.

حقدٌ دفينٌ

إن الشيطان حينما أرادَ أن يُعبِّرَ عمَّا ينوي فعلَه أنشأ عبارةً محلَّاةً بلامِ القَسَمِ ونونِ التوكيدِ فقال: ﴿**لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا**﴾، ولامُ القَسَم الواردة في أوَّل الفعل ونونُ التوكيد اللاحقة بآخره أيضًا تُبَيِّنان مدى إصرار الشيطان على إغواء الإنسان، أي وكأنَّه قال سأستعبد جزءًا منهم، وأُخضعهم لوصايتي، وأُؤثر عليهم دائمًا.. ويمكننا اليوم مشاهدة أمثلة وأنواع عديدة وكثيرة للغاية من هذا القَبيلِ.

وإثر ذلك أردف الشيطان مؤكِّدًا ما ينوي فعله ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾؛ أي إنّني لن أبرحَ حتى أُفسِد عليهم أفكارهم ومشاعرهم، وسأفعل كلَّ ما بوسعي كي أُضِلّهم عن السبيل؛ فأدفع بعضهم إلى البوهيمية[٧٢]، وأجعل بعضهم عبيدًا للسمعة والشهرة، وأُجنِّنُ البعضَ بجعلِهم يستميتون طمعًا في الحظوةِ والمستقبَلِ، وأُحرقُ البعضَ الآخرَ بمشاعر الجشع، وأَزُجُّ بفِئَةٍ في مستنقع الحسد، بينما أزجُّ بالأخرى في مستنقعِ الاستبدادِ والغطرسة وعدمِ الاعترافِ بحقِّ الغير في الحياة، فأجعلهم يُهرولون من ارتكاب ظلمٍ إلى آخر، وكل واحدة من هذه الأمور انحرافٌ قائم بذاته يسوق الإنسان إلى الضلال، ولذا فإننا ندعو الله ﷻ أربعين مرة على الأقل يوميًّا في صلواتنا الخمس كي لا نضل ولا نزيغ عن الطريق المستقيم فنقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (سورة الفَاتِحَةِ: ١/٦-٧).

الشيطانُ والدين المفرَّغُ من محتواه

ومن التهديدات التي يسوقها الشيطان حين يستشيط حقدًا وكرهًا قَسَمُهُ القائل: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾، ويطلق لفظ الأمنية على الأوهام والهواجس التي لا تستند إلى حقيقةٍ والتي يتعذر تحقيقها، وقد كان تفاؤُلُ أهل الجاهلية أو تشاؤُمهم من تلقاءِ أنفسهم استشفافًا من مجموعة من الأحداث، وتيمُّنُهم ببعض الأشياء وتبرُّكهم بها، وتطيُّرُهم بالبعض الآخر نوعًا من تلك الهواجس والأوهام، وكذلك فإن الأوثان التي عبدوها كانت من نتاجِ تلك الأمانيّ؛ فقد كانوا

(٧٢) البوهيمية: طريقة في الحياة تقوم على التسكُّع واللامبالاة بالوضع الاجتماعيّ أو المعيشيّ وعدم الاهتمام بالمصير والمستقبل.

يضعونَها حتى داخل الكعبة، واشتهرَت في أماكن شتى من الجزيرة العربية أصنامٌ شبيهة باللات ومناة والعزى وإساف ونائلة.. فكانوا يذبحون لها القرابين ويعبدونها، وفي وقتِنا الراهن هناك مَن يُسوِّقون النهبَ والسرقة والكذب والافتراء على أنها أمورٌ مشروعةٌ، ويظنون أنهم سيُحقِّقون مكسبًا ويَصِلُون إلى مكانةٍ ما بالمفاهيم الدينية التي أفرغوها من محتواها، وما فِعلُهم هذا إلا نتاجُ نوع آخر من الهواجس والأوهام أيضًا.

وفي بقية الآية الكريمة يقول الشيطان: ﴿**وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ**﴾؛ فكان من عادات أهل الجاهلية أنهم يشقُّون آذان بعض الحيوانات فتكون علامة عليها، ويُحرّمون على أنفسهم أكل لحومها، ويفعلون ذلك نسكًا في عبادة الأوثان، فيحرِّمون ما أحلّه الله سبحانه وتعالى.

أكبرُ تغييرٍ: الانحراف عن غاية الخلق

ويواصل الشيطان وقاحته وصفاقته قائلًا: ﴿**وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّٰهِ**﴾، فاللهُ تعالى خلق كلَّ الكائنات على فطرةٍ، يُعَدُّ إحداث أيّ تغيير فيها وقوعًا في حيلةٍ من حِيَلِ الشيطان، فالإنسانُ المخلوق في أحسن تقويم إذا تحرك في إطار النُّظُمِ والأسس والمنهجِ الذي وضعهُ الله تعالى يكون قد تحرَّكَ وفقًا للفطرة التي فُطِرَ عليها، وإلا فإنه يُسلِمُ نفسه للتَّشَتُّتِ والفُرقة، وينحرفُ عن جادَّةِ الفِطرة السليمة.

وإلى جانب تلك الأمور فإنه عندما يُنظر إلى الآية الكريمة من زاوية التفسيرات الحديثة يمكن استلهامُ إشارةٍ إلى عمليات التجميل التي شاعت اليوم؛ إذ إن عدم إعجاب الناس بشكل بعضِ الأعضاء من الجسدِ، وقيامَهم بتغييرها وفق أهوائهم شكلٌ آخر من أشكال

التدخُّل في الفطرة، وهي أيضًا وقائع تجري بهمز الشيطان وإغوائه، أمَّا علاج التشوُّهات التي تحدث في الجسد بسبب تلقِّي العلاجات الخاطئة أثناء عملية الولادة أو نتيجة حادثة ما وتحسينُها فإنه لا يندرجُ ضمن التدخُّلِ في الفطرة ومحاولة تغييرِها، بل على النقيضِ، إذ إنه يُقبَلُ ويُنظَرُ إليه على أنه إعادة الأمر إلى أصلِ فطرة الله تعالى.

والواقع أن مسألةَ "تغيير خلق الله" تعبيرٌ عام، ومجالَ انعكاساتها واسعٌ، وقد بيّن الله تعالى بقوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: ٥٦/٥١). لماذا خُلِق نوعُ بني الإنسان؟ فالآيةُ تجيب على هذا السؤال بأن الهدف الأساسي لوجود الإنسان هو عبادة الله تعالى؛ فقد خلق الله الإنسان ليعبده ﷻ، لا لشيء آخر، وهذا يعني أنَّ من لا يعبدون الله يسعون لتغيير فطرته وخلقه، ومثل هذا تمامًا كلُّ من العقل والمنطق والمحاكمة العقلية فإن لها مجموعة من الغايات والمقاصد التي خلقت من أجلها مثل التفكّر والتدبّر والتأمّل في الأنفس والآفاق، وتحليل الأوامر التكوينية، ومن يدقق هذه الأوامر التكوينية ويستخرج منها مجموعة من المعاني، ويؤلف بين تلك المعاني التي استخرجها والأوامر التشريعية، ويتوجه بعد أن يُحسِنَ قراءة الأسرار الخاصة بالربوبية نحو توحيد الألوهية والعبودية؛ يكون حينئذٍ قد استخدم عقله ومنطقَهُ في اتجاه الفطرة، وكما أن المخترعين الإسلاميين كانت لهم اختراعات مهمة للغاية نفعت الإنسانية جمعاء في تلك الفترة التي استمرت فيها النهضة الإسلامية حتى القرن الخامس الهجري؛ فهناك كثير من الباحثين الغربيين أيضًا يقومون في عصرنا بالشيء نفسه عبر حُسنِ استخدامهم المنطق والمحاكمة العقلية التي وهبهم الله إياها.

والمقاربةُ عينُها واردةٌ بالنسبة لأعضاء الإنسان أيضًا؛ فالعين مثلًا لهـا غايـة من خلقها، وهي النظر إلى الأشـياء التي يجب النظر إليها، ومحاولة رؤيتها بشـكل صحيح وتدقيقها، ومحاولة استخراج بعض المعانـي منها، وكما قال الأديب التركـيّ "رجائي زاده محمود أكرم" فإن الكون يبدو من أوّله إلى آخره وكأنه كتابٌ رائعٌ إذا ما طالَعنا أيًّا من حروفه وجدنا الله تعالى، وإن البيت الشعري الحكيم التالي الذي نُظم قبل عصورٍ:

تَأَمَّلْ سُطُورَ الْكَائِنَاتِ فَإِنَّهَا

مِنَ الْمَلَإِ الْأَعْلَى إِلَيكَ رَسَائِلُ

ليسـتحق التأمل في معناه، وعليه فإن المهم هو التمكُّن من رؤية قـدرة الله تعالى ومشـيئته وعلمـه وإرادته حتى في أوراقِ الأشـجار، وفي الشـتلاتِ والفسائلِ المتمايلة، ولا سـيما في الإنسان فإنه بِيَدَيه ورجليـه، ولسـانه وشـفتيه، وعينيـه وأذنيه مَعْلَـمٌ يُمَثِّـلُ كتابًا بحجم مجلـدات لا بـدَّ من مطالعتها، ومحاولةُ الإنسـان قـراءةَ هذا الكتاب قـراءةً صحيحـة تعنـي اسـتخدامه عينيه ومنطقـه ومحاكمتـه العقلية في اتجاه الفطرة السليمة.

وبنفس الشكل فإن استماع الإنسان الغِيبة والافتراءات والأكاذيب والأشياء الماجنة بأذنيه لَيُبَيِّن ويكشف أنَّه لم يستعملْهما لما خُلِقتا له، وهذا يُعتبر نوعًا من الإسـراف، ولذلك فإن الله الذي وهب الإنسـان تلك النعم سيحاسـبه عليها يوم القيامة، وقد منح الله تعالى الإنسـانَ نعمـة اللسـان التي بها يرتفـعُ ويُفضَّلُ على غيرهِ من سـائرِ الأحياء، فبفضلها يستطيـع الإنسان التعبير عن أدقِّ التفاصيل، وكذلك فإن هذه

النعمـة الكبرى ذات غاية محـدّدة؛ تتمثَّل في عدم الانزلاق في اللغوِ والكذبِ، وأن ينطقَ بالحقِّ والحقيقة، ويُرشِدَ إلى محاسن الأمور.

ويَتَبين من العبارات الوَقِحَةِ التي تَفَوَّه بها الشيطان أنَّه يسعى ليمنـع الإنسـان من أن يسـتخدم في سـبيل الخير والجمال تلـك القابليات الممنوحة له، فنجده مثلًا يُلَقِّنُ الإنسان كيف يستخدم عقله في خداع الآخرين، ويُشـرِعِنُ له كلَّ الطرق كي يتمكن من الوصول إلى هدفه بفهم أنانيٍّ وصوليٍّ (ميكافيلي)، والأكثر من ذلك أن الشيطان سيسعى كي يُجمّل حتى لمن يرتادون المسـاجد كلَّ فهمٍ إباحي، وسـيدفعُهم للاستفادة من نعم الدنيا دون تحرٍّ للحلالِ والحرام، ويجتهد كي يُبعد عن طريق الله تعالى حتى أولئك المداومين على الصلاة، ومن ثم فإن الإنسان إذا لـم يستخدم الملكات والقابليّات الموهوبة له في الطريق الصحيـح فقـد اتبع همزات الشـيطان، وتدخل فـي الفطرة، فيصبح دون أن يـدري ألبتـة خاضعًا لأمر الشـيطان؛ ولهـذا فقد حذر القرآن الكريم من الشـيطان ومن مكائده بأسـلوب يُرجِفُ القلـوبَ ويُنبِّهها فقال: ﴿**وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّـيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا**﴾ (سورة النِّسَاءِ: ٤/١١٩).

وعليه فلا بد أن يضـع الإنسان في اعتباره أنَّ الشيطان ربما يقف وراء كل حركـة تخالـف مـا أمـر الله تعالى به في القـرآن، وينبغي له أن يُديم الاسـتعاذة بالله من الشـيطان، وأن يُخْلِصَ التوجُّهَ إلى الحقِّ تعالى ويطلب المدد منه، وأن يتمسك بالتصرُّفات والسلوكيات التي تطردُ الشيطانَ وتُبعده عنه، فعليه مثلًا أن يَلْزَمَ الصلاةَ وتلاوةَ القرآن؛

فقد ورد في الحديث النبوي الشريف أنَّه "**إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ: يَا وَيْلِي أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ**"(٧٣)، ولأجلِ ذلك فإنه ينبغي لمن ينشد الحق ويرغبُ في أن يَسْلَمَ من كلِّ حيل الشيطان ومكره أنْ يعيش حياته عبدًا لله فحسب، وأَنْ يَجِدَّ في سبيل إعلاء كلمة الله، ويعتبرَ نفسه صِفْرًا ويتوجَّه إلى الله لا إلى أحدٍ سواه، فكل هذه الأمور بمثابة أسوار تُقام منعًا من وصول الشيطان إلى الإنسان، أمَّا من يسيرون في سبيل الله ويُقحمون في أثناء ذلك أنفسَهم وملاحظاتهم النفسيةَ ومصالحهم الشخصيةَ فهم أموات بالنظر إلى حيواتهم القلبية، كما أنهم بصنيعهم ذلك يهدمون حصونهم القلبية ويُسلمون قلوبهم للشيطان، نسأل الله السلامة.

(٧٣) **صحيح مسلم**، الإيمان، ١٣٣؛ **سنن ابن ماجه**، إقامة الصلاة، ٧٠.

أربع من أمر الجاهلية

سـؤال: يقول رسـولنا ﷺ في حديثٍ شـريفٍ: "إِنَّ فِي أُمَّتِي أَرْبَعًا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَيْسُـوا بِتَارِكِيهِنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَـابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَـابِ، وَالِاسْتِسْـقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَـى الْمَيِّتِ"[٧٤]، فما هي الدروس المستفادة من ذلك الحديث؟

الجـواب: بدايـةً لا بـد مـن بيان مـدى خطـإ الاعتقاد بـأن تلك الأمـور الخاصـة بالجاهليـة باقيةٌ بعينهـا بين أفراد الأمـة المحمدية، لأن عقائـد النـاس في العصر الجاهلي لم تكن صحيحة، بينما عقيدة الأمـة المحمديـة صحيحة وحقة؛ ولذلك فإنه حتى وإن ظهرت تلك الأمور المتعلقة بالعصر الجاهلي بين بعض المسـلمين لاحقًا فلا بد مـن الأخذ بعيـن الاعتبار أنَّها تختلف عن بعضهـا البعض من حيث الكيفيـة، وبتعبيـر آخر: فإن تلك الأمور التي جـرت مجرى الدم من العروق عند أصحابها من أهل الجاهلية كانت موجودةً لديهم بمعناها الحقيقـي، أمـا بقاؤها بيـن بعض المسـلمين فأمرٌ مجـازيٌّ أو ظليّ، وعليـه فـإن الصواب والأصح هـو أن نفهم عبارة "لَيْسُـوا بِتَارِكِيهِنَّ" على أنَّها سـتبقى بحيث يجري تَغييرُهـا وتعديلها بطريقة أو بأخرى،

(٧٤) **صحيح مسلم**، الكسوف، ٢٩؛ **مسند الإمام أحمد**، ٥٣٨/٣٧؛ الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، ٥٣٩/١ (واللفظ له).

لا أنْ نَفهَـم أنها سـتبقى بعينهـا تمامًا وعلى حالها الـذي كانت عليه في العصر الجاهلي.

الفخر بالحسَبِ والنسَبِ سلوةٌ لا طائل منها

أول المحـذورات الأربعة المذكـورة في الحديث هو "الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ"، والحقيقة أنَّ افتخارَ الإنسان بأيّ أمرٍ كالمنصب والمقام والعلم والمالِ والجمالِ والذكاءِ؛ لا يُعَدُّ إلا تعبيرًا عن إسـاءة الأدب مع الله تعالى، وكما وردَ عن الأسـتاذ بديـع الزمان سـعيد النورسـي فـإن تجاهـل إحسـان الله ولطفه نكـرانٌ للجميل، أما عَـزْوُ ذلك إلى النفس فهو فخرٌ، وإذا كان الإنسان يرغب في اجتناب هذين الأمرين وجـب عليـه أولًا أن يؤمن ويعتقد يقينًا بأن كلَّ النعم التي يحظى بها كالعلـم والعرفان والعقل والمحاكمة العقلية والصحة والمال... إلخ مـن الله تعالـى فقـط، وأن يقرَّ بـأنَّ كل تلك النعم مصدرُهـا الجميلُ المتعـال، ثم يذكرها عندما يقتضي الأمر ذكرها من باب ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ (سورة الضُّحَى: ١١/٩٣) فحسب، لا من باب الفخر والتّيه.

وزيادة في التوضيح نقول: إن افتخار الإنسـان وعجبه بنفسه أمر سـيّئ للغايـة، لا يحبه الله تعالـى؛ إذ ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ (سـورة لُقْمَانَ: ١٨/٣١)، ويسـوقُ الحديثُ الشـريفُ هنا نوعًا خاصًّا من أنواعِ هذه الآفةِ التي تُدَمِّرُ الإنسـانَ وهو الافتخار بالحسـب والنسب والأصلِ والعِرقِ وشجرةِ العائلة، ومن هذه الناحية فإنه ينبغي للإنسان حتـى وإن انحدَرَ من سـلالة سـيدنا رسـول الله ﷺ الطاهـرة النقيّة أن يقول: "اللهم إن انحداري من سلسـلة نسـبٍ مباركةٍ كتلك أمرٌ ليس بيدي، وإنني أعلمُ يقينًا أنك أنتَ من قَسَـمَهُ لي، وهذا إحسـانٌ منك

وفضلٌ، وهو في الوقت نفسه مسؤولية ثقيلة بالنسبة لي، اللهم لك الحمدُ كلُّه والثناءُ كلُّهُ أن أحسنْتَ إليَّ بهذا، وإنني لأسألُك مددَك وعونك كي أستطيع الوفاءَ بحقِّ هذه المسؤولية"، غير أنه يلزمه ألا يستغلّ أبدًا مجيئه من نسب معين كوسيلة للتعالي والتكبر على الآخرين.

وإن تباهيَ الإنسانِ بآبائه أو بثراءِ أجداده أو بقصورِهم ومصايفهم لَيَدْخُلُ في إطار آفةِ الفخرِ بالحسَبِ والنَّسَبِ، وكذلك الأمرُ تمامًا بالنسبة لابن وزيرٍ ما، أو ابنِ رئيسِ وزراء، أو ابنِ رئيس الجمهورية، فهذا أيضًا من هذا القبيل، في حين أنه لا قيمة لأيٍ من تلك الأمور عند الله تعالى، بل إنّ الفخر بها أمر مردود ومرفوض عنده ﷻ، فإن كان الشخص الواقع في مثل تلك الأمور مؤمنًا فقد يعاقَب عليها في الدنيا، وإلا فعقابُه في محكمة العدلِ الإلهيّة الكبرى، وهذا أصعبُ وأشد تنكيلًا.

وعليه فإنه يجب على الإنسان ألا يتدنَّى بأي شكل من الأشكال إلى هذه الدركة؛ دركةِ الفخر بالحسب والنسب، وألا يعتبر هذه الأمور تميُّزًا وتفوُّقًا؛ لأن المزايا والخصال التي كانت لأجداده لا تفيده بأيّ شيء، والأمر المهم هو أن تكون لدى الإنسان تلك القيمة الذاتية التي لفت الحقُّ تعالى الانتباهَ إليها بقوله العظيم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (سورة الْحُجُرَاتِ: ٤٩/١٣).

أجل، إن مكانةَ العبد عند الله تعالى مرتبطةٌ بدرجة طاعته وعبادته لله تعالى، وبعلاقته به ﷻ، ومواصلته حياته في إطار "الإحسان"، وإيمانِه بأن الله يرى كل ما يفعله، بل والأكثر من ذلك أنَّها مرتبطةٌ

بكونـه يعمل العمل في كلِّ شـيء وكأنَّه يـرى الله ﷻ، ومنْ لا يراعي واجباتـه ومسـؤولياته المنوطة بـه لا ينفعه أصلُهُ وفصلـهُ أبدًا؛ إذ إن سـيدنا عمـر ﷺ أَبانَ بقوله: "إِنَّـا قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللّٰهُ بِالْإِسْـلَامِ فَلَنْ نَلْتَمِسَ الْعِزَّ بِغَيْره"(٧٥) أنَّ البحثَ عن وسـائل الرفعة والعزة والفضل في غير الإسلام عبثٌ وسدًى.

النظام الطَّبَقيّ داءُ الإنسانية العُضالُ

وقد ذكر رسـول الله ﷺ بقوله: "وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَـابِ" ثاني تلك الأمـور الجاهليـة، ألا وهـو الطعـن في الآخريـن والتشـنيع عليهم بسبب أنسابهم، فكما أنَّ نشأة إنسان في عائلة فقيرة وكونَ أبيه يعمل راعي غنمٍ لن يُفقده شـيئًا فإن كونه سـليل فلان بن فلانٍ لن يُكسـبه شـيئًا أيضًـا؛ إذ إن المهمَّ هو امتلاكُ الإنسـان لِلْقيمـة الذاتية كما ذُكر آنفًـا، وما أجمل تلخيصَ أبيـاتِ إبراهيم حقي لهذا الموقف إذ يقول مخاطبًا نفسه:

إذا أردت أن تكون ماهرًا بهذا الطريقِ

فلا تُفشِيَنْ سرَّكَ يا صديقي

ولا تَحْقِرَنْ أهلَ الخرابات يا "ذاكرُ"

فكم من خرابات بالكنوز تزخرُ

أجل، كم من أناسٍ تحسبونهم خراباتٍ وأطلالًا غير أنَّ صدورهم ملأى كنوزًا وأسرارًا.

(٧٥) ابن أبي شيبة: **المصنف**، ١٠/٧؛ الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، ١٣٠/١.

ومـن هـذه الناحية فـإن الطعنَ في الناس والتشـنيعَ بهـم بالنظر إلى المناخ الثقافي والحالة المادية التي نشـؤوا فيها، والوسـطِ الذي يعيشـون فيـه والمحيط الأسـري الذي هـم عليه وما إلـى ذلك ليس صحيحًـا ألبتـة، والحقيقة أنَّ آفةَ الإحسـاسِ بالتفـوُّقِ على الآخرين والاسـتخفافِ بهم ليسَـت وليدة اليومِ، بل ترجـع إلى عصورٍ سحيقةٍ جـدًّا؛ إذ إن عقيـدة "النظـام الطَّبَقي" التي يُقال إنّهـا ظهرت في الهند وإن مصدرها الديانات الهندية؛ شاعَت في مجتمعاتٍ كثيرةٍ لم تحظَ بالتربية الجيّدة على يدِ الرسالات النبويّة العظيمة، ويمكننا القول: إن مثـل هذا الفهم موجودٌ بمختلف جوانبه المتباينة حاليًّا أيضًا في كثيرٍ من الأماكن على وجه البسيطة بما فيها بلادنا، فإن كان النظام الطبقيُّ مـا زالَ موجـودًا بمختلـف أشـكاله ومظاهره بالرغم مما هو شـائع لدى الإنسانية في يومنا هذا من مزاعم التمدّن والديمقراطية والتقدّم في حقوق الإنسـان؛ فإنني أعتقدُ أنّه يجب علينا نحن عالَـمَ الإنسانية أن نُعيد النظرَ مجدَّدًا في وضعنا.

ومـا يتعلق بمجتمعنا مـن هذا الموضـوع أنَّ الأناضول هو "ممرُّ الأقـدام"؛ أي إنه المكان الذي اجتازتـه وحَلَّت به ورحلت عنه أقوام عديدة؛ إذ استقرَّ به أقوامٌ من أعراق وأديان وثقافات متباينة قَدِمَتْ من شـتّى بقاع الأرض في مختلف مراحل التاريخ، وقد أسلم معظمُهم، ومن هذه الناحية فإنكم إذا هممتم تُفَتِّشون عن أصلِ ونَسَبِ أيِّ إنسان فقـد تجـدون بعد عدة أجيال خلت أنَّ جـدَّه كان يهوديًّا أو أرمينيًّا أو نصرانيًّا أو روميًّا... إلخ، وانطلاقًا من هذا فإنه لا يحق لنا الطعن في الناس، بل إن آباء معظم الصحابة الكرام رحلوا عن الدنيا ولم يتسن لهـم الدخـول في الإسـلام، ولذلك فإنـه يجب تقييم النـاس باعتبار وضعِهم الحالي، لا باعتبار ماضيهم وأنسابهم التي ينحدرون منها.

التنجيم والخواء القلبي

وثمـة أمـرٌ آخر سـيظلُّ بيـن ظهراني الأمـة رغم أنه مـن خِصال الجاهلية، ألا وهو طلب نزول المطر من النجوم ونسبة إرساله إليها، وقـد عبر عنه الرسـول ﷺ بقوله "وَالِاسْتِسْـقَاءُ بِالنُّجُـومِ"؛ فقد كانت النجوم -لا سـيما في بلاد الرافدين- تحظى بأهمّية وقداسـة خاصة؛ إذ كان الناس هناك يعتقدون أن للنجومِ تأثيرًا مباشِرًا على قَدَرِ البشر، ومـع أن مثـل هـذه المعتقـدات انهـارت فـي يومنـا إلا أن الاعتقاد فـي التنجيـم والأبـراج الذي هـو جانب من ذلـك الاعتقـاد لا يزالُ علـى أشُـدِّه، أي إنّ هـذه العـادة الجاهليـة مـا زالت تُواصـل بقاءها بأشكال مختلفة.

وفي حديث قدسيٍّ يتعلق بالموضوع ذكر رسولنا ﷺ أن الله تعالى قال:

"أَصْبَـحَ مِـنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ: فَأَمَّا مَـنْ قَالَ "مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَته" فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ "بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا" فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ"[٧٦].

يعنـي أنّه بينما يُمَثِّل حمدُ الله سـبحانه وشـكرُه على ذلك المطر النازلِ من السماء باعتباره أثرًا من آثار رحمة الله؛ علامةً من علامات الإيمـان، فإن نسـبةَ المطـر إلى الأسـباب تمثل علامةً مـن علامات الشـرك، أمـا النجوم فإن العلـوم الطبيعية قد أثبتت أنـه لا علاقة بين النجومِ ونزولِ المطر حتى في دائرة الأسباب.

(٧٦) صحيح البخاري، المغازي، ٣٧؛ صحيح مسلم، الإيمان، ١٢٥.

ومما يُؤسَف له أنّ الناس حين لا يؤمنون بما يجب الإيمان به من حقائق؛ أي حين ينتفي الإيمان القوي والسليم بأركان الإيمان فإنَّ حسَّ الإيمان المفطورَ فيهم يدفعهم إلى الإيمان بالباطل؛ فيطلب بعضُهم المددَ من "اليوغا"، وبعضهم من التأمل والاستغراق، والبعض الآخر يسعى إلى إرضاء نفسه بالتنجيم، والسبب في هذا كله ليس إلا انغلاق القدرة الروحية والاستعدادات الإيمانيّة أمام الحقائق الواجب الإيمان بها، والإنسانُ بطبيعته وجِبِلَّته يركض في إثر الحقيقة، غير أنه أحيانًا ما يقع في الباطل بينما يبحث عنها؛ فيلجأُ إلى الحجرِ والشجر والنجوم التي لا تُدرك ولا تَعقل شيئًا كي يُطَمئن قلبَه المحتاجَ إلى الإيمان.

الإيمانُ بالقَدَرِ وعادةُ الحِدادِ

أما الأمر الأخير المذكور في الحديث على أنَّه "النِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ" فهو المبالغة في رثاء الموتى والبكاء عليهم، وما زلنا نشهد في بعض المناطق من بلادنا مراثي يستحيل التوفيق بينها وبين المبادئ الأساسية للقرآن والسُّنة؛ إذ يجتمع الناس خلف الميت فيُعدّدون محاسنه وفضائله، ويُفرِطون في امتداحه، حتى إنّهم يذكرون مثلًا محاسنَ حاجِبَيهِ، وخِلالَ ناظريه... إلخ، ولا سيما النساء فإنهن يَضْرِبْنَ بأكفّهنَّ على أرجلهنَّ ويلطمنَ وجوهَهُنَّ، ويظلَلْنَ يبكينَهُ بكاءً غيرَ حقيقيٍّ كما يفعل الممثِّلون.

في حين أنَّه لا فائدة على الإطلاق تعود على الميت من كل هذا التعظيم والتبجيل والتقدير الذي يُعدَّدُ بإضافة عباراتٍ مُبالِغَة

ومصطنعـة، وبغـضِّ النظر عن كونها تُحَقِّقُ له فائدة أو لا؛ فإن هؤلاء بينمـا يرثـون الميـت ويبكونه تحاسـبُهُ الملائكة وتسـأله قائلةً: "أأنت كذلـك؟ أنـت كذلك؟!" كما ذُكِر فـي الأحاديث النبوية الشـريفة[٧٧]، وبهذه الطريقة يصبح الميت عُرضةً لنوعٍ من العذاب بسببهم.

أجـل، ما لم يتقرب الإنسـان إلى الله تعالى بالعبـادة والطاعة في الدنيـا ويحسـن عبادته فلن تنفعَـهُ ولو مثقال ذرّةٍ كثرةُ عدد مُشَـيِّعِيه، ولا المدائـحُ المنظومـة بحقـه، ولا قـولُ الجماعة المُشـيّعة له "لقد كان صالحًـا"[٧٨]، عـلاوةً على ذلك لا بد أنْ نُبيّن أنَّ تَعَمُّدَ قول: "كان صالحًا" بحقِّ إنسـانٍ فاسـقٍ يعني الشـهادة كذبًا، ولذلك يحاسِب الله الإنسـانَ علـى هذا القول الكـذبِ الذي نطقَ به، وهـذا لا يمنـعُ من إحسـانِ الظـنَّ بمن يرتـادُ المسـاجد ويُصلي ويبدو خَلوقًـا وفاضلًا؛ لأننا نحكُم بالظاهر، والله سـبحانه فحسب هو المطَّلِع على القلوب والسـرائر، إلا أن قـولَ "كان صالحًـا" بحـقِّ مـن يُجاهـرون بعـداوة الدين والعبادة أو يختلسـون ويسـرقون علانيةً -لدرجـة أنهم يبدون وكأنهم يُبيحون ذلك الفعل برغم أنهم لا ينفكُّون يتحدّثون عن الدين والتديُّن- ويُزَوِّرون ويفترون على الناس بالباطلِ كذبٌ مُفزِعٌ وسـوءُ أدبٍ عظيمٌ تجاه الله تعالى.

---

(٧٧) قال ﷺ: "الْمَيِّتُ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ الْحَيِّ، إِذَا قَالُوا: وَا عَضُدَاهُ، وَا كَاسِيَاهُ، وَا نَاصِرَاهُ، وَا جَبَلَاهُ، وَنَحْوَ هَذَا، يُتَعْتَعُ وَيُقَالُ: "أَنْتَ كَذَلِكَ؟ أَنْتَ كَذَلِكَ؟"، (صحيح البخاري، المغازي، ٤٦؛ سنن ابن ماجه، الجنائز، ٥٤ (واللفظ له)).

(٧٨) هناك عادة في تركيا وهي أن الإمام بعدما يصلي على الميت يتوجه إلى جماعة المصلين قائلًا: "كيف تعرفون هذا الميت؟"، ويقول الناس: "نعرفه صالحًا"، ثم يقول لهم: "هل سامحتموه؟" فيقولون: "سامحناه".

أضِفْ إلى ذلك أنَّه عند النظر إلى تلك المسألة من زاوية النصوص الدينية يتبيَّنُ لنا أنّ قولَ الجماعة: "نعرفه صالحًا" ردًّا منهم على سؤالِ الإمام لهم بحقِّه: "كيف تعرفون هذا الميّتَ؟" أمرٌ لا وجودَ له في السُّنَّة السَّنِيَّةِ، وأنَّ سيدنا رسول الله ﷺ لم يَفْعَلْ مثل هذا قطّ، وأنَّ هذا أمرٌ ابتدعه المجتمع، بل إن البعضَ يُطنبونَ في هذه البدعة فيُكرِّرون السؤالَ ثلاثَ مرَّات، ثم يُضيفون سؤال: "هل سامحتموه؟"، ولكنه لا وجود لأيٍّ من هذه الأمور لا في الكتاب ولا في السُّنة ولا حتى في المصادر الفقهية؛ ولذلك فإنها بدعةٌ، لا تُفيدُ حيًّا ولا ميتًا.

ويجب أنْ نعلم أنَّه لن تُضِيرَ الإنسانَ قلّةُ مُشَيِّعيه حتى وإن كان عدد من صلوا عليه صلاة الجنازة لا يتجاوز اثنين فحسب؛ طالما أنّه انتقل إلى الدار الآخرة بإيمانه وعمله الصالح، ولقد صلّى حوالي خمسة أو عشرة أشخاص صلاة الجنازة على الأستاذ "أحمد نَعيم"[(٧٩)] الذي كنت أحبه وأقدِّره كثيرًا، فلما ذكرت هذه الواقعة إلى الأستاذ "يَشار"[(٨٠)] ذات يوم قال لي: "أتظن أن الله تعالى يَقسِمُ لهؤلاء المذنبين أن يصلوا صلاة الجنازة على الأستاذ أحمد نعيم!" وكذلك فإن الأمة قصرت في أداء واجبها تجاه محمد عاكف؛ إذ لم تذهب للصلاة عليه، ولكن طلَّابَ الجامعة جاؤوا إلى الجامع بعد أن قُضيت صلاة الجنازة حاملين الرايات ليُشَيِّعوه، والتاريخُ حافلٌ بأناسٍ كثيرين لم يُعامَلوا بقدر قيمتهم الحقيقية.

(٧٩) **الأستاذ أحمد نعيم** (١٨٧٢-١٩٣٤م): من العلماء الأجلاء في العهد الأخير للدولة العثمانية.

(٨٠) **الأستاذ يشار طُوناكُور** (١٩٢٤-٢٠٠٦م): واعظ ومُفْتٍ سابق.

مراسم جنائز الفراعين والطواغيت

ومن ناحية أخرى فإن مَنْ لم يستعد الاستعداد اللازم للآخرة وهو في الدنيا ولم ينتقل إلى الآخرة متزودًا بالأعمال الصالحة والخَيِّرَة لن يفيده أثناء انتقاله إلى لقاء الله تعالى أنْ يكون عدد مشيّعي جنازته غفيرًا، فكم من فرعونٍ ونمرودٍ وشدَّادٍ شُيِّعَ بالملايين! غير أن هذا التَّشْيِيعَ لم ينقذهم من سوء العقابِ، وبالتالي فإن أمثال هؤلاء الأشخاص لن يفيدهم أيُّ شيء أبدًا حتى وإن شَيَّعَ الملايينُ جنائزَهم، واضطرَبَت الدنيا لموتهم، واجتمَعَت الإنسانيّةُ جمعاء حول جثامينهم وقالت في صوت واحد: "إنا راضون عنهم"، ﴿**فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ (سورة مَرْيَم: ١٩/٥٩).

والحقيقة أنّ رسول الله ﷺ قال:

"**مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِه أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ**"[٨١].

غير أن هذا الحديث النبوي الشريف قيّد الأمر بإسلام الميت، ولا يفيد أبدًا أن تلك الشهادة الكاذبة التي تؤدى بصورة الكذب عمدًا وقصدًا تنفعه.

وقد كان سيدنا رسول الله ﷺ يُذكِّرُ بالموت وما بعده ذات مرة، فقال مخاطبًا أبا ذرٍّ رضي الله عنه:

"جَدِّدِ السَّفِينَةَ فَإِنَّ الْبَحْرَ عَمِيقٌ

وخَفِّفِ الْحِمْلَ فَإِنَّ السَّفَرَ بَعِيدٌ

(٨١) صحيح مسلم، الكسوف، ٥٩؛ سنن أبي داود، الجنائز، ٤٥.

واحْمِلِ الزَّادَ فَإِنَّ الْعَقَبَةَ طَوِيلَةٌ

وَأَخْلِصِ الْعَمَلَ فَإِنَّ النَّاقِدَ بَصِيرٌ"(٨٢).

تلـك هـي الأمور التي أكّـد وركّز عليهـا رسـول الله ﷺ وَأَوْلَاها أهمية وقيمة، فإن سِرتم إلى الله تعالى ملازمين دائرةً ووسطًا صالحًا كهذا وصلتم إلى أفق روحكم الطاهر النقيِّ، وشَرُفتم بحقيقة ﴿**إِنَّا لِلّه وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/١٥٦)، وإلّا فلن تعودَ عليكم بشيءٍ من النفـع أبدًا تلك المراثي الـمُتَغَنّى بها، ولا المدائحُ المنمّقةُ المنظومة بشأنكم، ولا المشيعون من خلفكم وإن كانوا بالملايين.

---

(٨٢) الديلمي: **الفردوس بمأثور الخطاب**، ٣٣٩/٥.

العماية عن القريب، والعمل الدؤوب

سـؤال: ثمة أناسٌ نشؤوا في عصور أشخاصٍ عظامٍ، بل وعاشوا فـي محيـطٍ قريـبٍ منهـم، وبالرغم من هذا لم يسـتطيعوا الاسـتفادة منهـم، ويبدو أن هؤلاء كثيرون كثرةً لا يُسـتهان بها على مرِّ التاريخ؛ فما هي أسبابُ ذلك؟ وما السلوكُ الذي ينبغي لنا التحلّي به لئلّا نقعَ في مثلِ هذا الموقِف؟

الجواب: قد لا يسـتطيع الإنسـان رؤيةَ وتقديرَ ما لا يُقدَّرُ بثمنٍ مـن قيـمٍ قريبةٍ جدًّا منه؛ وذلك أحيانًا لعجـزه عن ضبطِ وجهةِ نظرِه، وأحيانًا بسبب تعصُّبه لشيءٍ ما وتأثُّره بمجموعةٍ من الأحكام المسبقة، وأحيانًا أخرى بسـبب الحالةِ الروحيّة النابعةِ ممّا وقـعَ في داخله من حَسَـدٍ وحقـدٍ، وناهيكم عـن التقدير فإنه أحيانًا مـا يعادي تلك القيمَ عـداءً لا هـوادةَ ولا رحمـةَ فيـه، ويمكنكم أن تُطْلِقـوا على مثل هذه الحالة داء "العَمَاية عن القريب".

أبو لهب: نموذج حقيقي في الحسد والغيرة

إن من يقعون في مثل هذا النوع من العمى والداء تستحيل عليهم -بأية حال- الاستفادةُ من الشخصيات العظيمة، ورؤيةُ ما تنبغي لهم رؤيته بسبب ما يكتنف نظرتهم إلى الأشياء من نقص وقصور؛ يتعذر

عليهـم ذلك حتى وإن عاشـوا معهم ولازموهـم كل الملازمة، تمامًا كما هو الحال في مثال أبي لهبٍ، العم الشقيق لرسول الله ﷺ، والذي عاش معه ﷺ في نفس البيئة والمحيط المنزلي، وكثيرًا ما احتضن أبو لهبٍ تلك الشـخصيةَ العظيمة عليها أفضل الصلاة والسـلام، ولاعبَهُ في صغرهِ، وقد أَذِنَ لجاريته "ثويبة" بأن ترضعه ﷺ(٨٣)، وتجاورَ منزلُهُ مـع منزلِ النبيّ ﷺ سنين عددًا، فكثيرًا ما كانا يلتقيان في الطريقِ، كما أسَّـسَ أبو لهب رابطةَ قرابةٍ أخرى حينما زوّجَ ولديه "عتبة" و"عتيبة" بالسيدتين: رقية وأم كلثوم كريمتي الرسول فخر الكائنات ﷺ.

وبإيجازٍ: فلقد شهد أبو لهب ورأى ما تحلَّى به مفخرة الإنسانية في حياته كلها من أخلاق حسنة طيبة، ومـع هذا كان تعيسَ الحظِّ؛ إذ لم يؤمن برسالة سيّدِ الأنبياء؛ فانغرسَ في وحلِ داءِ "عَمَاية القريب"، ولـم يقـفْ الأمرُ عند كفـره به ﷺ؛ بل صار من ألـدِّ خصومه وأعدى أعدائـه. أجـل، لم يرضَ، بل قُلْ لم يرغبْ أحـدُ أقربِ أقرباءِ مفخرةِ الإنسـانيّة -الـذي اصطفَّـت النجوم تحـت قدميه مرصوفـةً كأحجارِ الرصيفِ- أن يُقْبِلَ ويؤمنَ بعظمته ورفعته ﷺ.

ومـن هـذه الناحية فلا بدَّ أن نعلمَ أن مَنْ اسـتعملهم الحقُّ تعالى في كثيرٍ من الخدمات العظيمة ربما يتعرّضون لتحقيرِ وإسـاءةِ بعضِ من يعيشون في المحيطِ القريبِ منهم بالرغم من أنشطتهم وفعاليّاتهم التي تستحقُّ تقديرًا عظيمًا، بل إنهم قد يتعرّضون لخيانتهم وعداوتهم، وأهمّ أسـباب ذلك سَخَطُ الخصوم على حكمِ القَدَرِ، وعدمُ رضاهم بتقديرِ الله، ووقوعُهم في دوّامة الحسد، والفهم السقيم، بينما جميع

(٨٣) انظر: صحيح البخاري، النكاح، ٢١؛ البيهقي: السنن الكبرى، ٢٦٢/٧.

الإمكانيـات والملـكات التي يحظى بها الإنسـان إنمـا هي من تقدير الحقِّ تعالى، والحكمُ بيده سبحانه ليس إلا.

استعمال البسطاء في مهام كبرى

كمـا يكلِّـفُ الله ﷻ الكبـار والعظـام بأعمال كبـرى أحيانًا؛ فقد يستعمل الأشخاص البسطاء أيضًا في مهمات عظيمة جدًّا، ويوفِّقهم إلـى إنجـازِ أعمـالٍ فائقةٍ، وربمـا أنَّ ما يجبُ على الإنسـان فعلُه في هذا الشـأن إنما هو توجهه إليه سـبحانه وسـؤاله بصفاءٍ قلبيٍّ، وعدم اسـتحقاره أحدًا ولا الاسـتخفاف به إطلاقًا؛ فكم من الناس من يبدو وكأنه متشرد بينما قلبه مليء بالكنوز، وهو ما عبر عنه "إبراهيم حقي" شعرًا فقال: يقول حقي:

إذا أردت أن تكون ماهرًا بهذا الطريق

فلا تُفشِيَنْ سرَّكَ يا صديقي

ولا تَحْقِرَنْ أهلَ الخرابات يا "ذاكرُ"

فكم من خرابات بالكنوز تزخرُ

ويُحكـى أنّـه كان لإبراهيـم حقِّي ولـدان؛ أحدهما يُدعـى ذاكرًا والآخـر يُدعى شـاكرًا، فكان ذاكـر ولدًا صالحًا مشـغولًا دائمًا بذكر الله، أمـا شـاكر فكان فـي تلك الحقبـة لا يبرحُ الخمّـارات ولا يفيقُ من السُّـكر، وفي يوم مـن الأيام اصطحب حقي أفنـدي ولده ذاكرًا، وسـارا سـويًّا؛ فمرَّا خلال طريقِهما على خمّـارةٍ، فأمر إبراهيم حقي أفنـدي ولـدَه أن ينتظـرَه في الخـارج ودخل هو تلك الخمـارة، فلما دخلهـا وجدَ ابنه شـاكرًا ثملًا مطروحًا على الطاولة؛ فسـأل صاحب المكان: كم على ولده من دين، ثمَّ سدّده عن ابنهِ، ثم خرج وواصل

المسير هو وولده ذاكر، فلما أفاق شاكر أراد أن يسدِّدَ ما عليه من مالٍ لصاحبِ الخمارة ويخرجَ، لكن صاحبها قال له: "لا شيء عليك، لقد سدَّدَ والدُك كلَّ دينِك"، وعندها كادَ شاكرٌ أنْ ينهار، واعتصره شعورٌ مذهلٌ بالحياء والخجل، فاقتفى أثر والده من فورِه ينشدُه، فوجدَهُ على حافَّةِ هاويةٍ قد جلس هو وذاكرٌ، فاستمع شاكرٌ حديثَهما خلسةً منهما؛ فإذا بأبيه حقي أفندي يقول لذاكرٍ: "أي بنيّ! توفِّيَ واحدٌ من الأولياء، فإن تقفزْ أنت من تلك الحافّة، فإنّك تَنُوبَ منابَهُ"، غير أنَّ ذاكرًا تردّد، ولم يستطع القفز بأية حال، فقال شاكرٌ الذي كان يسترق السمعَ: "أبتاه! ماذا لو قفزت أنا؟ أينفع ذلك؟"، ثم طلب منه أن يسامحه وقفز في الحال، وبهذا صار واحدًا من الأولياء، وبناءً عليه قال السيد حقي أفندي ذيكما البيتين المشهورين وسط ذهول ابنه ذاكرٍ ونظراته الحائرة.

ولا بد في المناقبِ من النظر إلى معنى الحوادث والعبرةِ المُستَخلَصَةِ منها لا إلى أصلها؛ فقد تكون تلك الحادثةُ صحيحةً أو خاطئةً، بيد أنَّ الحقيقةَ المراد التعبير عنها إنّما هي في غاية الأهمّيّة، وقد قال سيدنا رسول الله ﷺ تعبيرًا عن هذا المعنى: "**كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمُ البَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ**"(٨٤).

أجل، إن الله ﷻ قد يستعمل أناسًا -ربما تستصغرونهم ولا تبالون بهم- في أعمالٍ عظيمةٍ، لدرجة أنكم تعضون على أناملكم دهشة وحيرة أمامها، ومثلما أنَّ الله تعالى يَسْتَنْشِئُ النمل الأبيض

(٨٤) **سنن الترمذي**، المناقب، ١٢٥؛ أبو يعلى الموصلي: **المسند**، ٦٦/٧.

أو ما يُسمَّى بـ"الأَرَضَةِ" أبنيةً أعلى بكثيرٍ من قامتِه، فإنه يَسْتَنْشِئُ أناسًا تستصغرونهم وتعدّونهم عاديّين كالنمل الأبيضِ أبراجًا شاهقةً، حيث إن قادةً مثل ساداتنا: أبي عبيدة بن الجراح والقعقاع وسعد بن أبي وقاص رغم أنهم كانوا أفرادًا عاديين نشؤوا في البادية؛ فقد أخضعوا خلال فترةٍ زمنيّةٍ قياسيّةٍ الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية التي ظُنَّ أنهما لا تسقطانِ، وأنّه ليسَ من الواردِ وقوعهما، وأرشدوهما إلى الطرق المؤدّية إلى الإنسانية الحقيقية.

عبارات يخالطها الشرك بالله: "إنما أوتيته على علم عندي"

يقول الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٥/٥٤)، والنفس على حدِّ تعبير الأستاذ سعيد النورسي: "أدنى من الكل، والوظيفة أسمى وأعلى من الكل"[٨٥]، وإن كنا أناسًا بسطاء عاديين فهذا لا يمنعُ من أن يستعملنا الله ﷻ بعنايته وقدرته الأبديّة في خدماتٍ عظيمة جدًّا؛ وهذا لطفٌ وإحسانٌ إلهيٌّ صرفٌ لا يتأتّى إلا منه تعالى، وكلُّ ما يُقال في هذا الشأن من كلمات مثل: "نحن فعلنا، ونحن عملنا، ونحن خطّطنا لهذا بينما الآخرون ما كانوا يرون هذا ويفكرون فيه ولو حتى في أحلامهم" يفوحُ شِركًا، ولذلك فلا بدَّ من البُعْدِ التامّ عن مثل هذه المزاعمِ والأقوالِ، وعلى حدّ قولِ الأستاذ بديع الزمان -وكما هي القاعدة العربية- أيضًا فإن: "نفي النفي إثبات"[٨٦]، وعليه فإنكم لا تستطيعون الوصول إلى أية قيمة طالما أنكم لا تنكرون أنفسكم، وإن كان لا بدَّ من استيضاحِ المسألة بعبارة تتردّد وتتكرّر كثيرًا؛ فإن الخالدَ الباقيَ حقًّا واحدٌ ولا أحدَ

(٨٥) بديع الزمان سعيد النورسي: **الشعاعات**، الشعاع الرابع عشر، ص ٤٧٧.

(٨٦) بديع الزمان سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة السابعة عشرة، المقام الثاني، ص ٢٣٣.

خالـدٌ باقٍ غيـره، وإن كانت ثمة قيمة محـدّدةٌ للموجودات الأخرى أمـام الخالـد المطْلَـقِ فإنها الصفرُ ليس إلا، ولذلـك فإن العلاقة بين الإنســان والله ﷻ تُشـبه العلاقة بين الصفر والخلود؛ فالله هو الخالد الباقي، أما الصفر فهو الإنسان الفاني، غير أنه بالرغم من خلو الصفر مـن أيـة قيمـة ذاتيـة إلا أنّه يكتسـب قيمة إذا مـا اسـتُخدِم عن يمين الأرقام؛ وهكذا الأمر بالنسـبة للإنســان فإنه حين يلجأُ بعجزه وفقره إلى الله تعالى يكتَسِـبُ قوّة عشرات، بل مئات، بل وآلافٍ كالأصفارِ التي توضَـعُ إلى جوارِ أَلِفِ لفظِ الجلالة.

الظلم لا يدوم أبدًا

وإذا انتقلنا إلى الشـطر الثاني من السؤال؛ فإن الأرواح المخلِصة التي نذرت نفسها للخدمة ابتغاءَ مرضاة الله قد يُحيطها ويطوقها بعدة أطـواق الظالمـون الجائرون الذين لا يعترفون بحـقِّ أحدٍ غيرهم في الحيـاة، ويُخطِئُـون فـي فهم معنى التنافس (التسـابق في سـبيل الله)، ويتحركون محشـوِّينَ بِمشـاعرِ المزاحمةِ ثم يقولون: "نحن فحسـب ولا أحـد غيرنـا فـي هذا العالـم!"، غير أنه يسـتحيلُ توقُّـعُ اسـتمرارِ هـذا الوضـع ودوامِـهِ إلـى الأَبَـدِ، لأنَّ الظلمَ لـم يدم فـي أيِّ زمان علـى الإطـلاق، والله تعالى يُمهل الظالم، ولا يهملُـهُ، وكما وردَ في الحديـثِ النبويِّ الشـريف فـ"**إن اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّـى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ** ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ (سـورة هُودٍ: ١٠٢/١١)"[٨٧]. أجل، "قد يدوم الكفر لكن الظلم لا يدوم"؛ فَيُرْجِـئُ الله ﷻ الكفر للنظر فيه في المحكمة الكبرى يوم الحسـاب،

(٨٧) **صحيح البخاري**، تفسير سورة هود، ٥؛ **سنن الترمذي**، التفسير، ١٢.

فيعاقب عليه في حضرة كبريائه، غير أن الظلمَ ينالُ عقابه في الدنيا إما عاجلًا وإما آجلًا، ويلقى الظالمون جزاءهم لا محالة لأنه اعتداء على حقوق العامة، وحقوق الأبرياء.

كما أن هذا الطريق هو طريقُ الله، والله جَلَّ جَلَالُهُ لا يتخلّى أبدًا عمن يسير بإخلاصٍ وصدقٍ في هذا الطريق، وكما تفضّل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية الكريمة ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ١٤٠/٣)؛ فإنه يُعرِّض للهزيمة أحيانًا، ويمتحنُ بابتلاءاتٍ ومصائبَ أحيانًا أخرى لِحِكَمٍ مختلفةٍ يعلمُها هو جَلَّ وَعَلَا، ويُشكِّلُ الأشياء والحوادث بِيَدِ قُدْرَته وفق ما يريد سبحانه، ولذلك فإن كان اليومُ عيدًا بالنسبة للبعض؛ فالغدُ عيدٌ بالنسبة للبعضِ الآخر، وإن كان اليوم مأتمًا للبعضِ فالغدُ مأتمٌ للفريقِ الآخر، إذن ينبغي للأبطال الراغبين في إبلاغِ الإنسانية بإلهاماتِ أرواحهم ألا ينشغِلوا بما يقوله ويفعلُه الجاهلون، بل على العكس تمامًا، فينبغي لهم أن يقولوا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة القَصَصِ: ٥٥/٢٨)، وأن يشغلوا قلوبَهم وعقولَهم بالبحث عن "كيفية إيصال دساتير القرآن الماسيّة وجماليات الإسلام إلى الناس على أفضلِ نحوٍ وأحسنه"، ولِقلوبِ المخاطبين حينئذٍ أنْ تقبلَ أو ترفضَ بإرادتها الحرّة؛ فالنتيجة ليست من شأننا، لكنَّ العملَ مطلوبٌ منا؛ فعلينا أن نُغَلِّفَ هذه القِيَمَ الخاصّةَ بنا بأجملِ الأغلفةِ، ونزيِّنَها بأكثر النقوش والزخارف بهاءً، ثم نُسَوّقها ونطرحُها في الأسواق العالمية بأكثرِ الأساليبِ جذبًا.

أجل، يلزم ألا ننظرَ إلى فتراتِ التعرُّضِ للظُّلْمِ والاضطهادِ على أنها ظلامُ ليلٍ حالكٍ دامس، وألا نَقْنَطَ وألا نتشاءَمَ أبدًا،

لأنه وكما يُخَلِّفُ كلُّ شتاء ربيعًا؛ فكلُّ ليلٍ يعقبه صباحٌ بلا شكٍ، ولذا يجب ألا ننسى أنَّ نهارًا سيأتي بعد الليل البهيم، وأنَّ شمسًا ستُشرِقُ بعدَ السوادِ الحالك، فينبغي لنا أن نُعِدَّ في ظلام الليل خطَّةً لمستقبلٍ مشرقٍ منيرٍ، وبالشكل نفسه يلزمُنا أن نضعَ في حسباننا ونحن ننعمُ بالنهار أن ليلًا آخر سيخلفُه، وبتعبير آخر فإنه حريٌّ بالمؤمن بينما يحثُّ جوادَه في جوِّ النهار المنيرِ فرحًا فخورًا ويتبختر به يمنةً ويسرة؛ ألَّا ينسى أن ليلًا آخر سيحلُّ بعد النهار، وعليه أن يجهِّزَ خطَّةً وإستراتيجيّة مستقلّةً لهذا الليل؛ لأن أحداث التمرُّدِ والتنازُعِ لم تنقطِعْ ولم تتوقّف قطُّ على وجهِ الأرض حتى اليوم ولن تتوقَّفَ؛ فستظهر حركاتٌ من العناد والعصيان تتمحورُ حول الإلحاد والكفر أحيانًا، والحسد والغيرة أحيانًا أخرى، سوف تعترض طريق الناس بآلاف من الحِيَلِ والمؤامراتِ، ولهذا السبب يجب ألا نُبقيَ تفكيرنا معلّقًا بسواد الليل وألا نُصابَ بالذعرِ والهلعِ منه، وألا نفرحَ بِضياءِ النهارِ ونركنَ إليه؛ علينا أن نُعِدَّ ليلًا خُطَطَ النهار (المستقبل) ومشاريعه، ونجهز نهارًا أيضًا إستراتيجيات الليلِ (الأزمات) وظلمته.

الحركة والعمل الدائمان المتواصلان

ينبغي لمثل هذه القلوب المؤمنة أن تستثمرَ كلَّ لحظة من عمرها في فلكِ العمل الصالح؛ فتحملَ إلى الليل ضوءَ النهار، وإلى الشتاءِ دفءَ الربيع، فالإيمان في حدِّ ذاته يُكلِّفُ الإنسان بالعمل الصالح في كلِّ موقفٍ وظرفٍ بقدرِ ما يطيقُه.

ويمكنكم من أجل فهمِ معنى العمل والحركة الدائمين المتواصلين بهذا المعنى أن تتذكَّروا ذلك المسير في أثناء الطواف،

فكما هو معلومٌ فإن المُسلِمَ حينما يرملُ في الطواف فإنّه يُسرعُ في إنجازِ الأشواطِ مع هزِّ الأكتافِ وتقاربِ الخطى ما دام صحنُ الطوافِ يسمحُ بذلك، فإذا لم يسمح المطاف بذلك لشدّة الزحامِ فإنه يُراوِحُ مكانه متلبّسًا بالحركةِ والقفزِ دون إيذاءِ أحدٍ، أي إنه يتحرك على كلِّ حال، فيحافظ على شدّه المعنوي، ويواصل -بإذن الله وعنايته- مسيرَهُ في المكانِ والزمانِ المناسِبَينِ.

أجل، إن الجمودَ قصورٌ ذاتيٌّ، والأشياءُ بطبيعَتِها جامدةٌ، ومن يُحَرِّكُها هو الله ﷻ، والإنسانُ مرتبطٌ بنواميس عالَمه الطبيعيّ، فحينما يقفُ في مكانه يبدأُ في مرحلةِ السقوطِ والتشتُّتِ، مثلُهُ في ذلك مثل النيازِكِ تمامًا حين تتعرض لفراغٍ جوّيٍّ؛ فإنها تقعُ تحت تأثيرِ جاذبيّةٍ أخرى، فتتآكل بالاحتكاكِ، ثم ما تلبثُ أن تذوبَ وتنقرِضَ، لكن الإنسان إن واصلَ الحركةَ حيث يكون مثلما تواصلُ الشمس والنجوم والقمر دورانها؛ فإنه يظل حيًّا، وينشر حوله الأنوارَ والأضواء التي يستمدّها من نورِ الحقيقة.

وإن تقسيم الحقِّ تعالى العباداتِ الواجبة على فتراتٍ زمنيّةٍ محدّدةٍ وموزّعَةٍ على مدارِ اليومِ وتكليفَهُ بها مثالٌ لافتٌ من أجلِ فهمِ روحِ وكُنْهِ الحركةِ الدائمةِ والمتواصلةِ.

فالإنسان يقومُ في جزءٍ محدَّدٍ من الليل امتثالًا لقوله تعالى: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ**﴾ (سورة الإِسْرَاءِ: ٧٩/١٧)، فيتلو القرآن، ويصلّي صلاة التهجُّد، ويجأرُ في وقت السَّحَرِ أيضًا بالاستغفار ممتثِلًا قولَ الله تعالى ﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ**﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: ١٧/٥١)، فإذا حان وقتُ صلاةِ الصبحِ يُصلي سنَّةَ الفجرِ أوّلًا ثم الفرض،

وحين تُشـرِقُ الشـمسُ ويزولُ وقت الكراهة يُصلِّي صلاةَ الإشـراق، كما يصلي صلاة الضحى حتى قبيل صلاة الظهر، فيقيم صلاةَ الظهر فـي الوقـتِ الذي تُثقِلُ كاهلَهُ أعباءُ عمله اليومـي، وعندما يُقبِلُ على الحضـرةِ الإلهيـة بأداء صـلاة العصر يكـونُ وكأنَّهُ حـوَّل تعب اليوم الساحِقِ الذي زاد عليه إلى رحلة تأملية في آفاق الروح، فينعمُ بقسطٍ من الراحةِ، ثم يؤدّي صلاتي المغرب والعشاء بنفس الشعور والفكرِ أيضًا، وبهذا يَسْلَمُ من أيِّ فراغٍ وخواءٍ روحيّ.

لقـد وزّعَ الله تعالـى عباداتنـا اليوميّة وفقَ تقويم زمنـي لا يتخلّلُهُ الفراغ، وعليه فينبغي تقسيمُ الخدماتِ التي ستُبْذَلُ في سبيلِ الإنسانية لِتُنْجَزَ على مدارِ أسابيع وشهور ومواسم بل وسنوات عملًا بمفهوم الحركـة والعمـل الدائِمَيـن المتواصِليـن، وحـريٌّ بـكلِّ مؤمـنٍ فيما يتعلَّـقُ بهـذا أنْ يعملَ وكأنَّهُ خبيرٌ إسـتراتيجيّ؛ فيُحـدِّدُ الأعمال التي يسـتطيعها من أجل نفسـه وعائلته والمجتمع الذي يعيش فيه، وبهذا يحمـي حيويّتـه الذاتيّة وطاقتَـهُ الإنتاجيّة؛ لأن أجدادَنـا قالوا: "يلمـعُ الحديد عندما يعملُ"، ومن هنا فإن العملَ والنشاط الدائم هو السبيلُ إلى البريقِ والحياةِ دون اندثارٍ أو تعفُّنٍ.

وقد اسـتخدم القرآن الكريم في أغلَـبِ الآيات التي تحدَّثَ فيها عـن المؤمنيـن عبارةَ ﴿وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ﴾ (سـورة البَقَـرَةِ: ٢/٢٥) فَلَفَتَ بذلـك النظـرَ إلى جانبِهم الحركـيّ والعمليّ؛ فالعمـلُ الصالِحُ يعني العملَ التامَّ دون نقصٍ ولا قصورٍ، وكما سبقَ في مثال الصلاة؛ فثمة ضرورة إلى مراعاة الخشوع أي العمق الداخلي الذي يعكس العلاقة بالله تعالى إلى جانب مراعاة أركان الصلاة وشروطها من أجل أدائها

أداءً تامًّا كاملًا، وجميعُ الأعمالِ التي يضطلع بها المؤمن تقتضي منه أيضًا أن يؤدّيها مراعيًا شروطَها الداخليَّة والخارجية على حدٍّ سواء، وهكذا وبعد أن يؤمن المؤمنُ بالله وتنطبقَ عليه صفةُ الإنسان الأمينِ فإنه لا يتركُ اعتقادَهُ مجرَّدَ أمرٍ نظريٍّ، وإنما يؤيّده ويقوّيه بالحركة والعمل.

وكما كان الحال في عصر الخلفاء الراشدين خاصةً، وعصر السلاجقة وأوائل العصر العثماني فإن الأفراد والمجتمعات التي كانت تضطلع بأعمالها في إطار روح الحركة الدائمةِ ليلَ نهار ثَبتَت وصمدت بإذن الله وعنايته؛ إذ سارَتْ قُدُمًا دون أن تتردَّى أو تتهاوى، ولكن يمكن القول ارتباطًا بفكرة الأتمِّيَّةِ والأكمليّة -ولا أقولُ هذا طعنًا في أجدادنا العِظام ولا تشنيعًا بهم؛ فأصغرهم تاجُ رأسي وسيّدي- إنه ما إنْ حدث فراغٌ وخواءٌ في خطَّةِ الفِكْرِ والحركةِ والعملِ حتى قعدَ الحكّام عن الخروجِ للجهاد على رأسِ الجيوش، وبدؤوا يعيشون حياة فارهةً في القصور، وبطبيعة الحال وبالتوازي مع هذا؛ أسلمَ الشعبُ نفسَهُ للراحةِ والفتورِ، ونسيَ السعيَ والركضَ من أجلِ تحقيقِ فكرةٍ مثاليّة سامية، وخلدَ إلى الفراش الوثيرِ الدافئِ، وقد تعرَّضَ من أسلموا أنفسَهم لقبضةِ وحشِ الدنيويّة على هذا المنوالِ لِغَدْرِ أهوائهم، وانصهَرُوا وسقطُوا في شِباكِ رغباتِهم الدنيويّة وشهواتِهم البدنيّة، وفي فترةٍ كهذه تغيَّرَ فيها وفَسَدَ تمامًا مِحوَرُ "مفهومِ المجتمع" فَشِلَتْ وخابَتْ -رغمَ المحاولات المتكرّرة- آمالُ الحكّام من أمثال مراد الرابع، وعثمان الثاني اللذين كانا يَعرفانِ جيّدًا ما يقعُ على عاتقهما من مهمّات، وربما أنَّ هذا حدث بفعلِ أساليب شتى استخدمَتْها بُؤَرُ الشر الداخلية والخارجية.

والحاصل أن من أسلموا أنفسَهم للجسمانية ولِدَعَةِ الحياة الدنيويّة وفتورِها تعرّضوا -ودون أن يدرُوا أو يُدركوا أيَّ شيءٍ- لِغَدْرِ تلك الراحة والدعة، ووقعوا ضحيةً لها؛ فهلكوا.

الوفاق والاتفاق من جديد

سؤال: يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف: "إِنِّي سَأَلْتُ اللهَ ثَلاَثًا فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِسَنَةٍ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنَعَنِيهَا"[٨٨]؛ فما القاسمُ المشترك بين المسائل المذكورة في هذا الحديث؟ وما الذي تتضمَّنه من رسائل؟

الجواب: لقد احتفى القرآن الكريم بالكثير من قصص الأنبياء عبرةً وذكرى للمؤمنين، ومما كان مهمًّا في ذلك تبيانُ العاقبةِ الوخيمة للأممِ المكذِّبة، وتوضيحُ العقوبةِ الأليمة لمن يُصِرّ على الكفر والطغيان؛ فقومُ نوح عليه السلام أهلكهم الله بطوفانٍ عظيم، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ (سورة العَنْكَبوتِ: ١٤/٢٩)، ويقول الله في عادٍ قومِ هودٍ عليه السلام: ﴿**إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۞ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ**﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: ٥١/٤١-٤٢)، وفي قوم صالح عليه السلام: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ**﴾

(٨٨) سنن الترمذي، الفتن، ١٤؛ سنن ابن ماجه، الفتن، ٩.

(سورة القَمَرِ: ٣١/٥٤)، وفي قوم لوطٍ قال تعالى: ﴿**فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ**﴾ (سورة الْحِجْرِ: ٧٤/١٥).

غيـر أننـا لا ندري هـل كانت الآفـات الإلهية التـي تعرضت لها الأمم السالفة مقتصرة على منطقةٍ معينة أم أنها عمّت سطح الأرض كلهـا! ولكـن إذا ما أخذنـا بعين الاعتبـار أن الأنبياء السـابقين كانوا يُبعَثـون إلـى أقوامهم خاصـة فربما يمكننا أن نقـول حينئذ بأن هلاك كل أمة كان محدّدًا بالمنطقة التي تعيش فيها، وعلى ذلك فإن الهلاك كان محصـورًا فـي هؤلاء القوم الذين كفروا بأنبيائهم ولا يتعدى إلى غيرهم، ولكن لما كان سيدنا محمد ﷺ قد أُرسل إلى الناس كافة فإن هلاك أمته كان سيشـمل كلَّ من كان على وجه البسيطة من الكافرين والظالمين الذين لم يستجيبوا لدعوته كما اقتضت سنة الله تعالى.

الدعاء المستجاب

ولهذا السبب دعا سيدنا رسول الله ﷺ ربه ألا يهلك أمَّته بسَنة أي بطامّةٍ عامة؛ وإن قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْـتَغْفِرُونَ**﴾ (سـورة الأَنْفَـالِ: ٣٣/٨)؛ لَيوضـح لنا أن الله تعالى قد استجابَ دعاء نبيه ﷺ.

وكمـا هو معلوم أن لرسـولنا ﷺ خصائص اختصّه الله تعالى بها، من هذه الخصائص المحمدية أن الأمة المحمدية لن تتعرَّضَ للهلاك العامّ الذي أصاب أقوام الرسـل السـابقين طالما كان رسـول الله ﷺ يعيـش بين ظهرانيهم، وهذه حقيقةٌ مسـلّمٌ بها وفقًا للمعنى الظاهري للآية، غير أنه من الممكن اسـتنباط المعنى التالي من الآية من حيث التفسـير الإشـاري: إن الله تعالى لن يعمّ الأمة المحمدية بعقابٍ عامٍّ

من عنده كما فعل مع الأقوام السابقين طالما عاش سيد الأنبياء ﷺ في قلوب المؤمنين الموحدين، فلو ترسخت الروح المحمدية بين المؤمنين فإن الله تعالى كما حفِظَ الأمة المحمدية في حياة مفخرة الإنسانية ﷺ فَسيشملها بعد وفاته بعفوه ومغفرته ويكلؤها بحفظه ورعايته إلى يوم القيامة.

ولقد بينت الآية أيضًا أن الاستغفار هو أحد الوسائل التي تحفظ المؤمنين من الهلاك؛ فلو أن الأمة المحمدية إذا ارتكبت خطأً ما أو انحرفَت عن الطريق خطوةً استقامَتْ على الفور واستغفرَت ربَّها؛ فإن الله تعالى سيحفظها من النوازل المحتمل وقوعها عن يمينها وشمالها ومن فوقها ومن تحتها، ولن يجعل عاليها سافلها.

خلاصة القول: إن الله تعالى قد استجاب دعاء نبيه ﷺ بألا يعمّ أمته بهلاكٍ من عنده، ولقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة، وقرَّرَ التاريخُ هذا الأمر وأبانه بوضوح.

تكرُّرُ التاريخِ يشهدُ بأنَّ الأَسْرَ إن حَدَثَ فهو مؤقّت

ثم سأل سيدنا رسول الله ﷺ ربَّه ألا يسلّط على أمته عدوًّا من غيرهم فاستجاب له؛ وهذا يعني أنه ﷺ قد رأى بعين الغيب أن المؤمنين سيرزحون أحيانًا تحت نير الاحتلال، غير أن هذا الوضع لن يستمر إلى الأبد، فبعد أربعة أو خمسة قرون من وفاة سيدنا رسول الله ﷺ تعرَّض المسلمون للحملات الصليبية المتتالية، ومن بعدهم جاء المغول، واحتلُّوا بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية، ولكن لم يدم بقاءُ هؤلاء جميعًا؛ إذ انهارَ الصليبيون والمغول ومَن جاؤوا بعدهم من الظالمين والمعتدين، وانتهى كلُّ هذا بفضلٍ من الله تعالى وعنايته.

والحقُّ أن الصليبيين قد أثخنوا العالم الإسلامي بالجراح؛ فقيّض الله تعالى "آلْب أَرْسْلان" و"مَلِكْشاه" و"قِلِيج أَرْسْلان" و"صلاح الدين الأيوبيّ" لِدحرهم وكفِّ أيديهم، فرجعوا من حيث جاؤوا وعادوا إلى بلدانهم بخفّي حنين، وبعد ذلك أعزَّ الله تعالى السلاجقة، وأتاح لهم فرصة القيام بمهمة حِفْظِ العالم الإسلامي لمدة قرنين من الزمان.

فلمّا ضعُف السلاجقة وشلّت حركتهم بسبب حركات التمرّد الباطنية بزغَ في وسط الأناضول كيانٌ جديد ملأَ كلَّ الآفاق وكأنه يرقةٌ خضعَتْ لِتحوُّلٍ جذريٍّ فأصبحَت فراشة.

أجل، قامت الدولة العثمانية بحفظ الحدود الشمالية للعالم الإسلامي، وكما يقول مالك بن نبي رحمه الله: "إن لم تكن الدولة العثمانية قائمة على ثغور العالم الإسلامي من ناحية الشمال لما كان هناك ما يسمى الآن بالعالم الإسلامي"؛ فقد حبا الله تعالى العثمانيين بإدارة الدولة والوصول بها إلى أعلى المستويات على مدى أربعة قرون من تاريخ الإنسانية، وهذا فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده.

إن العالم الإسلامي في الوقت الراهن يرزحُ تحت أغلال احتلالات من نوعٍ آخر؛ فقديمًا كانت تُستخدم القوّة الغاشمة في فرضِ الاحتلال، أما الآن فقد أصبح الاحتلال يتحقّق على يد دُمًى من أبناء العالم الإسلامي، ومن خلالهم أحكم الآخرون السيطرةَ على هذا العالم؛ وما هذه الدُّمى إلا شخصيات لديها استعدادٌ فطريٌّ لخدمة أغراض الآخرين وأطماعهم، وبسببهم وقعَ العالم الإسلامي تحت الوصاية.

ولكن كما شهدنا تكرّرَ مثلِ هذه الحوادث على مدى التاريخ فإننا على أملٍ إن شاء الله بأن تنعم الأمة الإسلامية بحرّيَّتِها واستقلاليتها، ومن يدري أيّ نملٍ سينخر في قصور الفراعنة مرة أخرى؟ وأيّ بعوضٍ سيدمّر النماردة؛ لأن رسول الله ﷺ سأل ربه هذا فاستجاب له، وبشَّرَه بأنه لن يُسلِّطَ على أمته عدوًّا من غيرها.

مصدر الخلاف: الضعف البشري

وأخيرًا نقول: إن مفخرة الإنسانية محمدًا ﷺ قد رأى بعين الغيب ومن خلالِ أفقه الواسع وفطنته العظمى أن الحرصَ والطمعَ والحسدَ والغيرةَ وحبَّ المنصب والشهرة والرغبة في الظهور وغير ذلك من المشاعر السلبية ما هي إلا نقاطُ ضعفٍ تُفرّق الناسَ وتشتتهم وتزرع الخلاف بينهم، وتجعل بَأسهم فيما بينهم؛ من أجل ذلك دعا الرسول ﷺ ربَّهُ أن يحفظَ أُمَّتَهُ من مثل هذا الخطر، ولكن لم يُستجب له.

لأنها مسألةٌ على الناس أن يتغلبوا عليها بإرادتهم، ورغم أن الحق تعالى لم يردّ دعاء نبيه كُلِّيَّةً ولم يقل له: "كلا، إنني سأذيق بعضَهم بأسَ بعض"؛ فقد أحالَ مسألة وحدتهم إلى إرادتهم؛ لأن الله تعالى -سامحوني- لم يخلق الإنسانَ بهيمةً، أو شجرةً أينما وُضعت لا تتحرك من مكانها، وإنما خلقه إنسانًا ومنحه الإرادة، ولذا على الإنسان أن يكافح ما تنطوي عليه نفسُه من مشاعر سلبية؛ مثل الحسد والغيرة والحقد والغِلّ، وأن يعطي إرادته حقها؛ حتى يتمكَّنَ من الرُّقيِّ في مدارجِ الكمالات الإنسانية إلى أعلى مراتبِها؛ وبعبارة أخرى: لم يعهد الله تعالى للأمة المحمدية بمسألة تحقيق

الوفـاق والاتفـاق كمكافـأة، وإنمـا ربـط التوفيـق في هذه المسـألة في إطارِ الشرط العاديّ باستخدام الإنسان لإرادته.

من أجل ذلك لو أراد المؤمنون أن يتوافقوا ويتصالحوا ويتضامنوا فيمـا بينهم فعليهـم أن يحتضنوا الجميـع، وأن يكونوا -فيما يخص حقوقهم الفردية- بلا يدٍ لِمَنْ ضربهم وبلا لسانٍ لمن سبّهم وبلا قلبٍ يَغضَب لمن كَسَرَ خاطرهم، وأن يُحافظوا على أن يكون بابُ الوفاق والاتفـاق مفتوحًا على الدوام، فإن أَعطـوا إرادتهم حقها ووُفِّقوا في هـذا الأمر فلا بد أن تتحقَّقَ الوحـدة والتضامن في هذه الدنيا بفضل من الله وعنايته، أما في الآخرة فسيحظون بألطافٍ إلهية من نوعٍ آخر، وسيعود عليهم جهدهم وسعيهم في هذه الدنيا بشكل مختلف تمامًا.

كالصاروخ على منصة الانطلاق...

وكمـا أن الإنسـان يتحوّل إلى صـرحٍ من العِفَّةِ عندمـا تلحّ عليه رغباته الشـهوانية غير المشـروعة فيقمعها ويوفِّي إرادته حقَّها، وكما يتحـول إلـى بطلٍ من أبطال الاسـتغناءِ إن اطَّلَعَ على مـا أنعم الله به علـى الآخريـن فلم يحسـدهم أو يطمع فيما لديهـم؛ فكذلك إذا ما أرغم الإنسانُ نفسَه على الوفاق والاتفاق وأعطى إرادته حقَّها يُصبحُ صرحًا من صروحِ الفضيلة.

أجل، قد يُسـيء لكم البعضُ بإسـاءات لا يَتصورُ عقلٌ حدوثَها، ويضـع الأشـواك والأحجارَ فـي طريقكم حتى يمنعكم من السـير، ويقوّض الجسـور التي تمرون عليها ليعرقل مسـيرتكم، ويرغب في أن يعزلكـم كلّيـةً عن المجتمـع، ولكن إن كنتم تريـدون أن تكونوا

صروحًا للفضيلة وتصِلوا للوفاق والاتفاق فعليكم أن تتغاضوا عن كلِّ هذا وتستمرُّوا في طريقكم قائلين: "لا شيءَ يدوم!"، فإن انهدَمَت الجسورُ التي تسيرون عليها فأَقيموا جسورًا بديلة جديدة في أماكن أخرى، واستمروا في طريقكم بفضلٍ من الله وعنايته حذِرِينَ من الوقوعِ في الخلاف، حتى وإن كان الآخرون قد اتَّخَذُوا الخلافَ شعارًا لهم.

سيأتي يومٌ يَفِدُ عليكم فيه بعضُ مَن كانوا يسيؤون إليكم فيُعربون عن ندمهم، وحينئذ يجبُ أن يجدوكم على ما كنتم عليه، فإن طلبوا الاعتذار منكم فتعاملوا معهم بشهامة ومروءة، وقولوا لهم: "معاذ الله، لا علمَ لنا بهذا، إننا دائمًا نشعرُ أنكم إلى جانبنا في نفسِ الخندقِ على الدوام".

نعم، اِفْعلوا هذا رغمَ أن الواقعَ يشهدُ بأنهم كانوا قد ابتعدوا عنكم فراسخ عددًا نتيجة الحسدِ والغيرةِ؛ وبأنَّهم دائمًا ما كانوا يؤلّبون الغير عليكم قائلين: "اقطعوا عليهم طريقهم، ونالوا منهم، ولا تعترفوا لهم بحق الحياة!"، وبأنهم حينما كانوا يرتكبون هذا الظلم لم تكن بحوزتهم حجج معقولة تقرّهم على ما يفعلون، بل كان دافعهم إلى هذا الحسد والغيرة ليس إلا، ولا شك أن شعور التنافسِ يكمن حتى داخل أكثرهم صفاءً وطُهرًا، فيحاول بعضهم احتكارَ بعضْ المجالات لنفسه ولا يسمح للآخرين بالمشاركة فيها.

وهكذا فإنها لَميزةٌ عظيمة بالنسبة لأرباب الحقِّ أن يتغاضوا عن كل هذا، ولا يعتدّوا به وكأنه ما كان، وأن يثبتوا على موقفهم.

قراءةُ طبيعة البشر قراءة صحيحة

من جانب آخر ينبغي ألا ننسى أنه من المتعذر الحفاظ دائمًا على الوفاق والاتفاق، فالخلاف في بعض المسائل قائمٌ بين الناس على الدوام؛ لأن الإنسان فُطِرَ على ذلك؛ ومن ثمّ فعلينا أن نعترفَ بحقيقةِ أنه من الممكن أن نرى تصرُّفاتٍ لا نتوقَّعُها في ظلِّ الظروف الراهنة، وإن كنا نسعى لتحقيق الوفاق والاتفاق بين الناس فعلينا أن نعترف بذلك حتى لا يتسرَّب اليأسُ إلى نفوسنا بسبب خيبة الأمل التي قد تصيبنا عند مواجهة الأحداث المريرة التي تُحرق الفؤاد.

وقد جعل اللهُ مثلَ هذا الوفاق والاتفاق بين الصحابة الكرام رضي الله عنهم الذين كانوا يحيطون بسيدنا رسول الله ﷺ، ومِنَ الذين جاؤوا مِن بعدهم مَنْ وُفِّق -على مستوى الظِّلِّيَّة لأن ما يخص أصحاب رسول الله أصلٌ- لتوطيد علاقات الأخوة مع من حوله ولِإقامة بنيانٍ مرصوصٍ معهم من أجل الحفاظ على روح الوحدة والتضامن مقتفيًا آثار الصحابة الكرام وفي مقدمتهم ساداتنا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، كما شهدنا هذا بين طلائعِ الرعيلِ الأوّل من طلبة الأستاذ النورسي رحمه الله، ولكن لا يمكن القول إن مثل هذا الصفاء والنقاء قد تمَّ الاحتفاظُ به دائمًا بسبب ما خالطه من مفاهيم مختلفة وآراء فلسفية متباينة.

أجل، قد توجد بعض نقاط الضعف لدى كل إنسان، وقد يقوم البعض بتصرفات تخلّ بالتناغم العام للهيئة التي ينتمون إليها، وقد لا يقدر البعض الآخر على أن يستوعبوا شعور الوحدة والاتحاد، ولا يستطيعون إذابة جليد أنانيتهم في حوض الشخصية المعنوية

للمسلمين فيخسرون ذلك الحوض الكبير، فعلينا إزاء كل هذا أن نقيّم الأمور بِسَعَةِ ضمير، وألا نغضب لِأخطاء البعض وقصورِهم، فلا نُبعدهم عنّا، بل نحاول كسبَهم، ونسعى في إصلاحهم، حتى نوصّل المهمة التي حمَّلَنا الله إياها إلى برِّ الأمان قدرَ استطاعَتِنا.

لقد أمر القرآن الكريم في عدة آيات المؤمنين بأن يدفعوا السيئة بالحسنة، وأن يتمثّلوا العفو والسماح، وعلى ذلك يجب علينا أن نتعامل وفقًا للضوابط التي حددها لنا القرآن الكريم، وأن نتغاضى عن العيوب قدر الإمكان، وإلا أرهبْنا الكثيرين وجعلناهم يلوذون بالفرار من أمامنا، وهذا أيضًا يضر بالجماليات التي نُحاول القيام بها في سبيل مرضاة الله تعالى.

أجل، إن كنا نريد الحفاظ على الوفاق والاتفاق فعلينا ألا ننبذ أحدًا أو نعزله أو نُقْصِيه بسبب أخطائه وعيوبه، بل لا بدَّ أن نبحثَ عن السبل التي توصلنا إلى قلوب الجميع، وعلينا أن نجدَها، ثم نحاول احتضانهم وإصلاحهم.

عليكم بالبصيرة

سـؤال: **لطالما تحدثتم عن مسألة السير على بصيرة في كتاباتكم وجلساتكم الإيمانية، فكيف لنا أن نفهم هذه المسألة؟ وكيف نطبقها في حياتنا؟**

الجـواب: البصيـرة تعني ضبط المسـائل بمعاييـر القلب الدقيقة فضلًا عن العلم والتجربة وإخضاعَها للتحليل والتركيب ثم الوصولَ إلى سـعة إدراكٍ تسـمح بتنـاول تلـك القضايا بمقدماتهـا وخلفياتها وبداياتها ونهاياتها؛ فإذا كان البصر يعني دراسـة الأشـياء والأحداث بنظرةٍ مادّيّة، فالبصيرة هي استيعاب الأشياء والحوادث بعين القلب؛ ومن ثم فالبصيرة هي بمثابة هادٍ نورانيٍّ يرشـد الإنسان للوصول إلى الحـق والحقيقـة وتبليغِهمـا للآخرين، فمـن المتعذر لمـن حُرم نور البصيرة أن يقيّم الأشـياء والحوادث بشـكلٍ صحيح، ويجري عليها تحليلاته وتركيباته بشـكل سـليم، ويصل إلى قرارات بحقها بشـكل قويـم، وهُـم بعبارة القـرآن الكريـم: ﴿**لَهُمْ قُلُـوبٌ لَا يَفْقَهُـونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْـمَعُونَ بِهَا**﴾ (سـورة الأَعْرَافِ: ١٧٩/٧)، والحـال أن كلّ عضـوٍ مـن أعضاء الإنسـان يجب أن يُسـتخدم فيما خُلـق له، فالقلـب خُلق ليفقه مـا ينبغي فقهه، والعيـنُ خُلقت لتُبصِرَ

والأذنُ لتسمعَ والعقلُ لِيُدْرِكَ... ولكن الذين حُرموا البصيرة رغبوا بأنفسهم عن نور الوحي ودعوة الرسول فعاشوا كالأموات رغم أنهم أحياء. أجل، لهم أعين وآذان وأفواه وعقول وأيادٍ وأرجل لكنهم لا يستطيعون أن يستخدموها فيما خُلقت له، إن القرآن الكريم والسنة المطهرة هما مفتاحان سرّيّان يمكن من خلالهما فكّ رموز الكون، غير أنَّ عديمي البصيرة لمَّا لم يأخذوا بهما استعصى عليهم فتحُ أبواب الكون السرية، وحلُّ المشاكل في الحياة الفردية والاجتماعية.

وضعُ حلول بديلة

يقول النبي ﷺ في الحديث الشريف: "**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّته**"(٨٩)، وهنا يشير سيدنا رسول الله ﷺ إلى المسؤولية التي تقع على عاتق الإنسان؛ فلكلِّ شخصٍ وظيفةٌ منوطٌ بها في حياته الفرديّة والأسريّة والاجتماعية، فهناك فرد تقع عليه مسؤولية أسرته أو محلته أو ناحيته أو مدينته، وآخر عليه مسؤولية بحجم دولة كبيرة، فإن كل فرد حسب درجته ومرتبته مسؤولٌ عن ريادةِ الذين هم تحت مسؤوليته وتوجيههم وإرشادهم، أما إيفاء هذه المسؤولية حقها فمرهونٌ بالسير على نور البصيرة الذي ذكرنا طرفًا منه آنفًا.

ولزيادة الإيضاح نقول: إذا كان أصحاب المناصب والمقامات يريدون أن يُؤدّوا حقّ مناصبهم، ويُحرزوا التوفيق في أعمالهم فعليهم أن يُمَرِّرُوا قراراتهم على مصفاة القلب والوجدان إلى جانب العقل والمنطق والمحاكمة العقلية، فإذا ما أتوا بهذا الأمر على الوجه الأمثل فيجب عليهم أن ينظروا بنظرة الشفقة والمرحمة لمن حولهم،

(٨٩) **صحيح البخاري**، الجمعة، ١٠؛ **صحيح مسلم**، الإمارة، ٥.

ولا يحرموا الأحياء من شفقتهم، فلا يأكلوا حقَّ أحدٍ، ولا يتخلّوا عن الإنصاف والعدل.

ولو تفحصنا الحياة السنية لسيدنا وقدوتنا رسول الله ﷺ ما وجدنا فعلًا أو تصرُّفًا يتنافى مع البصر والبصيرة، وفي القرآن الكريم يأمر الحقُّ ﷻ نبيَّه ﷺ بأن يقول: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ (سورة يُوسُفَ: ١٢/١٠٨)، فهذه الآية ترشدنا إلى الحقيقة التي ذكرناها آنفًا، وتدعونا إلى الاقتداء بالمرشد الأكمل ﷺ، أشار ربنا ﷻ إلى أن سيدنا رسول الله ﷺ ومن سار على نهجه كانوا يتحركون على بصيرة في دعوتهم، أو يجب عليهم أن يتحركوا هكذا؛ وهذا يعني أن الدعوة تعتمد على العلم والمشاهدة والشعور، ووضعِ المشاكل المحتمل حدوثها في الحسبان، وتهيئةِ حلول بديلة لكلٍّ منها؛ فلا يُكتفى بإيجاد حل واحد فقط للمشكلة، بل لا بدّ من وجود حلولٍ متعدِّدة متنوّعة، فكلَّما كَثُرَت الحلول تكون معالجةُ المشكلة بشكلٍ أصحّ وأسلم؛ بمعنى أن السير كان وفقًا لما يقتضيه العقل السليم والروح السليمة والحسّ السليم.

أُفقُ البصيرة لدى الصحابة رضي الله عنهم

لقد أوضَحَت الآية أن الذين يتبعون سيد الأنبياء ﷺ كانوا يسيرون في دعوتهم مثل نبيهم على بصيرة، ويأتي الخلفاء الراشدون على رأس الذين أحسنوا اتِّباعَ سيِّدِنا رسول الله ﷺ، وفي هذا الصدد يقول ﷺ منوِّهًا بهذه المكانة الفريدة لهؤلاء الخلفاء العظام: "**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**"[٩٠].

(٩٠) سنن الترمذي، العلم، ١٦؛ سنن أبي داود، السنة، ٦؛ سنن ابن ماجه، المقدمة، ٦.

لكننا ننوه هنا أن ثمة تشابهًا حقيقيًا بين الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة ﷺ باعتبار الحياة التي كانوا يعيشونها، فلو كان هذا التشابه منعدمًا لما استطاعت البنية الاجتماعية التي عاشوا بينها أن تتقبَّلَ هؤلاء الخلفاء؛ بمعنى أن ثمةَ توافقًا جينيًا كبيرًا بين الخلفاء الراشدين والعشرة المبشّرين بالجنة، وبينهم وبين الرعيل الأول من الصحابة، وبينهم وبين الصحابة الكرام الآخرين، ولقد كان هذا التوافق يعتمد في الأساس على الصلة بالله تعالى، والتصديق بنبيه ﷺ، والامتثال لأوامر القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ومن هنا يمكن القول إن سيدنا رسول الله ﷺ ومن اتبعه من سادتنا الصحابة ﷺ كانوا يمضون في حياتهم على بصيرةٍ حقًّا، فبغير ذلك ما تمكنوا من التغلّب على كثيرٍ من المشاكل التي تعرضوا لها في صدر الإسلام أو في عهد الخلفاء الراشدين.

إحدى عشرة واقعة رِدّة تغلبت عليها البصيرة

ينبغي إجراء مقارنات مع يومنا الحاضر حتى يتسنى لنا فهمُ حجمِ المشكلات التي وقعت في تلك الفترة وكيف تمَّ التغلُّب عليها؛ ونحن الذين لم نستطع حتى الآن التغلُّب على ظاهرة إرهابيّة واحدة ظهرت بسبب الغفلة والإهمال لسنوات عديدة، لقد وقع في ذلك العصر ما مجموعه إحدى عشرة حادثة ردّة؛ ثلاثة منها في عهد سيدنا رسول الله ﷺ، وثمانية في عهد أبي بكر ﷺ، ولقد تمَّ التغلبُ عليها جميعها، ويُذكر أنه عندما رحلَ سيدنا رسول الله ﷺ إلى أفق روحه كان هناك زهاء مائة ألف صحابي؛ منهم الأطفال والمرضى والشيوخ وحديثو العهد بالإسلام، وقد استطاع أهل ذلك

العصر حلَّ إحدى عشـرة مشكلة عظيمة بحجم مشكلة الإرهاب في يومنا الحاضر، فحريٌّ بالأعين العمياء العاجزة عن رؤية هذه الحقيقة وبـالآذان الصمـاء العاجزة عن السـماع بهـا وغلاظ القلـوب الذين لا يسـتطيعون تحليـل المسـألة والتوليف بين أجزائها؛ أن يتحسَّـروا ويندموا بسبب بَلادَتهم وحماقتهم!

وعنـد النظـر إلى الأعمال التي قام بها سـيدنا أبـو بكر ﵁؛ فمن المؤكد أنَّ تنفيذها يحتاج إلى خمس عشرة أو عشرين سنة في الأقل، في حين أن خِلافَتَهُ استمرَّت سنتين وبضعةَ أشهر، وقد أنجز كلّ هذه الأعمال في هذه الفترة الزمنيّة القصيرة، فأيّة فراسةٍ، وأيّة بصيرة، وأيّة كياسـة تلك بـالله عليكم؟ أجل، إن سـادتنا الصحابـة رأوا ببصيرتهم العاليـة الأحـداثَ رؤيةً صحيحـةً، وقيّموها تقييمًـا صحيحًا، فقرَّروا بفضل الله القرارَ الصحيح بشـأنها وربما وضعوا حلولًا بديلةً متعدِّدةً في مواجهة المشكلة الواحدة، ولذلك فقد أدَّوا وظائفهم وواجباتهم المسؤولين عنها كاملةً لا نقص فيها.

أوّاه أيتها البصيرة! أين أنتِ؟

لـم يقتصـر أَتبـاعُ سـيدنا رسـول الله ﷺ على الصحابة فحسـب؛ ولذلـك فإنـه يجب على أفراد أمة محمد الذيـن يأتون من بعدهم أن يدعـوا إلى سـبيل الله ويُنجـزوا كل أعمالهم بالبصيرة؛ لأنه يسـتحيل التغلُّبُ على المشكلات ما لـم تُدرس القضايا بالعقل السليم والقلب السـليم والحـسّ السـليم، والواقـع أن معظمَنا اليـومَ محرومٌ من نور البصيرة؛ إذ لا نسـتطيع في معظم الأوقات التغلب على المشكلات التـي نواجههـا، وكثيـرًا ما نعمَـد إلى الحـل، بيد أننا نحـوّل القضايا

التي نتناولها إلى عقدة من المشاكل، وفي العادة نحوّلها إلى معادلة مُلغـزة، فمثلًا حينما ننزلُ كالمطرقة التي لا ترحم على المشـكلة في منطقة اندلَعت فيها نار الفتنة والفوضى نظنُّ أننا سنقوّم الناس وإذ بنا قد خُدِعنا، لأننا كلّما طرقنا عليهم بالمطرقة الصمّاء تصلَّبوا وتشدّدوا أكثر، واليـومَ أيضًا تداخلـت القضايا فيما بينها وتعقّدت وتشـابكت حتى وصلت إلى نقطةٍ يتعذّر التغلب عليها.

أجل، إن الرعيلَ الأوّل ممن اتبعوا سـيدنا رسـول الله ﷺ جسدوا هـذا الاتبـاع بمعنـاه الحقيقي، وبمـا أن هذا الهـدف واضح لنا نحن الأتبـاع أيضًا فإننا مضطرون للتحرك ببصيرة مطلقة إن كنا نرغب في حلّ المشـكلات الفردية والعائلية والاجتماعية، فإن تحلَّيْنَا بالبصيرة الدائمة والحساسية الدائمة والتيقُّظ الدائم فإننا لا محالةَ سوف نَفُتُّ في عَضُد المشكلات التي تعرض لنا وسنليّنها حتى وإن كانت صلبةً كالجرانيت وسنحلها ونواصل طريقنا بإذن الله وعنايته.

وحمادى القول إن القرآن الكريم يدعونا إلى تفعيلِ دورِ البصيرة مـع كل حادثةٍ ونازلة، ولذلك فعلينا أن نَدْرُس طبائـع الناس ونحلِّلَ شـخصياتهم ونحـدد أوضاعهم الجيوسياسـية نوعًا ما، ونسـعى منذ الآن إلى رؤية وإدراك الأحداث التي قد تقـع بعد ثلاثين عامًا، ويجب علينـا -إن لـزمَ الأمـر- أن نُحَلِّـلَ القضايا في المراكز الاسـتراتيجية والمؤسّسـات الفكريـة، ونخضـع النتائج التي توصلـوا إليها في هذا الموضـوع إلـى القراءة المقارنة، فإن قَدَحْنَا زِنـادَ فِكرِنَا وأَعيَيْنَا عقلنا فـي هـذا الموضوع فإنّ الله تعالى لن يردّ جهودنا هذه دون مقابل ولا أجر، وسوف يهدينا إلى الطريق الأصوب والأصحّ بإذنه وكرمه ﷻ.

ملاحظات حول العلاقة بين الدولة والمجتمع

سؤال: إن ديننا الإسلام زاخرٌ بالمبادئِ الكفيلةِ بمواصلةِ الحياةِ في "توازنٍ تامٍ"، وانطلاقًا من ذلك فهل تُقيِّمون مكانَ الدولة ووضعها في العلاقة مع المجتمع؟

الجواب: قُدِّست الدول تقديسًا بيِّنًا وواضحًا في بعض مراحل التاريخ الإنساني، ومن ذلك على سبيل المثال أنَّ "الإمبراطورية الرومانية" تحوَّلت إلى "الإمبراطورية الرومانية المقدسة" على يد بعض رجالات الدين الذين كانوا خاضعين لسلطة القصر وضغوطه؛ وقد سجلها التاريخ كنموذج للنظام الثيوقراطي[٩١].

ونظام الحكم في الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم يتأسَّس اعتمادًا على النصوص والمصادر الإلهية، بل ارتَكَزَ على مجموعة من القوانين الوضعيّة التي نتجت عن اجتهادات بعضِ رجال الدين بحسب ظروف تلك الفترة؛ وذلك لأنَّ الهيمنة السياسيّة على الدولة كانت حكْرًا في يدِ طائفةِ الرهبان، وتعتمد على رفعة سُلْطَةِ آباء الكنيسة، وهو ما يذكرنا بـ"النظام الثيوقراطي"، والواقع يثبتُ أنَّ الدولة

(٩١) **الثيوقراطيَّة**: مذهب يقوم على تعليل السلطة السياسيَّة لدى الجماعة على أساس الاعتقاد الدينيّ ومنها نظريَّة "الحقّ الإلهيّ" في الحكم التي تعتبر أنّ الله ﷻ مصدرٌ للسلطة، وأنّ الحاكم بمثابة ظلِّ الله على الأرض، وتقوم الثيوقراطيّة على أساس العنصريّة.

قُدِّست في المراحل التاريخية التالية لذلك أيضًا؛ حتى إن بعض الأوساط قدّست الدولة وعظّمتها كمجرد ردِّ فعلٍ على الهجمات التي تتعرَّضُ لها الدولةُ والحكومةُ في مناطق جغرافية مختلفة، بل وحتى في بعض الدول التي يمثل المسلمون الأغلبية فيها.

غاية الدولة المثاليةِ

يحدث هذا مع أنه لا وجود في الإسلام لصنف مثل ما ذُكر أعلاه، والقوانينُ التي يصدرها رجال الدين وفقًا لأهوائهم ورغباتهم ليست ملزمة على الإطلاق، كما أنّها ليست "نصًّا" إلهيًّا.. وكما أنّه لا وجود لطائفة مقدَّسة في الإسلام؛ فلا مكان فيه أيضًا لفكرة "الدولة المقدسة".

أضِفْ إلى ذلك أن الدولة ليست غايةً في نظام الفكرِ الإسلامي، وإنما هي وسيلةٌ تساعدُ الناس على الوصولِ إلى سعادةِ الدارين، وواجبها تهيئةُ الأرضيةِ والمناخِ المناسب لإقامة حياة يتسنى للناس فيها إدراك الطمأنينة والسعادة في كلتا الدارين.

علاوة على ذلك فإنّ النظام الذي نطلق عليه اسم "الدولة" هو -بالنظر إلى النتيجة- اسمٌ لنظام كوّنه الناس فيما بينهم، وبالتالي فإنّ تلك الدولة تكُون قريبةً من الحق والحقيقة بقَدرِ قُربِ مَنْ كوَّنوا ذلك النظامَ منهما، وتَكُونُ بعيدة عن الحق والقانون بقَدرِ بُعدِهم عنهما.

وقد لا تستطيع كل دولة الوفاء بواجبها دائمًا على أتمّ وجه، أو ربما تُقصِّر في أداء واجبها، ولقد ارتكبت الدول بعضَ الأخطاء في شتَّى العصور باستثناء عصر الخلفاء الراشدين، وقد قَصَّر الأمويّون أيضًا، والعباسيون كذلك، وكما أخطأ الإلخانيون والقراخانيّون

والزنكيون والأيوبيّون والسلاجقة في واجب الدولة فإن العثمانيين الذين كانوا وسيلة لهبوبِ نسماتِ الأمن والطمأنينة في بقعةٍ جغرافية واسعة طيلة أربعة قرون وقعوا هم أيضًا ببعض التقصيرات والأخطاء في أداء واجبهم كدولة.

الفوضى لا تقودُ إلى النظام

وهنا يجب النظر إلى هذه المسألة نظرةً شموليَّة ووفقًا للمبادئ العامة دون إفراطٍ أو تفريطٍ، فكما أنَّ الإسلام حين يتناول الإنسان كفردٍ يُشيدُ بأفعاله الخيّرة ويكافئُه عليها، وينهاه عن المنكرات، ويذكِّره بعقوبَتِها وعاقِبَتِها؛ فإنه لا يحكم في الوقت نفسه عليه بالفناء التامّ لارتكابه مجموعةً من الأخطاء، ومن ذلك على سبيل المثال أنَّ المؤمن قد يخطئ، وقد يقعُ في الذنوب ويرتكب أعمالًا قبيحة؛ إلا أنَّه لا يُكفَّرُ ولا يُطرَدُ من دائرة الإيمان لمجرد أنَّه ارتكب تلك الأعمالَ المُشينة، فهو مؤمن طالما لم يعتقد أنَّ ما ارتكبه حلالٌ وجائزٌ، غير أنّه يكون مؤمنًا فاسقًا، أو مؤمنًا فاجرًا، أو مؤمنًا ظالمًا بحسب ما قارفَ من الذنوب، وهكذا الشعبُ والدولةُ أيضًا؛ فهما يتشكّلان من أولئك الأفراد الذين يُصيبون ويُخطئون، وبالتالي فقد يكون للدولة إجراءات وأعمال جميلة للغاية تُهنَّأُ عليها، وأخطاء وعيوب تحتاج إلى تصويب وإصلاحٍ، مَثَلُها في ذلك مثل الأفراد تمامًا.

ومتى رَعَتْ أيّةُ دولة الحقَّ والقانون والعدالةَ احترِمَت، وبُورِكت أعمالها وإجراءاتها، ولقيت الدعم والمساندة، غير أنها إذا ما ظلمت وجَاهرت بالظلم فإنه لا يصح السكوت على ذلك بحُجَّة "أنَّ الدولة

مقدسة، ويجب احترامها!"، بل يجب بذل الجهد من أجل منع الظلم والجور في إطار القوانين والأنظمة الدستورية، غير أنه لا بدّ من الانتباه ومراعاةِ أقصى درجات الحَذَرِ في هذه النقطة؛ لأنه يجب في أثناء محاولة إصلاح أيّ خطإٍ في القضايا المتعلقة بالمجتمع كله ألَّا يُفتح السبيل والمجالُ أمام حدوث أخطاء أخرى، وألَّا ينتج عن ذلك تكوُّنُ دائرةٍ من الأخطاء، وبينما نُحاولُ إصلاحَ الأخطاء الإداريّة علينا أن نتجنَّبَ شتى الأسبابِ المفضيةِ إلى تكدير الأمن والسِّلْم العام؛ فهذا مرفوض تمامًا ولا يمكن اللجوء إلى أيّ طريق غير مشروع؛ إذ إن المؤمن هو إنسان الأمن والأمان؛ وممثل السِّلم والطمأنينة، وهو يتحرك دائمًا في إطار القوانين والقواعد، ويعلم أنَّ الفوضى لا تقود إلى النظام، ولا سبيل إلى النظام إلا بالانتظام، وإن كنتم تنشدون الترتيبَ والنظامَ والسّلامَ؛ فسانِدوا النظامَ وانتظِموا به، ولا تخرجوا عن أُطُره أبدًا.

وبالنظر إلى الأمر من هذه الزاوية فإنه يجب على القلب المؤمن أن يساعد النظامَ والانتظام دائمًا مهما كانت الظروف، وأن يقدم للدولة التي ينتمي إليها كلَّ ما يستطيعه من أنواع الدعم فيما يتعلق بتحقيق الاستقرار والسِّلم، وعليه أن يقطعَ الطريق على الأرواح الفوضوية الراغبة في الإضرار بالدولة وإضعافِها واستغلالِ ضعفِها كي تسلُبها بعضَ الأشياء، فإن حدثت الفوضى في البلاد، وسادَ الشغب والاضطراب في عمومِ أرجائها خسرَ الجميع، وراحت سيول الفوضى تجرف الجميع أمامها فلا تبقى دولة ولا شعب -حفظنا الله-، ثم إنكم لن تستطيعوا مواجهةَ تلك التخريبات مرة أخرى، وفي الوقت نفسه فإنكم وإنْ كانت لديكم أفكار أكثر استنارة

ومشاريع أكثر بريقًا تصب في صالح الدولة لكنكم تعجزون عن تحقيقها على تلك الأرضية الهشّة؛ فعليكم أن تبدؤوا مباشرةً من النقطة الأقربِ إلى الأفضل إن كنتم تريدون المُضيَّ قُدُمًا في طريق الكمال، إذ يستحيل أن تبلغوا غايته بعد إشاعة الفوضى؛ لأنَّ الوصولَ إلى الكمال ونيلَ ما هو أفضل أمرٌ يحدث تدريجيًّا؛ حيث يتحقق الاقتراب نحو الأكمل خطوة خطوة؛ فتكتمل الخطوة، وتليها خطوة أخرى أكمل، فواحدة أخرى أكثر كمالًا، وهكذا دواليك... ومن ثمَّ فإنه ينبغي أن يكون شعارُ المؤمن هو مساندة الدولة في إصلاح الأخطاء، والوقوف بجانبها، وإن كان لديه مشروع يَعِدُ بمستقبلٍ طيب تقاسَمَه مع رجال الدولة.

هل الدولة ضدنا؟

ربما تقولون: "إن في أجهزة الدولة مَنْ يعارضون حتى أكثرَ الحركات إيجابية وفائدة، ويحقدون حتى على أكثر الخدمات إخلاصًا وسلامة!"؛ ولكنني أنا شخصيًّا لست على قناعة بأن المؤسسات التي تشكل الدولة تقفُ ضدّنا أو ضد هذا وذاك، وإنما يوجد في بعض المؤسسات أفرادٌ يهرفون بما لا يعرفون، ويرفعون أصواتهم دائمًا ويصرخون، تسبقُ ضوضاؤُهم وضجيجُهم أعمالَهم وفعالياتِهم فيبدون وكأنهم هم الدولة، ولكن الدولة ليست هي من يقفُ ضدَّكم، وإنما هي مجموعةٌ من أصحاب المصالح الشخصية تنكَّرَت في زِيِّ الدولة وخدعت الشعب، وبالتالي فإن رؤية مؤسسة مهمّة للغاية وكأنها ضدكم خطأٌ عظيم، وتقبيحُ تلك المؤسسة انطلاقًا من خطإٍ كهذا وانتقادها دائمًا وتشويهها خطأٌ عظيم ثانٍ.

ومن جانب آخر فإن رجال الدولة الذين يحبون بلدهم وشعبهم ويتحركون في إطار القانون العالمي لا يعارضون أيّ نشاط جميل تقومون به، بل إنهم يشجعونه ويدعمونه، لأنهم يعرفون معرفة تامة أننا -والحمد لله- أناس تنبضُ قلوبنا وتخفق أفئدتنا حبًّا لشعبنا، لا نفكِّر في شيء سوى خدمة أمتنا والإنسانية جمعاء، أما أصحاب الادعاءات والافتراءات ضدنا فإنني أدعوهم أن يُثْبِتُوا ما يزعمونه إن كانوا صادقين.. فليُثْبِتُوا إنْ كنَّا تشوَّفنا لأية مصلحة، عندها نرضى بما قد يحِلُّ بنا، غير أنه لن يستطيع أحدٌ على الإطلاق إثبات ما هو مزعوم؛ لأننا لا نتشوف للمنفعة والمصلحة الشخصية ولو مثقال ذرة، وليس ثمة شيء نحرصُ على طلبه ونطمعُ في نيله سوى رضا الله تعالى، ولم نفكِّرْ أصلًا في تحصيل ذلك الرضا بطريق آخر غير إعلاء كلمة الله تعالى كالراية التي ترفرف خفاقة في كل أرجاء العالم، وليعلم الجميع هذا، ولتسمعه الدنيا قاطبة مرة أخرى، فالحمد لله نحن أنقياء وجباهُنا طاهرة؛ ولم ولن نرغب -بإذن الله- في أي شيء ونحن نسير في طريق خدمة أمتنا والإنسانية سوى أن يتفضَّلَ الله تعالى علينا بقوله: "إنّي راضٍ عنكم".

ومن هذه الناحية فإن اعتراضَ هذا الطريق ووضعَ العصيّ في عجلاتِ هذه المسيرة ليسَ شيئًا مقبولًا على الإطلاق، وإن كان في الدولة بعض أصحاب العقول المريضة ممن يرون الفضائل وكأنها ملكهم الخاص بتأثير مجموعة من النزوات وبعض المشاعر الوضيعة، ويفكرون قائلين: "مَنْ يكونُ فلانٌ ذلك حتى ينجح هكذا في إنجاز أعمال على مستوى عالمي؟ يجب أن يُنسب إلينا كلُّ ما تحقق ويتحقق من إنجازات ونجاحات في أي مكان بالعالم،

وأن يُقدَّمَ على أنه من آثارنا وأعمالنا نحن فقط"، ويعجزون عن تحمُّلِ مزايا غيرهم وفضائلهم فهم الحاسدون المنزعجون المتضايقون، وهكذا فإنه ليس سليمًا ولا صحيحًا الانزلاق في أفكار سلبية حول مؤسسة الدولة العظيمة تأثرًا ببضع شائعات مغرضة تشهيرية وموقفٍ قبيحٍ تتَّخِذُهُ أقلِّيَّة حاكمة في هذا الشأن.

الاتهامات والغربة

سؤال: سيدي الفاضل! إن كان هذا هو رأيك -رغمَ أنك تتعرض بسببه لانتقادات لاذعة ومؤلمة من بعض الملتزمين دينيًّا- بشأن الدولة ورجالها؛ فكيف تقيّم ما يوجَّهُ إليك من اتهام بأنك: "رجل تسعى لتقسيم الدولة"؟

الجواب: إنني لستُ أوَّلَ مظلوم في هذا الأمر، ولن أكون الأخير أيضًا؛ فتاريخ الإنسانية مليءٌ بهذا النوع من المظلومين، وعلى رأسهم الأنبياء، ومن ذلك على سبيل المثال سيدنا نوح عليه السلام؛ إذ إنه اصطبر على الخروج في رحلة بحرية مخيفة ومهولة بعد ما لقيه من قومه في البَرِّ؛ فواصلَ السير في طريقه بحرًا حيث مُنع من المسير فيه برًّا، وغادر البلاد التي نشأ وترعرع فيها، واستقر على قمّةِ جبلٍ راضيًا بقضاءِ الله وقدره، وكذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام فقد عاش مراحلَ هجرةٍ مقدَّسة دون توقفٍ طافَ خلالها بلاد بابل والحجاز وكنعان، كما هاجر سيدنا موسى عليه السلام من منزل أمه إلى قصر فرعون وهو لا يزال رضيعًا في أول المهد، ثم تردد مرتحلًا بين مصر والأيكة (مدين)، وسيدنا المسيح عيسى عليه السلام بدأ رحلته وهو لا يزال في حضن أمه مريم البتول، ومرَّ هو الآخر من كلِّ الجسور

التـي مـر منها الأنبياء السـابقون، وهناك بعض الأنبياء كسـيدنا زكريا وسـيدنا يحيـى عليهما السلام عزّت عليهما الهجرة ولم يجـدا الإمكانية لذلك؛ فنالَا شـرفَ الشـهادةِ حيث تمَّ الإمسـاكُ بهما، وأما سيدنا رسول الله عليـه أكمل الصلوات والتحيات فقد غـادرَ مكة المكرمة عندما حانَ موعدُ الهجرة المقدسـة التي هي قدرٌ يشـترك فيـه الأنبياء والأولياء، فاسـتدار وألقـى نظرةَ الـوداعِ على ربوعِ وطنه مكة، وقـال: "**أَمَا وَاللهِ لأَخْـرُجُ مِنْكِ وَإِنِّـي لأَعْلَمُ أَنَّكِ أَحَبُّ بِلادِ اللهِ إِلَـيَّ وَأَكْرَمُهُ عَلَى اللهِ؛ وَلَـوْلا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مَـا خَرَجْتُ**"(٩٢)، ثم تابع طريقَه إلى بلاد الهجرة متأثِّرًا محزونًا...

أجـل، إن الراحليـن في سـبيلِ إعلاءِ كلمةِ اللهِ لـم يفارقْهم الألـمُ والبـلاءُ لحظـةً من اللحظات؛ فقد أُسـيئتْ معاملة الإمـام أبي حنيفة النعمـان، وزُجَّ بـه في السـجون، فعاشَ فيهـا يَئِنُّ ويتألـم... والإمام أحمد بن حنبل ظلَّ يُؤذَى سـنواتٍ ذواتِ عدد وكأنه شـخص حقير، ولم يبق نوع من أنواع التعذيب الدنيئة إلا وتعرض له... وأُجبر الإمام السرخسـي على أن يؤلف في قاع البئر الذي حُبِسَ فيه كتابه الشـهير "المبسوط"... وبديـع الزمان سعيد النورسي الذي قال تعبيرًا عما لقيه وتعـرض لـه من إيذاءٍ وقسـوةٍ وغلظةٍ: "لم أذق طـوال عمري البالـغ نيّفًا وثمانين سـنةً شـيئًا من لذائذ الدنيا؛ قضيت حياتي في سـاحات الحرب، وزنزاناتِ الأَسـر، أو سجون الوطن ومَحاكمِ البلاد؛ لم يبق صنـف مـن الآلام والمصاعـب إلا وتجرّعتُه، عوملـتُ في المحاكم العسكرية العرفية معاملة المجرمين، ونُفيت وغُرِّبْتُ في أرجاء البلاد

(٩٢) عبد الرزاق: **المصنّف**، ٢٦/٥؛ **مسند الإمام أحمد**، ١٣/٣١؛ أبو يعلى الموصلي: **المسند**، ٦٩/٥.

كالمشـرّدين، وحُرِمْتُ من مخالطة الناس في زنزانات البلاد شهورًا، وعُرِّضْتُ للتسميم مرارًا، وعُرِّضْتُ لإهانات متنوِّعة"[٩٣].

وهكـذا، معاناة ومكابدة وغربة... ذلك هو القَدَرُ المشـترَكُ لكلِّ مـن يسـلك طريقَ تبليـغ وتمثيل الحـق والعدل، والظلمُ الـذي أَقَعُ تحـت وطأتـه حاليًّا يُشْـبِهُ تقريبًا مـا تعرَّضَ له أسـلافُنا جميعًا، وثمة أمـرٌ يحسُـنُ توضيحُهُ لِبَعْـضِ ضِعافِ الفهمِ أو لِلمَهَـرَةِ في التحريفِ والتزييفِ ألا وهو: أنني لستُ أرى نفسي في مقام الأنبياء أو الأولياء الذيـن ذكرتُهـم آنفًا هنـا، وإنما أُذكِّرُ بأسـمائهم وما عانوه وعاشـوه فحسـب؛ لأنهم القدوة والمرشد بالنسبة لكل مؤمن، واتّباعُ منهجهم ومحاولةُ اقتفاء آثارهم في حياتنا وسيلةُ نجاتنا وفَلاحِنا.

إنني إنسـان بسـيطٌ أُدركُ جيِّدًا مدى عجزي وضعفي، ولذلك فإنه طبيعيٌّ أنْ أتأثَّرَ ببالـغِ الحزنِ من بعضِ الاتهامات وأن تستثقلَها روحي تمامًا، غير أنه وبالرغم من كل شيء ينبغي للمؤمن أن يتخلَّقَ بأخلاقِ الله، فالله تعالى يرأفُ ويلطُفُ حتى بعباده العاصين المذنبين المخطئين ويرزقُهـم ويُطْعِمُهـم ويسـقيهم، وعلـى العبـدِ المؤمنِ أيضًـا أن ينظرَ ويقتربَ إلى الآخرين من هذه الزاوية، وينبغي له حتى حين يتأزَّمُ ويسأمُ للغاية في مواجهة المظالم والجور والاسـتبداد أنْ يكِلَ إلى الله تعالى فحسب أمرَ من يُعادُونَهُ ويُخاصِمونه؛ فيلجأ إليه سبحانه قائلًا: "اللهم إننـي أُحِيلُ إليـك أمرَ من يُعـادون أهلَ الإيمـان ويبغضونهم"، وعليه أن يهتمَّ بواجباته دون أن يأبَهَ بهذا أو ذاك، ودون أن يشغلَ عقلَه وبالَهُ بهم، وأنْ يواصل السير في الطريق الصحيح منتصبًا صامدًا كالألِفِ.

---

(٩٣) بديع الزمان سعيد النورسي: **السيرة الذاتية**، ص ٤٩١.

علم السياسة على خطى القرآن والسنة

سؤال: يسعى بعض الأشخاص إلى شرعنة بعضِ إجراءاتهم غير المشـروعة وبياناتهم المخالفة للواقع تحت اسم "علم السياسة"؛ فما هو هذا العِلْم؟ وكيف تنبغي ممارسةُ السياسة بالنسبة للمسلم؟

الجواب: السياسة تعني الإدارة، وتُستخدم كلمة "الإدارة" بمعنيين اثنين:

أولهمـا: إدارة نظـامٍ أو جماعة أو مؤسسـةٍ ما فـي إطار قواعدها الخاصة بها إدارةً منطقية.

أمـا المعنـى الثانـي: فهـو المـداراة، وتعنـي حسـن التعامل عبر اسـتخدام الدبلوماسية واستغلال شتى الوسائل المشروعة والمُتاحة، والصبـر حتى علـى الأعداء، ومحاولة تفادي شـرورهم وأضرارهم، وفيما يتعلق بهذا الموضوع يقول "حافظ الشيرازي":

"نيـل الراحة والسـلامة في كلا العالمين يوضّحـه أمران: الأول: معاشـرة الأصدقـاء بالمـروءة والإنصـاف، والثاني: معاملـة الأعداء بالصفح والصفاء".

فالمقصد إذًا من التصرُّف بمروءة نحو الأصدقاء هو تقديرهم والإحسان إليهم ومحبتهم واحتضانهم بمشاعر إنسانيّة حقيقية، ولأن الإنسان صرحٌ جذّاب يُبهر العيون خُلِقَ في أحسن تقويم؛ فلا بدَّ من احترامه وتقديره والتصرّف معه بإنسانية، فليس ثمة حركة إنسانية قدّرت الإنسان واحترمته وطبقت ذلك في الحياة اليومية مثلما قدَّره الإسلام وكرَّمه.

الفرق بين المداراة والتَّقِيَّة

وأما مداراة الأعداء فهي تعني مراوغتهم وسياستهم، ومعنى هذا عدم إثارة حفيظتهم ولا استفزازهم بجدليّات وفرضيات دون داعٍ، وحسنَ استخدام الدبلوماسية، وتفادي ما قد يصدر من الطرف الآخر من اعتداءات وأضرار عبر استخدام إستراتيجيات ذكية، أي إنه ينبغي لكم أن تطبقوا في علاقاتكم بالأعداء سياسةً لا تشتبكون معهم بسببها من ناحية، ولا تُعرِّضكم لأذاهم من ناحية أخرى، وكما هو واضح فإن هذا الفهم يختلفُ كثيرًا عن "التَّقِيّة" التي يلجأ إليها مذهبٌ حَادَ عن الطريق المستقيم، ورتعَ في ضلال عظيمٍ؛ إذ يُبيحُ الكذبَ على الآخرين وخداعَهم وتضليلَهم في سبيل هذا، أما المداراة فهي العمل على دفع ضرر العدوِّ باستخدام الصبر والثبات والعقل والدبلوماسية.

أجل، إذا سُعي إلى استخدام القوة الغاشمة في حل مشكلاتٍ يُمكن حلُّها بالطُّرُقِ الدبلوماسية ولم تُتَّبع سياسة ذكية في مواجهة الأعداء، ولُجِئ إلى الكفاح المادي مثلما فعل الاتحاديّون الأغرار في الدولة العثمانية فقد تنجرُّ البلاد إلى مأزق وطريقٍ مسدودٍ لا مخرج

منه فتتمزق؛ إذ قد مـزّق الاتحاديون -نتيجة الحـرب التي خاضوها مـع روسـيا- الدولةَ العليـة العثمانية، وعليه فإننا حيـن نتحدَّث عن المداراة نفهم أنها النظام الإداري والسياسـي الواجب اتباعه لتجنُّبِ جرِّ البلاد وانحدارِها إلى هذا الخطر وأمثاله.

العقلية التي تعتبر السياسة فن الخداع

عندمـا تُذكَرُ السياسـةُ فـي يومنا هذا فـإن المعنـى الوحيد الذي يتبـادر إلـى الذهن هو: العمل الذي يقوم به أولو الأحزاب السياسـية والإداريـون فـي المجتمـع.. غيـر أنَّ علم السياسـة لا يتعلَّـق بإدارة الدولة فحسـب؛ فلكل إنسان أسـلوبٌ إداريٌّ وسياسي يلزم أن يتبعه في حياته الشـخصية والأُسـرية والاجتماعيّة؛ فـإنْ أخلَّ به اضطربت حياتـه وانقلبـت رأسًـا علـى عقـب، غير أنـه لا بد أن تكـون الطرق السياسـية التـي سـيلجأ إليها الإنسـان المؤمـن طرقًا موافقـة لمبادئ الدين ونُظُمه، ولذلك فلا بد من بيان أنَّ الإجراءات غير المشـروعة والتصرفـات والسـلوكيات التي لا تليق بهويّة المسـلم في أي مجال كانت بدءًا من أصغر دائرة وصولًا إلى إدارة الدولة يستحيل أن تكون هي علم السياسة.

وكمثال على ذلك نقول: إن للدول مجموعةً من الأهداف ترمي إليهـا، كأن تتبـوّأ مكانـة قويّة فـي التوازنات الدوليـة وتحافظ عليها، ولا تسـمح للدولِ الأخرى بأيِّ عملٍ دون موافقتها، فإنْ كانت تلك الـدول تنتهك القانون وتتجبَّرُ وتسـتبدّ وتظلم غيرها من أجل تحقيق تلـك الأهـداف عبر طـرق مختلفة كاسـتغلالِ الثـروات الطبيعية في مختلف مناطق الدنيا تذرُّعًا بحجج واهية، وغزوِها غيرها مُدَّعية أنها

هاجمَتْها فعليًّا وتمارس ضدّها اعتداءات حقيقية، وإقصاءِ الشعوب هناك عن جذورها الروحية والمعنوية وطمسِ هويّاتها فإن هذا الفعل لا يُسمّى سياسة، وإنْ كان لا بد من توصيفه وتسميته باسمٍ فليس أنسب من أن يُطلق عليه "إرهاب دولة فقدَتْ صوابَها وضميرَها".

وكما أننا نرى من حولِنا بعضَ الدول الراغبة في حماية وضعها تنتهجُ هذا النوع من السياسات غير المشروعة؛ فإن بعض من استولوا على السلطة داخل البلاد أيضًا ربما يرتكبون هذه النوعية من الانتهاكات القانونية حفاظًا على راحتهم ومستقبلهم؛ فهم يَكْنِزُون ليس لتأمين حياتهم فحسب، بل ولتأمين مستقبَلِ أولادهم وأحفادهم، ويسعَون دائمًا لتعيين رجالهم على رأس مؤسسات الدولة، ولا يعترفون بحق أحد غيرهم في الحياة، ويُزيّفون الحقائق ويسترونها كي يجعلوا طوائف الشعب تقبل بكل هذه المساوئ؛ فيكذبون أحيانًا، ويتحدثون عن حسن النوايا أحيانًا، ويسعون أحيانًا لتقديم كل هذه المظالم التي يرتكبونها على أنَّها ضرورة سياسية، وأحيانًا أخرى يشوّهون صورةَ ضحيَّتهم كي يُثبِتوا أنهم هم على حقّ، غير أن مرتكبي تلك المظالم بعيدون تمامًا عن السياسة التي انتهجها رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون مهما تحدثوا عن الدين والإيمان، أو بدوا متدينين يسيرون في مقدمة رَكْبِ الإسلام.

محاولة شَرْعَنة الظلم

إلى جانب كل تلك الأمور ثمة أعمال غير مشروعة تُمارَسُ وكأنها مشروعة وبريئة، ومن ذلك على سبيل المثال أنْ يعمل شخصٌ واعظًا بأحد الجوامع، لكنه يريد توظيفَ أحد أقاربه مكانه

بعد أن تنتهي وظيفته ويتقاعد، ويعتقد أنَّ قريبه جديرٌ وأهلٌ لمهمة الوعظ، فيسلك مسلكًا على هواه متجاهلًا أحكام القوانين واللوائح في هذا الشأن كي يتمكن من توظيفه بعده، وهو ما يعني أنه انحرف إلى طريق غير مشروع دون أن يشعر، وبعبارة أخرى: فإن هذا الفعل يعني استخدام طرق غير مشروعة للوصول إلى هدفٍ مشروع.

ومثلُ هذا تمامًا بعضُ منْ يستولون على إدارة الدولة؛ فبينما يسلبون مال الشعب وينحلونه يملؤون خزائنهم، ويُكدّسون في بنوك الدول الأخرى الأموال التي يتحصلون عليها بطرق غير مشروعة، وربما يقولون وهم يفعلون هذا: "يلزم أن نكون أقوياء؛ وأن ندَّخِرَ من إمكانيَّاتِ اليوم ما يكفل لنا الاستمرار غدًا إذا ما انقطعت هذه الإمكانيّات، وأن نوفِّرَ ما يضمنُ لنا إعادة النهوضِ بحزبِنا مجدَّدًا إن تعرَّضَ لعثرةٍ ما".

إن كلَّ هذه أفكارٌ وتوجُّهات بريئة في ظاهرها وتتوارى خلفها سلوكيات من يضرون بهذه البلد لدرجة الخيانة، وقد يلجأ إلى هذه النوعية من الطرق حتى بعض الأشخاص المتدينين لأنها تبدو بريئة، غير أنَّ هذا ضلالٌ بيّنٌ، وخيانة عظيمةٌ للأمانة، ومن يسلكون هذه الطرق فقد استدعوا بأنفسهم ودون أن يفطنوا لذلك الفضائحَ والرذائل التي سيعيشونها مستقبلًا.

فإن كانَ هؤلاء أو تلك الطوائفُ الداعمةُ لهم تَعتَبر تلك التصرفات كلَّها ضرورة سياسيةً وتطلق عليها اسمَ علم السياسة فقد انخدعوا وضلُّوا أيَّما ضلال، لأنَّ السياسة يجبُ أن لا تخرج عن الأُطُر الأخلاقيّة، وأن تخضع للمبادئ الدينية بالدرجة الأولى، والسياسيُّ

المسلم مُطالبٌ بأن يسير على النهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ وورثته؛ فمفخرةُ الإنسانية وورثته الحقيقيّون عاشوا حياتهم في تحرٍّ حقيقي للحلال والحرام، ولم يخطوا ولو خطوة واحدة غير مشروعة أصلًا، ومن هنا فإنه ينبغي التحرُّكُ والسعي بحساسيّةٍ بالغةٍ لأن تكون الوسائل مشروعة إلى جانب أن تكون الغاية مشروعة، ولا سيما إن عاش من يمثلون القمة بحساسيّة في هذا الشأن فإنهم سيبثون الثقة فيمن حولهم، ويصبحون قدوةً لغيرهم.

ثقة الشعب أكبرُ رصيد

الواقع أنَّ هذا هو السر الذي يكمن وراء ما تحظى به القلوب المتطوعة الخادمة في سبيل الله من حسنِ قبولٍ في شتى أرجاء الكون؛ فلقد وُفِّقوا في مهمتهم لأنهم لم يحيدوا عن الطريق المستقيم، ولم يتشوّفوا إلى أيِّ أجرٍ دنيوي ولا أخروي في مقابلِ الخِدمات التي يؤدّونها وأنهم يتحركون مراعين المبادئ الشرعية، وإذا ما واصلوا مسيرَتهم بعزيمةٍ وإصرارٍ وحساسية وصبر أيضًا فسيفتح الله تعالى عليهم الطرقَ المؤدّية إلى قلوب الناس.

لستُ أملك شيئًا على وجه الأرض، بل ولم أرغب فيه قط، حتى إنني دعوت الله تعالى ألا يَقسِمَ مثلَ هذا ليس لي فقط، بل ولا لأشقائي، وإنني لم أفكر على الإطلاق في أن أتوسط لتعيين أقاربي في أيّة مناصب، وقد أَوصيت من يقفون إلى جواري بألا يمتلكوا بيوتًا وأن يعيشوا حياتهم بمعايير توفّر لهم احتياجاتهم الضرورية فحسب.

فهذا هو السبيل إلى بثِّ الثقة في الآخرين، لأنّ ثقة الناس بكم تتآكل إن فكَّرْتم في أنفسكم ولو قليلًا، بيد أنَّ حركة المتطوعين هذه التي أظلَّت بظلالها وثمارِها مائةً وسبعين دولة في العالم إنما هي حركةٌ تعتمد في الأساس على التطوُّع والتضحية تمامًا، فإذا ما تخلت عنها الأمة انقطعت عناية الله أيضًا وزالت الأعمال المنجزة، فالوسيلة لنيل التوفيق الإلهي هي المحافظة على همة الأمة إلى جانبكم واحتضانها لكم، فإن قضيتم على تلك الوسيلة انقطع التوفيق الإلهي أيضًا -لا قدَّرَ الله-.

إن من لا يُطيقونكم ولا يتحملونكم ولا يقبلونكم يسعون أحيانًا إلى تشويه خدماتكم الثابتة عبر استخدامهم افتراءات شتى، غير أنه لن يصيبكم -بإذن الله تعالى- أيُّ ضرر ولا مكيدة من أي مفترٍ كذّابٍ طالما أنكم تحافظون على استقامتكم، وكلُّ إنسان منصفٍ يقظُ الضمير يعلم أنَّ المؤسسات التعليمية التي تبُثُّ المحبة والتسامح في شتى أنحاء العالم قد ظهرت بهمم أهل الأناضول الأوفياء، فأهل الأناضول الذين ناضلوا من أجل الاستقلال حتى في أضعف الفترات عاشوا مرحلةَ بعثٍ ثانية جديدة، فانفتحوا على كل أنحاء العالم بالرغم من إمكانياتهم الاقتصادية المتوسطة، علاوة على أنَّ آلافَ المعلمين والمرشدين والطلاب انفتحوا على العالم كي يحملوا إلى كل أرجاء الدنيا تلك القيمَ الخالصةَ النقيةَ التي ورثوها عن جذورهم الروحية والمعنوية وينهلوا هم بدورهم من تلك البلاد ما هو مفيد؛ فذهبوا إلى أماكن بِكرٍ لم تُطرق من قبل، وحاولوا الصمود والعيش برواتب بسيطة جدًّا أشبه ما تكون بمنح الطلاب، أي إن الأرض يمكنها أن تُظهر هذه النوعية من أوجه الحسن والجمال لأنها خصبة

منبتـة، وإنني لأدعو الله تعالى لأجل هؤلاء الإخوة ربما عشـر مرات يوميًّـا، وأعتبرُ الدعاء لهـم دَيْنًا عَليَّ يجب الوفاء بـه، فأبتهل: "اللهم احشـر مـع النبيين هؤلاء المرشـدين والطـلابَ والمعلمين والأمناءَ المنفتحين على العالم، وأيِّدهم، وقوِّ إيمانهم، اللهم آمين!".

والحاصلُ أن ثقة شعبنا هي ما يقف وراء تكوُّن مثل هذه اللوحة الجميلة من أجل خدمة ديننا والإنسانية، ولهذا فإنه ينبغي لاحقًا أيضًا البعدُ تمامًا عن كل أنواع التصرفات والسـلوكيات التي قد تزعزعها، والفرارُ منها كالفرار من الأفاعي والعقارب.

نار الفتنة والدعاء

سؤال: ما الدروس المستفادة من قول الله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة الْمُمْتَحَنَةِ: ٦٠/٥)؟

الجواب: التصريح باسم سيدنا إبراهيم عليه السلام في الآية الكريمة السابقة يشير إلى أن هذا الدعاءَ قد توجه به الخليلُ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم إلى ربه؛ ففي الآية السابقة يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾ (سورة الْمُمْتَحَنَةِ: ٦٠/٤).

وليس بالإمكان فهمُ البعد والعمق الحقيقي للقرآن الكريم في هذا الأمر من خلال تأويلاتٍ سطحية بسيطة؛ ولذا سنعمل على تفصيل هذه المسألة بعض الشيء، وأن نعكس محتواها على مرآة إدراكنا، ومن ثمَّ فكأن القرآن الكريم هنا يقول: يمكنكم أن تجدوا القدوة كلها في حياة إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين؛ في أقوالهم وأحوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم؛ فكل منهم بمثابة قدوة مجسمة لكم.

وبعـد أنْ أكّـد الحقّ ﷻ علـى الأفضلية العظمى لسـيدنا إبراهيم عليه السلام وجّـه الأنظـار إلى الدعاء الذي كان يتضـرَّعُ به الخليل عليه السلام بين يـدي ربـه ﷻ، علـى اعتبـار أنه مـن الأمـور التي كان يقـوم بها عليه السلام في حياته السنية، ومن الممكن الاقتداء به.

الفتنة كلمة واسعة المعنى

وفهـم هذا الدعاء يعتمد على حسـن فهمنا لكلمـة "فتنة" الواردة فيـه؛ ولـذا لـزامٌ علينـا هنا الوقـوف برهـةً عند هـذه الكلمـة: "فتنة" أَصلهـا مأْخـوذ مِنْ قَوْلِكَ "فتَنْـتُ الْفِضَّةَ وَالذَّهَـبَ" إِذا أَذبتهما بِالنَّارِ لِتُمَيِّـزَ الـرَّدِيءَ مِنَ الجيِّـدِ، وتعني بمعناها العام: الِابْتِـلَاءَ والامْتِحانَ وَالِاخْتِبَـارَ[٩٤]، ولكـن الكلمـة لهـا فـي التصوُّر الإسـلامي مجالاتُ استخدامٍ واسعة مترتبةٌ على المعنى الحقيقي، مثل: إثارة الاضطراب والفوضى والفسـاد والهـرج والمرج، والإيقاع بين النـاس، كما أنها تُطلـق على الرغبات البدنية والجسـمانية، والمال والملك، والزوجة والأولاد، والصحة، والفتوة، والمقام والمنصب وغيرها من وسـائل الابتلاء التي قد تؤدِّي بالإنسان إلى أن يخسر حياته الأخروية.

ويدخـل فـي الفتـن أيضًـا تعـرّضُ المؤمنيـن لإيـذاء الآخريـن واضطهادهم وظلمهم بسبب القيم التي يؤمنون بها، وإجبارهم بسبلٍ شتى على أشياء منافية للدين، ومُقَاضَاتِهم في المحاكم بسبب تديُّنهم، والزجّ بهم في غياهب السجون، ونفيهم خارجَ البلاد، وما ذكرناه هنا مستفادٌ من كلمة "فتنة" الواردة في الآية التي نحن بصددها.

(٩٤) ابن منظور: **لسان العرب**، ١٣/٣١٧.

والتعرّف على مفهوم كلمة "الامتحان" التي يُستعاض بها أحيانًا عن كلمة "الفتنة" يفيد كثيرًا في فهم معنى "الفتنة" و"الامتحان" من مَحَنَ الفِضَّة: إذا صَفَّاها وخَلَّصَها بالنارِ[٩٥]، وبالنظر إلى هذه المسألة نجد أن الذين يتحملون مسؤوليةَ غايةٍ ساميةٍ يتعرَّضون لأنواعٍ شتَّى من الفِتَنِ والمحن، أما الذين يحاربون الدين والأخلاق والفضائل فلا يريدون لهم أن يعيشوا حياةً كريمةً ترتبطُ بقيمهم الذاتية، ويجبرونهم على أن يعيشوا مثلهم مُعرِضين عن الطريق الذي يؤمنون به.

ولقد تعرض الخليل إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين إلى اضطهاد وظُلم الكفرة والفجرة ومضايقاتهم الشديدة كما حدث وألقوا بهم في النار وأخرجوهم من ديارهم، وكل هذا بسبب إخلاصهم وصدقهم وصلابة موقفهم على الحقّ، وإزاء هذا الموقف رفع إبراهيمُ عليه السلام يديه بالدعاء سائلًا ربَّه سبحانه وتعالى السلامة والخلاصَ من ظلم الظالمين قائلًا: **﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** (سورة الْمُمْتَحَنَةِ: ٦٠/٥)؛ يعني: اللّهم لا تجعلنا شيئًا في أيديهم يُرمَى به في النار، أو يُوضَع بين المطرقة والسندان، وهذا الدعاء يُعَبِّرُ عن العجز والضعف في فِطْرَةِ الإنسان؛ لأن الامتحان جدُّ عسير، ولا طاقةَ للإنسانِ تؤهِّله لتحمُّلِ السَّحْقِ والطحن بين فكّي المطرقة والسندان، ولا لمكابدةِ النار! ومن ثمّ استعاذَ إبراهيم عليه السلام بفِرَاسَته العالية من مثل هذه البلايا والمصائب.

(٩٥) الزبيدي: **تاج العروس**، ١٥٣/٣٦.

تجلي طريق الحق

وفـي الواقـع فإن البلايا والمصائب والفتن والمحن هي قَدَرُ كلِّ من يعمل في سـبيل الحقّ ﷻ، لأن أهلَ الضلالة والكفر يسـتهدفون الشـخصَ على حسـب جدِّيَّته وصلابَةِ موقِفه أمـام الله ﷻ، فلو كنتم بإيمانكم ودعوتكم ومنزلتكم تُشكِّلُون مصدر قلقٍ ومثارَ فزعٍ للطرف المقابل فسيأخذون بتلابيبكم ولا ينفكون عنكم.

وعندما سُـئِلَ سـيدنا رسـول الله ﷺ: "أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟، قال: **اَلْأَنْبِيَـاءُ ثُمَّ الْأَمْثَـلُ فَالْأَمْثَلُ**"[٩٦]، ومن هذا الحديث الشـريف يتَّضح أن الأنبياء هم أكثر الناس عرضةً لأقسـى البلايا والمصائب وأشـدِّها ومـا لا يطـاق منها، ثم المؤمنين الآخرين حسـب درجاتهم؛ ومن ثمّ فلا طاقة لنا على تحمل نفس الابتلاءات التي تعرَّض لها الأنبياء عليهم السلام.

فهمُ الامتحانات فهمًا صحيحًا

طلب سـيدنا إبراهيم عليه السلام النجاة والسـلامة مـن الفتنة، ثم طلب المغفـرةَ من الله تعالى بعدها مباشـرةً قائـلًا: "وَاغْفِرْ لَنَـا رَبَّنَا"؛ فعلى المؤمن إن اسـتُهدف أو ابتُليَ أو افتتن لأنه يسـير فحسـب في طريق الحـق أن يُفكِّـرَ فـي أن هـذه الابتلاءات قـد تكون ناتجةً عـن ذنوبه وخطايـاه، ومـن ثـمَّ فإنـه يطلب ولا بـدّ أن يطلـب العفـوَ والمغفرةَ من الله جل جلاله.

أجل، ينبغي للإنسان أن ينظر إلى ما يَحُلُّ به من البلايا والمصائب وفقًا لفلسـفة سـيدنا عمر رضي الله عنه وبنفسِ منظارِه؛ فكما هو معلوم أنه رضي الله عنه

(٩٦) **سنن الترمذي**، الزهد، ٥٧؛ **سنن ابن ماجه**، الفتن، ٢٣.

نسـب إلى نفسـه سـببَ القحط والجـدب الذي حدث عـام الرمادة، ووضـع رأسَهُ على الأرض، وقال: "اللّهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي!"؛ فهذا هو سـلوك المؤمن الكامل، إذ ينبغي للإنسـان إذا ما ضربت صاعقةٌ مكانًا ما، أو اجتاحَ سـيلٌ أرضًا ما أن يقول: "تُرى هل حَدثَ هذا بسـبب ذنوبي!". أجل، حـريٌّ بالمؤمنِ أن يرُدَّ ويعزوَ إلـى نفسـه كلَّ بـلاء ومصيبـة يتعـرض لهـا، وأن يعتبـر تلـك البلايا في الوقت ذاته وسيلة لتكفير الذنوب.

ومـن جانـب آخـر فإنَّ من الشِّـرك أن يظـنّ المؤمنـون أن النعم التي منَّ الله تعالى عليهم بها إنما هي من عند أنفسـهم، وأن ينسـبوا بعـض الجماليـات التي وقعت على أيديهم إلى أنفسـهم؛ فهذا الأمر قد يتسبَّبُ في حلول بعض المصائب بهم؛ لأن الحقَّ تعالى لا يرضى أبدًا أن يخالط الشركُ الخدماتِ التي تُنجَز في سبيله، وإنّ إثمَ مخالطةِ الشِّـرْكِ الأعمالَ التي تتمُّ باسـم التوحيد لا يُدانيه أيُّ إثمِ ذنبٍ مغلَّظٍ آخر ولا أيُّ سلوكٍ قبيحٍ أو مُشِينٍ.

وحيـن نُعبِّرُ بـ"الشـرك" فـلا ينبغي أن يتبـادر إلى أذهاننا إشـراكُ مجموعـة مـن الأوثـان والطواطـم -الرمـوز المصنوعة مـن الحجر والخشـب- مـع الله، ولا عبادة اللات ومناة والعُزَّة؛ فهذا شِـرك بيّن صُراح، فإلى جانب هذا هناك شـركٌ خفيٌّ قال عنه سـيدنا رسـول الله ﷺ في حديثه الشريف: "**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**" قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "**الرِّيَاءُ**"[٩٧].

(٩٧) **مسند الإمام أحمد**، ٣٩/٣٩؛ الطبراني: **المعجم الكبير**، ٢٥٣/٤.

وقـد حَـذّر النبـي ﷺ من مثـل هذا الشـرك في الحديـث النبوي الشريف: "**أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**"(٩٨)، يعني أن الرياء خفيٌّ وخبيثٌ إلى درجة أن الإنسان لا يستطيـع إدراكه فـي معظم الوقت، ولذلـك فإن عباداته وطاعاته وخدماته في سـبيل الحقِّ تتبخَّر وتذهبُ هباءً منثورًا.

إن مَـن يسـعون ويعملـون فـي سـبيل الله ﷻ؛ إن خالط الشـركُ أعمالَهـم فربّما يُسـلط الحق تعالى عليهم أهلَ الضلال أحيانًا لِيَشُـدَّ بذلك آذانهم على سـبيل اللطفِ الجبريِّ، وحين نطالـع رسائل النور نرى أن فضيلة الأسـتاذ بديـع الزمان سـعيد النورسـي قد سـردَ كمًّا هائلًا من الأمثلة المتعلقة بهذا الموضوع سواء في موضوع "صفعات الشفقة" أو في الملاحق، علاوة على ذلك فلا بدّ من معرفة أن البلاء الذي ينزل أو يتعرض له الإنسـان يتناسـب مباشـرةً مـع حجم الجرم والذنـب المُرتكب، وكما تكون الصفعات النازلة وفقًا لحجم الخطإِ والذنب صفعة نقمة وعذاب فقد تكون صفعةَ الشفقةِ واللطف.

القَدَرُ من شأنه العدل

وعلـى هذا فـإن مخالطـةَ الرغبات الأنانيـة النفسـانيّة للخدمات المبذولـة كالإعجاب بمقالة مكتوبة مثـلًا أو انتظار التقدير والمديح علـى بنـاء معلومٌ مُشـيّده قد تتسـبَّبُ في تكرار الصفعـة، كما أنها قد تعصف بكثير من الجهد والعرق والبذل والتعب، وعلاوة على ذلك كلـه فإن الله قد يُعرِّض المؤمنين لِلْفِتَنِ ويؤدِّبهم بالكفَّار، ومهما ظلَمَ أهـل الضـلال فـإن القـدَرَ لا محالةَ عـادلٌ، وإن التعـرُّضَ لمثل هذه

(٩٨) **مسند الإمام أحمد**، ٣٢/٣٨٤؛ ابن أبي شيبة: **المصنف**، ٦/٧٠.

الأزمات كفارةٌ للذنوب، غير أنه لا بد من العلم يقينًا أن هناك شروطًا معينةً كي تكون هذه الفتن والابتلاءات كفارة للذنوب.

فإن عزا المؤمنون الأزمات التي يتعرضون لها إلى أخطائهم وأدركوا ذلك فتوجهوا إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار قائلين: "اللهم إنّي أستغفِرُكَ وأتوب إليك توبة نصوحًا" وتضرّعوا إليه تضرعًا حقيقيًّا وخالصًا؛ فقد يجعل الفتنةَ التي أَلَمَّتْ بهم نافعةً لهم، ووسيلةً لمغفرة ذنوبهم.

وقد ذكر الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي أنه عرفَ السبب الحقيقي في قيام أهل الضلال وأهل الدنيا بظلمه وتعذيبه؛ وهو أنه استغلَّ خدمةَ القرآنِ والإيمانِ من أجلِ ترقِّيه وسموّه مادِّيًّا ومعنويًّا[٩٩]، (والواقع أنني لا أعلم شيئًا ولو بسيطًا يدُلُّ على أنَّه استغل خدمة القرآن والإيمان وسيلةً لترقيه ماديًّا ومعنويًّا، ولكنه يُقَيِّمُ المسألة على هذا النحو من زاوية أفقه الخاصّ في المحاسبة) يعني أن الإنسان ينبغي له ألا يتشوَّفَ إلى أيِّ شيءٍ دنيويًّا كان أو أخرويًّا في مقابل ما قام به من خدمات في سبيل الله. أجل، ينبغي له ألا يتشوف إلى شيء دنيوي من قبيل التصفيق والتقدير، ولا إلى شيءٍ أخرويٍّ من قَبيلِ "لأنجزنَّ هذه الأعمال، ولأقطعنَّ مسافةً في السير والسلوك الروحاني، فأدخل الجنة، ولأنالنَّ الفردوس".

وإن حدث العكس فإن المعاناة والأزمات والمشاق التي يعانيها ربما لا تكفر الذنوب، فمثلًا إن قال إنسان تعرض للفتنة "إنني أسعى وأجتهد في سبيل الله، فماذا فعلت حتى تحُلَّ بي هذه المصائب

(٩٩) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: **الملاحق**، لاحقة أميرداغ ٢، ص ٣٣٦.

والبلايا؟!"، ولم يرَ في نفسه عيبًا ونقصًا من جانب، وشكا من حاله من جانب آخر فإن الأزمات التي يعاينها سيظلُّ يعانيها دون أن تعود عليه بنفع، علاوة على أنَّ مثل هذا الشخص يقع -حفظنا الله- في ذنب ذمِّ القدر وعدم الرضا بالقضاء.

نسأل الله تعالى أن يقدر لنا الخدمة في سبيله حتى آخر لحظة ونفَس في عمرنا، وأن ينير حياتنا بوعي وشعور التوبة والاستغفار، وأن يقسم لنا الانتقال إلى الآخرة طاهرين أنقياء.

سوء الظن: مرض فتاك

سـؤال: ورد في الحديث النبوي الشـريف أنَّـه: "إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: "هَلَـكَ النَّاسُ" فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ"[100]؛ فهل يدخل في عموم هذا الحديث تصرفاتٌ كإساءة الظنِّ أو انتقاد الآخرين باستمرار؟

الجـواب: هذا تصريحٌ نبويٌّ مبارَكٌ من جوامع الكَلِمِ، يكتَنِزُ في ثنايـاه حقائقَ عدّة؛ وإحدى تلك الحقائق هي إسـاءة الظنِّ بالآخرين كمـا تقـدم في السـؤال؛ إذ إن الحديثَ عن الآخريـن والحكمَ بأنهم "هلكـوا" وإلقـاءَ الكلام بحـقِّ الآخرين جزافًا من قبيـل "انتهى أمره" مثلًا؛ ليس إلَّا نتيجة لسوء الظنّ، بينما رسولنا الأكرم ﷺ أخبر أنَّ من هلك وانتهى أمره بالفِعل هو من سـاءَ ظنّه بالآخرين فأطلَقَ مثل هذه النوعية من البيانات.

مُؤَلِّهو أنفسِهم يبحثون عن المذنب في الخارج

ومـن نتائـجِ سـوءِ الظَّنِّ "الأنانيـةُ" و"مركزيةُ الـذات"، بل وحتى مـرضُ "النرجسـية" (*Narcissism*) الذي هو ربطُ كلِّ شـيء بالنفس ونسـبتُهُ إليهـا خـلال الحديـث عـن الآخرين، ومـن ينتقِـد الجميـعَ ويوبِّخهـم ويبحـث عن جرمٍ لكلِّ فردٍ فهو يؤلِّهُ نفسَـهُ دون أن يدري

(100) صحيح مسلم، البرّ والصلة، ١٣٩.

علـى الإطـلاق، ويعبدها ويقف أمام المرآة تسـيطرُ عليه أفكارٌ مثل: "ليس هناك مثيل لي، فلتكن الدنيا وما فيها فداءً لي".

ومَنْ حُرِمَ حسـنَ الظنّ وسيطرَ عليه سوءُ الظنِّ ربما يستخفُّ بما يؤدّيه الآخرون من عبادات كالصلاة، فمثلًا حينما يرى إنسانًا يُصلي قد يجول بذهنه تساؤلٌ فوريٌّ: "تُرى هل اسـتطاع هذا الشـخص أن يندمـج مع الصلاة تمامًا ويخشـع فيها؟"، غيـر أنه إذا ما فكَّر تفكيرًا كهذا واجهَهُ قولُ سيِّدنا رسول الله ﷺ: "**أفلا شققتَ عن قلبه**"[١٠١]، إننا لا نسـتطيع معرفة ما في قلب الإنسـان، وربما نظنُّ أنَّ إنسـانًا يؤدّي صلاته على نحوٍ شـكليّ وصوريٍّ، بينما هو يصليها بخضوعٍ وتعمُّق فـي حقيقـة الأمر! ولذلـك يجب علينا أن نتجنَّـبَ تمامًا الدخول في ملاحظات وآراء سلبيّة بشأن تصرفات الآخرين وعباداتهم وإن كانت مهمَّتُنـا هـي بيان الصحيـحِ من الأمورِ كالكلام عـن صحيح الصلاة وبيانِ صفات المؤمن، وذلك لأن النظرَ إلى عبادةِ الآخرين وطاعتِهم ونحنُ تُسَـيطِرُ علينا أحكامٌ مسبقةٌ بشـأنها ومحاولةَ استشفاف نيّاتهم إنّما هو سوءُ ظنٍّ مرعبٌ مخيفٌ، وقد يتسبَّبُ مثل هذا النوع من سوءِ الظـنِّ فـي انحطاط الإنسـان، ولقد حرّم الله ﷻ سـوءَ الظـنّ تحريمًا صريحًا وقاطعًا بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا**﴾ (سورة الْحُجُرَاتِ: ٤٩/١٢).

وعليه فإنّه ينبغي إحسـانُ الظـنِّ بالآخرين عند النظر إليهم طالما توفَّـرَ مـا مِنْ شـأنه أنْ يُشَـكِّلَ أساسًـا لِحُسْـنِ الظنِّ بهـم، بل يجب الاعتمادُ على حسـنِ الظنِّ والابتعادُ عن إسـاءةِ الظنِّ حتى وإن كان

(١٠١) صحيح مسلم، الإيمان، ١٥٨.

فـي الشـخصِ الآخـر جانـبٌ واحدٌ فحسـب يدعو إلى حسـن الظنّ به، فمثلًا إنْ كان هناك إنسـانٌ رأسُـماله الوحيدُ هو كلمة التوحيد أو الشهادتين، ولـم نَرَ منه عملًا صالحًا فإنه يجبُ أن تكون قناعتُنا بحقّه على نحوِ: "إن أخي هذا نطقَ بالشـهادتين من صميم قلبه، وربما أن كلمتَهُ هذه بلغَتْ مرتبةً عُليا عند الحضرة الإلهية، فتكون سببًا لنجاته فـي الآخـرة"، ومن ناحية أخـرى يجب علينا أنْ نخـاف الهلاكَ على أنفسـنا إن خالطَ الرياءُ والسـمعةُ ما نقومُ به من عبادات حتى وإن كنّا نؤدّي خمسين صلاةً نافلةً يوميًّا فوق الصلوات الخمس.

والأمثلـةُ علـى هذا الأمرِ كثيرةٌ؛ فمثلًا مَنْ تبدو علاقته بالله تعالى ضعيفةً في الظاهر بسبب تقصيره في أداء ما عليه من عبادات، ولكنه إذا تكلّـمَ صدقَ، ولـم يخالط الكذبُ حديثَه؛ يجـب علينا أن نحمل سـلوكه هـذا علـى خوفه مـن الله، وأن نقول بشـأنه: "نظـرًا لأن هذا الشخص حسّاسٌ إلى هذا الحدّ في حديثه؛ فهذا يعني أنّه على علاقة قويّـة بـالله تعالـى"، كما أنَّ تصرُّفات شـخصٍ شـديدِ الحساسـية في مواجهة المحرمات، ولا يضـع في فيه ولو حتى لقمة حرامًا، ويرفض مقابـل وأجـر أيِّ عمـل لم يقـم به ويعتقـد أنّه لا يسـتحقُّه تصرفاتٌ جميلـةٌ لدرجـة أننا يسـتحيل علينـا بيانهـا وتوضيحها ما لـم نربطْها برضا الله تعالى عنه، ولذلك فإنه يجب علينا أمام هذه المواقف كلها أن نُحْسِنَ الظنَّ دائمًا بشأنِ علاقة ذلك الشخصِ بالله ﷻ.

التوازن: حسن الظن مع الحيطة والحذر

إلا أن تجنُّـب الإفـراط والتفريـط يفـرض علينـا أن نجمــع بين حسن الظن وأخذِ الحيطة والحذر، لا سيما بحقِّ من نشاهد تَذَبْذُبَهم

وتردُّدَهـم؛ إذ قد لا يكون من نُحسِـنُ الظن به إنسـانًا كاملًا ومكمّلًا إن كان يحيـد عـن طريق الاسـتقامة بيـن الحين والآخـر، ومن هذه الناحية يجب علينا أن نوسِّـع دائرةَ ملاحظاتنا ونتصرَّف بحيطةٍ وحَذَرٍ فـي المواضيـع الحسّاسـة كتكليفـه بالوظائِف المصيريّـة أو تحميله أعمـالًا فـي غايـةِ الأهمّيّة وما إلى ذلك مـع حسـن الظـن به، وليس مـن حقِّنـا التفوُّهُ بعباراتٍ تُنْبِئ عن سـوءِ الظنِّ من قبيل: "إنني لا أَثِقُ بفلان، فلانٌ لا يوثَقُ به"، يجب ألَّا نتفوَّه بها حتى وإن كنَّا نشعرُ بمثل هذا الشعورِ فعلًا.

إذًا يجـب علينـا ونحـن نفكـر في الآخريـن أن نعتقِدَ بـأنَّ أوهنَ الأعمال وأبسَـطَها قد تُنْقِذُهُم عند الله تعالى، وأن ننظرَ إلى أخطائِهم نظرةَ تسـامُحٍ، وأن نتحاشى الحديثَ ضدَّهم، فثمَّةَ واقعةٌ حدثَتْ في عصـرِ صدرِ الإسـلام تُعْطِـي المؤمنين دروسًـا وعِبـرًا مهمة في هذا الصـدد؛ إذ إن صحابيًّـا كثيرًا ما أُتِيَ به إلى رسـول الله ﷺ ثَمِلًا وعُزِّر لِفِعْلـه ذلـك، وكانت الخمـرُ قد حُرِّمـت حديثًا وقتـذاك، وذات مرّة مـن تلـك المـرات أُحضرَ إلى حضـرة النبي ﷺ بسـببِ ارتكابه نفس الفعـل، فقـال أحـد الموجودين هناك يقصـده: "اللهم الْعَنـهُ، ما أكثر مـا يؤتـى به!"، فَلمّا سـمـعَ النَّبِيُّ ﷺ ذلك قـال: "**لَا تَلْعَنُـوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُـولَهُ**"، وفي رواية أخرى قال ﷺ: "**لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّـيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ**"[١٠٢]، ومن ثَمَّ فإنه يجب علينا حين ننظر إلى الآخرين أن ننظر إليهم دائمًا من أفق رسول الله ﷺ هذا.

(١٠٢) صحيح البخاري، الحدود، ٦.

حُسْنُ الظنِّ من حُسنِ العبادة

حَذَارِ ثمَّ حَذَارِ من إساءة الظنِّ بالقلوب المؤمنة المتصلة بالله تعالى وبرسوله العظيم والقرآن الكريم، والتي نذرت نفسها لخدمة القرآن والإيمان، وينبغي كذلك النأيُ عن تصيُّدِ عيوبها؛ فقد حذّر رسول الله ﷺ من ذلك بقوله: "**مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ**"(١٠٣)، ومن هذه الزاوية فإنه ينبغي لأيِّ إنسان أن يخاف وترتعد فرائصه ويتلوى خوفًا تشغله فكرة: "نسبتُ هذا العيب إلى فلانٍ، ولكن ماذا عساي أنْ أفعل إن اتهمني الناس أو اتهموا زوجي أو أولادي بمثل هذه العيوب!"

أجل، إن المؤمن الحقيقي يجب عليه أن يفكِّرَ بحذرٍ بشأن الآخرين أيًّا كانوا، وأن يتصرف بحيطة وحذر شديدين؛ فكما هو معلوم إن التيقُّظَ والانتباه الدائم أوَّلُ مراتب الكمال، وعلى المؤمن وهو يسير في سبيل الله تعالى أن يسيرَ منتبهًا دائمًا، وأن يصبغَ أفكارَهُ بحسنِ الظنِّ ما أمكنه، وألا يقعَ في وزرِ سوءِ الظنِّ أبدًا، فقد قال رسول الله ﷺ: "**حُسْنُ الظَّنِّ مِنْ حُسْنِ الْعِبَادَةِ**"(١٠٤)؛ ليبين لنا كم أنَّ حسن الظن أفقٌ سامٍ جليلٌ.

ومع هذا فالحذرَ الحذرَ، وإياكم والإهمالَ تجاهَ من يستمتعون ببثِّ السموم في البشرِ كما الثعبان، ويحاولون دائمًا القدحَ في الآخرين وذمّهم، فعلينا أن نضعَ أمامهم السدود والعراقيلَ لنحولَ بينهم وبين ذلك، غير أنَّه يجبُ ألا يمنعكم تصرُّفُكم بحذرٍ وحيطةٍ في هذا الموضوع من الدعاء بالهداية لهؤلاء الذين يحيكون شتّى

(١٠٣) **سنن الترمذي**، صفة القيامة، ٥٣؛ البيهقي: **شُعب الإيمان**، ٩/٦٧.

(١٠٤) **سنن أبي داود**، الأدب، ٨٨؛ **مسند الإمام أحمد**، ١٣/٣٣٨.

أنــواع المؤامــرات ضِدّكم، من أجل هــذا فإنني أُسَــارِعُ بالدعاء لمن افتــروا عليَّ وكتبوا ضدي وضد المســلمين منذ خمســين ســنة حين أفكِّر في أنَّ صنيعهم هذا قد يُدخِلُهم النارَ فأقول: "اللهم إنّي أسألك الخيــر لهــم! وقفــت ببابك اللهم! فــلا تعذبهم في جهنــم! اللهم ألقِ الإيمان في قلوبهم، وشرّفهم به!".

وإلى جانب هذا فقد منحكم الله تعالى حقَّ اختيارِ سبيلٍ آخر؛ إذ يمكنكــم حينمــا يؤذيكم من يؤذيكم أن تدعــوا عليهم قائلين: "اللهم عليك بهم، اللهم اهزمهم وزلزلهم، وشتِّتْ شملهم، وفرِّقْ جمعهم، ومزقهم كلَّ ممزَّقٍ، واجعل بأسَهم بينهم، وانصرنا عليهم!"، من حقِّكم أن تقولــوا كلّ هــذا، لأنَّــه إن كان هناك أناسٌ يُعَذِّبُونكــم، ويُؤْذونكم ويقســون عليكم، ويحيكون مؤامراتٍ شــتى ضِدَّكــم، وينصبون لكم الفخــاخ والحيــلَ فمن حقِّكــم أن تقومــوا بأعمالٍ وتحرُّكات تُفســد عليهم خطَطَهم تلك، وتقلبُها رأسًا على عقبٍ، وتجعل الدائرة تدورُ عليهــم، إذ يقــول الله ﷻ: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُــمْ فَعَاقِبُــوا بِمِثْلِ مَــا عُوقِبْتُمْ بِهِ**﴾ (ســورة النَّحْـلِ: ١٦/١٢٦)، ومــع هــذا كله فــإن هذه الآية الكريمــة تُختَمُ بقوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ**﴾؛ لِتُبَيِّنَ أنَّ الصبرَ وعدمَ التخلّــي عــن النُّبل واللُّطْفِ هــو الأفضلُ لكم فيمــا يتعلَّق بحقوقِكم الشخصيّة.

الإسلام الحقيقي والإسلام الشكلي

سؤال: هل توضّحون حقيقة: "إن الإسلام ليس مجرد شكلٍ وصورةٍ"؟

الجواب: إن الإسلام -كما ذُكر في السؤال- ليسَ مجرَّدَ شكلٍ وصورةٍ ومنظرٍ وصخبٍ وكلامٍ جزافٍ، ولا قيامٍ بمجموعةٍ من الأمور الشكلية، بل على العكس من ذلك: إنه أمرٌ قلبيٌّ، أي إنّ الأهمَّ والأساسَ إلى جانب الشكل هو الجوهرُ والمعنى؛ وقد لَفَتَ رسولُ الله ﷺ الانتباهَ إلى تلك الحقيقة بقوله: "**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلٰكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**"[(١٠٥)]، وقد قال صوتُ الأناضول العذبُ الشاعرُ "يونس أمره" في أحد أشعاره ما ترجمته:

ليس التصوف بارتداء الخِرَقِ والتيجان

فمن يجعل قلبَهُ درويشًا لا يَحْتَاجُ خِرَقًا على الأبدان

ليؤكِّد بهذين المصراعين أنَّ ما يجب الوقوف والتركيز عليه أكثر من الشكل والمنظر إنما هو القلب.

(١٠٥) **صحيح مسلم**، البر، ٣٤؛ **سنن ابن ماجه**، الزهد، ٩؛ **مسند الإمام أحمد**، ١٣/٢٢٧.

ماذا إن بدا ما بداخلنا!؟

ومن هذه الناحية فثمّة أشخاص كثيرون يتقدّمون الصفوف، ويسعون إلى تمثيلِ الإسلامِ بصخبٍ وخُيلاء؛ إلا أنَّهم لا يعدلون جناح بعوضةٍ في ميزان الله ﷻ. أجل، إنّ هؤلاء وإن بدوا في مقدّمة ركْبِ الإسلامِ في الدنيا إلا أنهم سيكونون في وضع بائس ومؤسفٍ في الآخرة، وفي مقابل هؤلاء ثمة رجال آخرون لا يُقدَّرون حق قدرهم في هذه الدنيا، ويبدون في الصفوف الخلفية من المسيرة سوف يتبين في الآخرة أنهم سبقوا السابقين، وتباروا في حياتهم المعنوية مع الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين، وبناءً على ذلك: فإن إصدار أحكامٍ بحقّ الآخرين بالنظر إلى مظهرهم الخارجي وأقوالهم وأشكالهم وصورهم ربما لا يؤدّي بنا إلى نتائج صائبة دائمًا، وهذه حقيقة أشار إليها رسولنا ﷺ بقوله: "**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**"[١٠٦].

ومن المهمّ ههنا عدم حملِ الكلامِ على غير محمله؛ فإيّاكم أن تفهموا أنه لا بدَّ للإنسان أن يكون متواضعًا وحقيرًا حتى يتسنّى له إدراك وإحراز هذا النوع من المقامات والمراتب السامية؛ إذ إن من يتولّون مناصب ومقامات دنيوية معينة قد يصلون بإذن الله ﷻ إلى أعلى المراتب عنده ﷻ طالما سلمت قلوبُهم ووفّوا بحقّ مسؤوليّاتهم، وكلُّ واحدٍ من ساداتنا الخلفاء الراشدين يُمثِّل نموذجًا أجملَ من الآخر في هذا الشأن.

---

(١٠٦) صحيح مسلم، البر، ١٣٨، الجنة، ٤٨.

حياة القادة الحقيقيين المؤثّرة في الأنفس

هـا هو ذا سـيدنا أبو بكر ﵁، عندما تولـى الخلافةَ فَرضوا له من بيت المال ما يصلحه ويصلح عيالَه يومًا بيوم إلى جانب مؤنة الحج والعمـرة، فحينمـا حضرته المَنيَّةُ أوصى بأن يُسـلَّم ما زاد عن حاجته من راتبه إلى من سَيَخلُفُه من بعده؛ وقال ﵁ وهو على فراش الموت: "انظـروا إلـى ما زاد مـن مالي مذ دخلتُ في هذه الإمـارة فردُّوه إلى الخليفـة مـن بعدي"، فلما جيءَ بذلك إلى عمـر بكى ثم قال: "رحم الله أبـا بكـر لقد أتعبَ من بعده إتعابًا شـديدًا"(١٠٧)، ولقد كان سـيدنا أبو بكر ﵁ قبل الإسـلامِ غنيًّا لكنه بعد الإسـلامِ أنفقَ ثروته كلّها في سـبيل الله، ولم يفكِّرْ في أن يسـتغلَّ لصالح نفسه ولو ذرة واحدةً مما يمتلِكُـهُ، وبالرغـم من كثرة النعم والإمكانيـات التي وهبها الله تعالى له؛ إلا أنّه انتقل إلى الدار الآخرة خاوي الوفاض من النعم الدنيوية.

ولـم تكـن حياة سـيدنا عمر بن الخطـاب مختلفةً عـن حياة أبي بكـر الصديـق ﵄؛ فحين كان علـى رأس الدولة طلـبَ تحديدَ راتبه الشخصيّ بقدر ما يتعيّش به أيّ إنسان متوسط الحال من الأمة، وفي عـام الرمـادة حرَّمَ على نفسـه الطعـام إلا بقدرِ ما يـأكل أفقرُ الناس، وهـو الخبز والزيت، فكانت بطنه تُقَرْقِرُ من شـدّة الجـوع، فَنَقَرَ بطنَه بإصبعـه، وقـال: "قرقـري أو لا تُقَرْقِـري، إنه ليس عندنـا غيره حتى يحيـا النـاس"(١٠٨)، وقد رحل عـن الدنيا ذلك الخليفـة العظيم الذي هـزم القوّتيـن العُظْمَيَيْن فـي ذلك العصر ولم يترك من المتاع شـيئًا،

(١٠٧) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، ١٤٣/٣؛ ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٢٢٩/٣٠.

(١٠٨) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٣٤٧/٤٤.

وعليه فإن القاعدة الأساس لحصول التوفيق الدنيوي والأخروي تتأتّى من مسلك ومنهج كهذا.

ولسيدنا عثمان بن عفان ﵁ أيضًا فضائله الخاصة به؛ فكان من أغنى أغنياء المسلمين أنفق دون أدنى تردُّدٍ ستمائة بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله تعالى استجابة لطلب سيدنا رسول الله ﷺ القدوةِ الحسنة والمرشدِ الأكمل، فوصل هو الآخر بكرمه وجوده الفائق أفقًا يُدرِك من خلاله فضلَ الخليفتين السابقين عليه.

وكذلك سيدنا عليّ ﵁ أنفقَ في سبيل الله تعالى ما تحصَّل عليه من مالٍ طيلة عمره؛ وكان يقول: "يَا دُنْيَا غُرِّي غَيْرِي"[(١٠٩)]، فانتقل إلى الدار الآخرة فقيرًا رغم كثرة الإمكانيات.

تلك القامات العظيمة لم تستخدم في سبيل مصالحها الشخصية قطُّ حقوقَ التصرّف الواسعة الإطار التي وهبها الله تعالى إياها، ولا الإمكانيّات التي توفّرت لها بسبب مناصبها، وكما أنها لم تلهث وراء منفعةٍ شخصية تحقِّقها لأنفسها، فإنها لم تستغل إمكانياتها وصلاحياتها التي تمتلكها كي تمنح شيئًا لأبنائها وبناتها وأقربائها وحاشيتها ومؤيِّديها.

أشباه القادة، والمجتمعاتُ المنجرفةُ إلى الهلاك

فهل يقع في الكفر من يستغلّون الإمكانيات التي اسْتَأْمَنَتهم عليها الأمة لصالح أنفسهم وأزواجهم وأولادهم ؟ لا بالطبع، إن هذا السلوك -رغم أنه سلوك شنيع- لا يُخرجهم من دائرة الإيمان

(١٠٩) أحمد بن حنبل: **فضائل الصحابة**، ٥٣١/١.

ويدخلهـم فـي دائـرة الكفـر، غيـر أنه لا ريب فـي أنهـم يكونون قد اتصفوا بصفةٍ من صفات الكافرين، وإنهم حتى وإنْ صلّوا خمسَـهم وصامـوا شـهرَهم وحجوا فرضَهـم؛ فسـيظلّون يُؤْوُون في أنفسـهم وأجسـادهم صفات الكافرين تلك كالجراثيم طالما أنهم لم يُصلحوا نقاط ضعفهم في هذا الشـأن، وربما يتسببون في ظهور مجموعة من الانحرافات في تصرفاتهم وسلوكياتهم. أجل، إنهم سيُفكِّرون تفكيرًا خاطئًـا، ويتَّخذون قرارات خاطئـة، ويتصرَّفون تصرُّفات خاطئة نظرًا لإيوائهم فيروسًـا خطيرًا في أبدانهم، ونتيجة لذلك فإنهم سـيدفعون رعيَّتَهم إلى الهلاك بسياساتهم الخاطئة.

وينبغي ألّا ننسى أنّ الله ﷻ يحكم على الناس بحسب ما يتحلَّون بـه من أخلاق؛ فالأخـلاق المتعلِّقـة بالأوامر التكوينية أو التشـريعية كالتحلّي بالصدق، والحرص على حفظ أعراض الآخرين وشـرفهم، والعيـشِ فـي كنَفِ العفّـة والعصمة، وعدمِ الطمـع في مـال أحدٍ ولا ملكه، والحرصِ على التعاون في الخير، والثورةِ على الكسل، وتنظيمِ الوقت، والاستفادةِ من الإمكانيات بصورة إيجابيّة تمامًا، والتفكُّرِ في الكـون عشـقًا للبحـث والحقيقـة؛ كلُّ ذلك متّحدًا هـو صفة المؤمن الحقّ، يُوفّق الله من يتحلّى بها، ويُعاقب في الدنيا والآخرة مَنْ يُهمِلُها.

أجـل، إن الإنسـان، وإنْ قال: "إننـي متديّنٌ"، ولم يـرَ أحدًا غيره يُطبّقُ الإسـلام ويدافـع عنه مثله، إن كان يجلس في المقاهي كسِـلًا خامـلًا، ولا يكتفي بذلك بل يغتاب الآخرين ويَنُمُّ ويفتري ويكذب، ويتحـرك بالظنون فحسـب لا بالحقائق، ويسـيء التفكيـر بحق غيره مـن المؤمنين؛ فهذا يعنـي أنه يعيش حياة تتصف بأوصاف الكافرين،

ومـن يتصـف بتلك الصفات ليسـت لـه أيَّة قيمة علـى الإطلاق عند الله تعالـى حتـى وإن أنـزل النجوم من السـماوات بحركة منه -وهذا افتـراضُ محال- وأَبهَرَ مَن في الدنيا كما الألعاب النارية، ومدَّ موائد الأنوار فيها، وربما يُضلِّلُ ذلك الشـخصُ الناسَ لفترةٍ مؤقتة بخداعه إيَّاهم، غير أنَّ مثلَه يومض كالضوء الكاذب وما يلبث أن يخبو سريعًا لأنـه لـم يُقِـمْ علاقة سـليمة قويّـة بالله تعالـى، ولـم يسـر على منهج الإيمان، ولـم يقتفِ أثر الأنبياء ولـم يَدُرْ في فلكهم، ولسـوف يتسـبب فـي هـلاك من يتبعونـه، فهناك كثيـرون ضلّلوا كمًّا هائـلًا من الناس وجرّوهـم خلفهم مدّةً مـن الزمان، غير أنهم زالـوا وانمحوا دون أن يمضيَ كثير من الوقت، ولـم يُخلّفوا وراءهم أثرًا يُذكَر على الإطلاق.

جَشَعٌ لا ينتهي

وعليه فينبغي للمؤمن ألا ينخدِعَ بالشكل، وألا ينسى أن الأصلَ هو المعنـى والجوهر والروح، وعليه أن يلازم الإخلاص والصدق، وأن يربطَ كلَّ حركاته وسـكناته برضا الله تعالى، ويسعى إلى تتبُّعِ الإرادة الإلهيـة فـي كلِّ خطواته؛ لأن مـن لا ينظِّمُ حياته وفقًا للأسـس التي وضعها الله تعالى يصبح فريسةً سهلةً للنفس والشيطان وتوجيهاتهما، ومثل ذلك الشـخص سـوف يملأ خزائنه وحسـاباته المصرفية إذا ما وجد الفرصة لذلك، حتى إنه سـيبدأ في إرسـال الأموال إلى الخارج حيـن لا تكفيـه بنـوكُ وطنِه؛ فيسـلبُ الأمة ويسـرقها بِحِيَلٍ لا تخطر لأحدٍ على بالٍ، ويسـعى لإقامة سـلطنته الخاصة بأموال يغتصبها من الأمة، ومن يتحرك بهذه النوعية من الأفكار الشيطانية يسير في طريق الكفر وإن بدا مؤمنًا.

إن النجاحات والمكاسب وسائلُها ومناهجُها متعينةٌ لا بد من الالتزام بها، ويستحيلُ الوصولُ إلى هدفٍ مشروعٍ عبر سلوك طرق غير مشروعة، وكما يجب أن يكون الهدفُ معقولًا ومشروعًا وإلهيًّا؛ فلا بدَّ أيضًا أن يكون السبيل والمنهج المؤدِّي إليه مشروعًا بنفس الشكل، والفكرُ الوصولي الأناني (الميكافيلي) الذي يرى جواز استخدام الطرق غير المشروعة من أجل الوصول إلى هدفٍ مشروعٍ، وأنَّ الغايةَ تُبرِّرُ الوسيلة؛ إنّما هو همزٌ شيطاني بلا ريبٍ، وإنسانٌ هكذا وإن كان من الذين يرتادون المسجد فإنه لا يختلف حالُه عمن يرتَادُون الخمّارة، ويقيمون في معبد الأوثان.

محاولة سترِ ظلمٍ بظلمٍ أكبر

إن من يرتكبون جرائم عظمى كسرقة أموال الأمة ونهبها والتلاعب بالمناقصات والارتشاء وممارسة حياة بوهيمية أو محاباة ذويهم وتفضيلهم على الآخرين دون أن يستحقّوا ذلك؛ تراهم في أية مرتبة من مراتب الإدارة كانوا؛ لا يرغبون في اطِّلاع الآخرين على أفعالهم المشينة اللعينة تلك، ولذلك فإنهم ينزعجون من أن يتولى أناسٌ أطهار صادقون ليسوا على شاكلتهم ولا منهم ولا يُقرّون بأفعالهم غير المشروعة تلك أيَّ منصب أو مرتبة في الدولة تُمكِّنُ من الاطلاع على تلك الأفعال المشينة، ويخافون من أن يُعترض طريقهم، وأنْ يُفتَضحَ أمرُهم، وأنْ يَفقدوا رصيدهم لدى الناس، وكي يستطيعوا الحيلولة دون هذا كلِّه فإنهم يضغطون على أولئك الصادقين الأطهار ويقمعونهم بطرق ووسائل مختلفة لا يتخيلها عقل؛ ذلك لأن كلَّ مجرم يسعى لستر جريمته والانسلال مما اقترفت

يـداه، بـل إنهـم لا يتورعـون عن عزو التُّهَـمِ إلى غيرهـم رغبة منهم في تبرئة أنفسهم.

وكمـا أنهـم لا يرغبـون في أن يطّلـع الآخرون علـى جرائمهم؛ فإنهـم يسـعون إلى تشـبيه من حولهم بأنفسـهم كي يتحركـوا براحةٍ في المستنقع الذي يغوصون فيه؛ فمرتكبو نفس المساوئ والجرائم يتفاهمـون بكل سـهولة مع بعضهـم البعض؛ فيتفـادون بذلك النقدَ واللومَ، ويحاولون إسكات تأنيب الضمير على ما ارتكبوه.

إنهم إلى جانب كل هذا يسـعون إلى تشويه من يرونهم مخالفين لهـم والانتقـاصِ مـن قيمتهـم بمجموعـةٍ مـن الأسـماء والألقـاب يختلقونها في محاولةٍ منهم لِتأمين مستقبلهم والحفاظ على مناصبهم ومراتبهـم، والأدهـى مـن ذلك والأَمَـرُّ أنهم يبذلـون كلَّ هذا الجهد مـن أجلِ إغلاقِ جميـع الأبواب في وجوه هـؤلاء الأنقياء وعزلِهم من مناصبهم، غير أنه ينبغي ألا يُنسـى أنَّ كلَّ هذه الصفات والأفعال هي صفاتُ وأفعالُ أهل الكفر حتى وإن وُجدت لدى إنسان مسلم.

الثباتُ على الحقِّ، وعلوُّ الجنابِ في حلِّ المشكلات

وبالرغـم مـن كلِّ شـيءٍ فإنه يتوجَّـب على المؤمنيـن الحقيقيّين ألَّا يخضعـوا لجبروت وضغوط الطواغيت، وأن يواصلوا السـير في الطريـق الحـقّ الذي يعرفونـه من ناحيـة، وأن يحاولـوا العثور على سبيل خير وبرٍّ لإنقاذ حتى من يسيئون إليهم؛ فيمنعونهم من ارتكاب الشرور والمسـاوئ بموجب قول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّـيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (سورة فُصِّلَتْ: ٤١/٣٤)، فقد ورد أنَّ رجلًا تزيَّا بزيِّ عالمٍ وكان منزعجًا من قولٍ يُعزى إلى جلال الدين الرومي:

"إحـدى قدمـيّ في وسـط الدين والأخرى في وسـط اثنين وسـبعين أمة"، أو قوله "أَقْبِلْ، أَقْبِلْ، أيًّا كنتَ، فلتُقبِلْ؛ كافرًا كنتَ، أو مجوسيًّا، أو وثنيًّا! أقبل فتكيَّتُنا ليسـت تكيّـة اليأس والقنوط، أَقْبِلْ وإنْ نقَضْتَ توبتَك مائةَ مرة! أقبلْ!"، فراح يَكِيلُ له كلَّ أنواع الشتائم والسباب مما يرد على لسـانه قائلًا: "أنت زنديق، أنت فاسـق، أنت تُضلل الناس، وتحتضـن الجميـع وتتملق إلى اليهـود والنصـارى والمجوس..."، وبينمـا كان ذلـك الرجل يفرغ كل ما بداخله من سـموم، كان جلال الديـن الرومـي يسـتمع بإخـلاصٍ وتواضـع كامليـن لكل مـا قاله، فلمـا انتهـى الرجل من كلامه سـأله مولانا: "هل قلـت كلَّ ما عندك وانتهيتَ؟"، فأجابه الرجل: "نعم"، فقال له مولانا: "إن صدري مفتوح لك أنت أيضًا، فأَقْبِلْ!".

أجـل، ربما يُغلِّـق البعضُ جميـع الأبواب في وجهكـم مختلقًا حججًـا واهيـة مختلفـة، وربمـا يسـتكثرون عليكـم أقـل الحقـوق والحريّـات الأساسـية، حتـى إنهـم قـد يطلبـون عرقلـة مجموعـة مـن خدماتكم الخيريـة حتى ولو كانت في أقصى مـكان من العالم، عليكـم فـي مقابل هـذا أن تقومـوا بواجبكـم، فتقولوا "حَسْـبُنَا اللهُ"، وتواصلـوا فعـل الخير والعمـل الصالح في الطريـق الصحيح الذي تعرفونه، ولا ينبغي لكم الردُّ على تلك الإساءات بمثلها، إذ إن مقابلة الظلـم بالظلـم ظلمٌ، إنَّ الإسـلام اعتبـر الردَّ على المظالـم المرتكبة بمثلهـا ظلمًـا؛ حيث قـال رسـول الله ﷺ: "**لَا ضَرَرَ وَلَا ضِـرَارَ**"(١١٠)، كما أن القاعدة الكلية تقول: "الضررُ لا يُزال بمثله"(١١١).

(١١٠) **سنن ابن ماجه**، الأحكام، ١٧ ؛ **موطأ الإمام مالك**، الأقضية، ٢٦؛ **مسند الإمام أحمد**، ٥/٥٥.

(١١١) ابن نجيم: **الأشباه والنظائر**، ص ٧٤.

إن سيدنا رسول الله ﷺ تحلى طيلة حياته السنيّة بالمعاملة الحسنة والصفح والعفو عمن أساؤوا إليه؛ حتّى إنه حينما دخل مكّة فاتحًا كان قد انحنى على راحلته، حتى إن عُثْنُونه ليكاد يمسّ واسطة الرَّحل(١١٢) تواضعًا منه لله أنْ فَتَحَ عليه مكة، وبينما كان مَن أذاقوه كل أنواع الشرِّ والأذى حتى ذلك اليوم ينتظرون في خوف وقلق شديدين الحكم الذي سيصدره ﷺ بحقهم؛ إذ به يُطلِقُ حكمَه السمحَ الشهير: "**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**"(١١٣)، مثلما فعلَ يوسف عليه السلام مع إخوته قبل آلاف السنين حينما قال لهم: ﴿**لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**﴾ (سورة يُوسُفَ: ٩٢/١٢)، وتلك هي المروءة، وعلوُّ الجناب! والطريقُ الأمثَلُ الذي يجبُ على ورثة الأنبياء أن يسلكوه في عصرنا وفي كل عصر ومصر إنما هو هذا الطريق!...

---

(١١٢) ابن هشام: **السيرة النبويّة**، ٤٠٥/٢. (والعُثْنُونُ من اللحية: ما نَبَتَ على الذقن وتحته سِفْلًا).

(١١٣) البيهقي: **السنن الكبرى**، ١٩٩/٩.

مظهر جديد من مظاهر الظلم، والإسلام الشكلي

سؤال: إن مَنْ لا يسكتون على الظُّلمِ والجَورِ ويحاولون تحذيرَ الناس من المنكرات يتعرضون لهجمات كالافتراء عليهم وتهديدهم وقمعهم؛ فما التصرُّفُ الذي يتَّفِقُ مع القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة وينبغي لهؤلاء الناس أن يلتزموه في مواجهة ما يتعرضون له؟

الجواب: يبيِّنُ الحقُّ تعالى في قوله ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ١١٠/٣) أنَّ أمَّةَ محمدٍ ﷺ هي خيرُ أمَّةٍ أُخْرِجت للناس، وقد ربطَ **الله** ﷻ وصفَ الخيريَّة هذا بصِفَتِها آمرةً بالمعروفِ ناهيةً عن المنكر إلى جانب صفة الإيمان، وبتعبير آخر رَبَطَهُ بنشرِها الخيرَ وحمايتِها الناسَ من أضرارِ الشرِّ، ومن هذه الناحية فإنه ينبغي للمؤمن إذا أرادَ تنشِئةَ جيلٍ نموذجيٍّ قدوةٍ تغبِطُه حتى الملائكةُ عليهِ؛ أن يُساهمَ -بواسطةِ الأمر بالمعروف- في تحليةِ الناسِ بالفضائلِ والمحاسِنِ، وأن يسعى -بواسطة النهي عن المنكر- إلى تخليةِ الناسِ عن الرذائلِ، ومنعِهم ممّا استنكره واستحقره **الله** ﷻ ورسولُه ﷺ والعقلُ السليم والطبيعةُ البشرية.

فِعلُ الخيرِ سِرًّا

إن التحذيرَ من الشـرور والآثام له سُـبُلٌ مؤَطَّـرَةٌ وقنواتٌ خاصّةٌ وحدودٌ واضحةٌ، فيجبُ ألا ننسـى أن الموقـف الواجب اتِّخاذُه عند النهي عن المنكرات لا يكون موجَّهًا للشَّـخْصِ نفسه، بل للأوصاف السـيِّئَةِ الموجودة فيه، وبتعبير آخر: إن كلَّ صفةٍ سـيّئةٍ تُشـبِهُ فيروسًا يُصيبُ البَشَرَ، والغايةُ الأصليّة من النهي عن المنكر هي القضاءُ على ذلك الفيروسِ لا على حامِله حتى يستردّ الفردُ صحَّتَهُ وعافيَتَهُ وأمنَه وطمأنينتَهُ مجدّدًا، ولذا فإن المؤمن يقف في وجهِ الصفاتِ الذميمةِ، بـل يعلـن الحـربَ عليها، لكـن ينبغي لـه أن يكون رحيمًـا إلى أبعد الحدود بمن يحملونها، ويسـتخدمَ تجاههم لغةً وأسلوبًا ليّنًا، لدرجة أنـه يجبُ عليكم وأنتم تُحَذِّرون مرتكبـي المنكرات مما يفعلونه ألا يَفطنـوا إنْ كنتـم تعارضونهـم أو لا. أجـل، ينبغـي لكـم أن تتحرّكوا وتتصرّفـوا هكذا بأسـلوبٍ رقيقٍ دقيقٍ حتى يتسـنَّى لهم أن يتخلَّصُوا سـريعًا ودون وعـيٍ مـن تلـك الصفـات الذميمـة التـي يحملونهـا، ويخلعوهـا عنهم كما يخلعُون ملابِسَـهم تمامًـا؛ فالتصرُّفُ هكذا هو أحـدُ ضروريّات وثوابتِ السـلوكِ والمنهجِ النبويِّ صلى الله وسـلّمَ على صاحبه.

وإن قابَلْتُـم المواقـفَ والسـلوكيّات السـلبية بِمِثْلِهَـا فإنّكـم تُضَاعِفُونهـا أكثـر بـدلًا من أن تمنعوها، ولا سـيما فـي عصرنا الذي تُضَخُّ فيه السلبيَّات إلى الناس دائمًا؛ مما أدّى إلى ممارَسَتهم العديدَ من السلوكيات والتصرفات المنبوذة، وهذه مسألةٌ شديدة الخطورة.

إذًا عليكم أن تكونوا -كما وصف وأرادَ جلال الدين الرومي- شمسًا تلاطِفُ الجميعَ شفقةً ورحمةً، وترابًا تدوسُه الأقدامُ تواضعًا ولينَ جانبٍ، ومطرًا يروي النباتَ والشجرَ كرمًا ومعونةً، وشجرًا نافعًا للآخرين ظِلًّا وثمارًا، وليلًا يوارِي كلَّ شيءٍ سترًا للعيوب، وميِّتًا بُعدًا عن الحدّة والعصبيّة، ومحيطًا متراميَ الأطراف تسامحًا وصفحًا... كما ينبغي لكم أن تُحافظوا على نفس الموقف لا سيّما تجاه من بَعُدوا عنكم وانزلَقُوا في مجموعةٍ من الأخطاءِ والزلّات بسبب همزات الشياطين وإغواءِ النفسِ الأمارةِ بالسوءِ رغمَ أنهم يتَّجِهونَ إلى نفسِ القبلةِ التي تتّجهون إليها ويسجدون معكم حيث تسجدون، فيجب عليكم أن تَثبُتوا على موقفكم وتُحافظوا على منهجِكم معهم حتى وإن بَعُدوا هم عنكم؛ لأنكم إن بَعُدتُم عنهم شبرًا كلَّما بعدوا عنكم شبرًا تضاعَفَت المسافةُ وشَسَعَ البونُ بينكما، غير أنكم إن تَثبُتوا على موقفكم تُقلِّصوا المسافة بينكما، ويصبح هذا البعد خطأً قاصرًا عليهم دونكم، فلو أنهم ندِموا ذات يومٍ وأرادوا الرجوعَ فإنهم لا يُعانون كثيرًا في تلافي أخطائهم التي ارتكبوها، ولا يضطرّون في سبيلِ تحقيقِ ذلكَ إلى استخدامِ جدليّاتٍ وحُججٍ واهيةٍ مختلفة، فليس من الجيّدِ تضخيم الفتنة وتوسيعها، بل المهمُّ هو التصدّي لها بدِرْعِ الفطنة والقضاء عليها.

الامتحان بمشاعر العزّة والشَّرَف

قد يَعُدُّ البعضُ اتخاذَ موقفٍ تجاهَ هذا النوع من الناس أحدَ ضروريّات حمايةِ شرفهم ومجدهم وعِزّتهم، غير أنَّ مفخرةَ الإنسانيّة ﷺ -تاجَ الشَّرَفِ والمجدِ وقِمّتَهُ- قد رجعَ خطوةً إلى الوراء في بعضِ

المواقف الحسّاسة حين استدعى الأمر ذلك؛ مُفكِّرًا فيما سَيجْنِيه من مكتسبات ومنافع لاحقًا، وبهذه الطريقة علَّمَنا أن التراجُع قليلًا حين يقتضي الأمرُ ذلك إنّما هو مِن إستراتيجيّاتِ المسلمين.

فمثلًا لقد خرجَ النبيُّ ﷺ من المدينةِ ومعه أصحابُهُ الكرام قاصدينَ مكّةَ المكرَّمةَ لأداءِ مناسكِ العمرة، واجتازوا لأجلِ ذلك زهاءَ أربعمائة كيلومتر ركوبًا على الخيل والجمال، غير أنّهم لما اقتربوا من مكّة ولم يبقَ بينهم وبينها إلا مرحلَتَين أو ثلاثة؛ اعترضهم مشركو مكَّة ومنعوهم من دخولها؛ إذ حاصرَ خالدُ بن الوليد المعروفُ بدهائه العسكري -ولم تكن عيناه آنذاك قد انفتحتا على الحقيقة بعدُ- حاصرَ المسلمينَ بكتيبته المختارةِ من صفوةِ خيَّالةِ قريش، ومنعوا النبيَّ ﷺ وأصحابَه من الدخول فلم يعترضْ مفخرة الإنسانية ﷺ على هذا، في حين أنَّ ساداتنا الصحابة المتحلقين حول رسول الله ﷺ كانوا قادرين -بإشارة منه ﷺ- على أن يناضلوا بحقٍّ واستماتةٍ ويتغلَّبوا -بإذن الله تعالى- على مشركي مكةَّ وفيهم خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص، ويدخلوا مكَّةَ عنوة.

لكنَّ رسول الله ﷺ الذي ائْتَمَنَ نفسَهُ على شرفِ وعزَّةِ أتباعه إلى جانبِ عِزَّته وشرفه نفسه وافق على المادة الواردة في المعاهدة بشأنِ عودةِ المسلمين من حيث أتوا دون أن يَعْتَمِروا ويزوروا مكَّةَ هذا العام، لقد وافقَ رَغْمَ وعده أصحابَهُ ومعرفته مشاعرَهم وأحاسيسَهم، وعاد بعد إبرام المعاهدة هو وأصحابُه سويًّا إلى المدينة دون أن يعتمروا، وعلى نفسِ الشاكلةِ أيضًا فقد أمر ﷺ بِنفسِه أن تُمسَحَ عبارةُ "رسول الله" المدونةُ في أوّل المعاهدة بسبب اعتراض المشركين

عليها، كما قَبِلَ ﷺ مواد الاتفاقيّة التي بدت في ظاهرها ضدّ المسلمين في صلح الحديبية كمادة أنه: "من أتى محمدًا من قريش من غير إذن وليه رده محمدٌ إليهم، ومن جاء قريشًا مِمَّنْ مع محمد لم يُرَد إليه"، حتى إن بعض المسلمين الذين كانوا يُعذَّبون في مكّة أثناء الصلح كسيدنا أبي جندل هربوا ولجؤوا إلى رسول الله ﷺ، إلا أنّه ﷺ أعادهم كرْهًا وعلى مضضٍ، بسبب إصرار المشركين وإلحاحهم على تفعيلِ الاتفاقيّة مباشرةً ودون انتظار.

إن هذه هي النقطة التي يُنتهك فيها الشرفُ والعزةُ من جانبٍ، وقد تحمَّل كلَّ هذه الأمور مفخرةُ الإنسانية ﷺ الذي اعتصر وجدانه ألمًا وشعر بكلِّ الآلام والهموم التي اكتَنَفَت مشاعرَ ساداتِنا الصحابة في مواجهة تلك الأحداث، وعند النظر إلى هذه الأحداث يمكن تقييمُها -في جانب منها- على أنها خطوة للوراء، غير أنَّ كلَّ واحدةٍ منها كانت حملةً مهمَّةً جدًّا من أجلِ الانتقالِ إلى الشدِّ المعنويّ والسيرِ قُدمًا نحوَ الفتحِ المستقبليّ المُنتظَر؛ حيث إن الرجوع خطوةً إلى الوراء هنا شَكَّلَ ظروفًا مناسبةً وأرضيَّةً خصبةً لفتح مكة فيما بعد، وكوّنَ مناخًا ملائمًا استطاعَ المسلمونَ خلالَه بفضلِ الله فتحَ مكّة بسهولةٍ ويُسرٍ.

الصبر الفعّال ولحظة تنسيم التجلّيات الإلهيّة

قد يُساءُ إلى شَرَفِنا وتُكسَر عِزَّتُنا ونُؤذَى نفسيًّا في يومنا الحاضر أيضًا، ونتعرَّض للحقد والبُغض والحسد حتى يصل الأمرُ لمعارضة أجمل الأعمال التي نضطلع بها وأكثرها معقوليّة فتُوصَف بأنها شيطانيّة، وفي فترةٍ زمنية معينة كان يُهاجمكم مَنْ ينزعجون من

كلِّ شـيء يتعلـق بالدين، ويفتشـون في كلِّ ما يخصُّكـم صغيرًا كان أو كبيـرًا، ويُخْضِعونـه للمراقبة، وقد مرَّت سـنوات على هذا، ولكنه لم يتغيَّرْ شيءٌ كثير؛ إذ جاء المتذَبْذِبون -الذين هم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء- بعد الملحِدين، وواصلوا هذا الظلم، وبعد أن ذهبوا هم أيضًا جاءت هذه المرةَ مجموعةٌ من المسـلمين اسـتجمعت في يدها قـوَّةً وإمكانيَّـاتٍ معيّنة، وبـدأت هي الأخرى تستسـيغُ المظالم التي ارْتُكِبَتْ سابقًا ضدّكم بسبب تديُّنِكم والتزامِكم، وعارضت بأسلوبٍ مُغرِضٍ -لم تتخِذْه ضدّ أيِّ شخص على الإطلاق- المدارسَ والمدنَ الطلابيَّة ومراكزَ التأهيلِ الجامعيّ التي أنشـأها شـعبُنا المخلصُ بكلِّ جهـدٍ وإخـلاصٍ، وأَعْـدَت هذه المجموعـةُ بعضَ النـاس ضدّ تلك المراكز التعليميّة "أملًا في العثورِ على ثغرةٍ فيها!"، وذلك لأنَّ الحسدَ والحقدَ يجعلُ الإنسان يأتي من الشرور ما لا يأتِيه الكافر أحيانًا.

غيـر أنّه ينبغـي لنا ألا نفزعَ أو نهتزَّ في مواجهة كلِّ هذه الشـرور والمساوئِ، وألا نتشـدَّقَ قائلين: "مجدي، وعزّتي!"، بالعكس يجب الانتبـاهُ إلـى أنَّه ثَمَّـة مظالم وأضـرارٌ تقـعُ في محيـط إذن الله تعالى لِحِكَـمٍ خفيّـة، والتي لو لم يأذنْ بوقوعها لما اسـتطاع أحـدٌ أن يَضُرَّ أحـدًا، فيجب الرضا بما يقسـمُه، والتوجُّهُ إليـه تعالى ثقةً في رحمته وعطفه، ومن هذا القبيلِ قولُ الشاعر:

ما أعذب البلاء إن كان من جلالِهْ

وما أحلى الوفاء إن كان من جمالِهْ

فكلاهما صفاءٌ للروحِ

فما أحلى لطفه وما أعذب قهره!

ويجب انتظارُ اللحظات التي ستُنَسِّمُ فيها تجلّيات العناية الإلهية، وإنْ وَقَعَ ظلمٌ واضطهادٌ من أعداءِ الدين أو حتى من المتذبْذِبين، أو من المؤمنين الذين أَكَلَهم الحسدُ، أو حتى ممّن يَبدون مسلمين ظاهريًّا وشكليًّا ممّن يضعون جباهَهم على الأرض؛ فإنه يجب علينا ألا نتخلّى أبدًا عن أفكارِنا ومشاعرِنا ومبادئِنا الأساسيّة في هذا الشأن، وينبغي لنا أن نفتحَ صدورَنا للجميعِ دائمًا، ونعرف كيف نرسل باقات المودّة والمحبّة إلى الجميع، ويجبُ علينا أن نقابلَ كلَّ سهمٍ يرمينا به المعتدونَ بوردةٍ، وأن نُمطِرَهم بالورود بدلَ السهام، وسواء فَهِمُوا هذا أَمْ لم يفهموه؛ فإنّنا سنظلُّ مخلصين صادقين لما نفهمُه من القرآن الكريم والسنة النبوية أسلوبًا ومبدأً إلى أنْ تفارق أرواحُنا أجسادَنا.

مواصلة الخدمة رغم كل العراقيل

سؤال: نعيش اليومَ حالةَ بَلبَلَةٍ خطيرة حقًّا؛ إذ شُوّهت الصورة الحقيقيّة لأناسٍ بشنِّ حملات تشويه وإساءة كاذبة وبمجموعة من الظنون والأوهام؛ فكيف يجب أن تكون فلسفتنا إزاء ذلك؟ وما مفهوم العمل والنشاط في ظلِّ هذه الظروف؟

الجواب: بدايةً يجب على من يخدمون في سبيل الحقِّ أن يقبلوا بحقيقةٍ تتجلى ظاهرة في حاضرِنا اليوم كما تجلَّت في الماضي القريب والبعيد، وهي أنَّ من يحملون صفات ذميمة كالحقد والكره والحسد سوف يعتبرون فئات المجتمع المخالفة لهم فكريًّا أعداءً، فيهاجمونها في كل مكانٍ، ويرتكبون تجاهها ما لا يُتوقع من شناعات ودناءات من أجل حماية مصالحهم الشخصية؛ وذلك بسبب جنون العظمة الذي أصابهم، غير أنَّه ينبغي للأرواح التي نذرت نفسها لله أن تلجأ إليه ﷻ دائمًا في تَسلِيمٍ وتوكُّلٍ، وأن تواصل كلَّ أنشطتها معتمدة عليه تعالى، وأن تُبقِي عينَها على "النور الخالد" ﷺ، وتُواصلَ المسير والتقدّم في الطريق الذي تراه حقًّا بضمير ووجدان فسيح يحتضن الإنسانية جمعاء برغم كلِّ المعوقات والشرور.

والحقيقة أنكم ربما تجدون وأنتم تسيرون في هذا الطريق جفاءً ممن تأملون منهم الوفاءَ، وقد يتخلّى عنكم من سِرتُم سويًّا وتقاسمتم معهم أشياء كثيرة حتى اليوم، بل وربما يطعنُكم في ظهوركم أشخاصٌ لا تتوقَّعون منهم فعلَ ذلك أبدًا، غير أنَّه ينبغي لكم أن تفتحوا أبوابًا وآفاقًا جديدة في وجدانكم، وتُواصلوا السير في الطريق الحقِّ الذي أنتم عليه دون سأمٍ ولا مللٍ ولا اهتمامٍ بمثل تلك السلبيات، وعليكم أن تعملوا على أن تزيدوا من سعة روحكم وتوسِّعوا أفق وجدانكم باستخدام مقوِّمات جديدة.

مرشدون لا يَخدعون

ثمة حاجةٌ إلى مرشدين وهداة يَبُثُّون الثقة دائمًا فيمن حولهم ولا يخدعونهم ولا يُضِلُّونهم لا سيما في عصرٍ سادت فيه الفوضى، وراجت فيه فتنٌ مرعبة وعظيمة أشارت إليها كتبُ الحديث في أبواب "الفتن والملاحم"، وتوالت فيه أحداثُ الهرج والمرج، وعُدَّ الخداع مهارةً وفنًّا، فعليكم أن تُعلِّموا الإنسانية معنى الثقة والأمن، وذلك بأن لا تخدعوا أحدًا لا بالقول ولا بالفعل ولا بالمنظر، ويجب ألّا يجد الآخرون في نبض قلوبكم ودقّاتها ما يُوحِي بالخداع والتضليل وإن ظلوا يراقبونكم ولو حتى خمسين سنة.

والحقيقةُ أنكم قد تعانون بعضَ الشيء في تقديم أنفسِكم للآخرين وتعريفِهم بكم بشكلٍ صحيح؛ إذ إن الكثيرين في يومنا هذا يطلبون الدنيا ونعيمها، وقد تعلَّقوا بها كلٌّ بحسب منصبه ومكانته، رغبة منهم في اختطاف أو اقتناصِ شيء من متاعها، وربما هم يرونكم مثلهم بحسب مقولةِ: "كلٌّ يرى الآخرين على ما هو عليه"،

بل وقد يُفتِّشـون عن مقاصد أخرى غير التي تنشـدونها في انفتاحِكم علـى العالم، واحتضانِكم الإنسـانيّة جمعاء بمودّة ومحبة، وسـعيِكم للتأليـف بيـن أُناس نشـؤُوا فـي بيئات ثقافيّـة مختلفـة، ولأنَّ أولئك الأشخاص يفعلون كلَّ شيء تشوُّفًا لمنفعةٍ معيّنة فقد يعتبرونكم أنتم أيضًا تركضون بهذه النشـاطاتِ وراء هـذا النوع من المنافـع الدنيوية مثلهـم، بـل إنـه قد يظهر بيـن مَنْ يقفون إلـى جواركـم وتُكِنُّونَ لهم المحبـة والتقديـر أناسٌ ينخدعون بمثل تلـك الأوهام والظنون؛ فهم يُفسِّرون تصرفاتكم وأفعالكم بحسب مشاعرهم وأفكارهم الخاصة؛ فيسـتخرجون منهـا معانيَ على خلاف الحقيقـة، ويعتبرونكم مصدرَ خطرٍ بالنسبة لهم، غير أنه يجب عليكم دائمًا وفي كلِّ فرصة أن تُبيِّنوا أنكم لا تبتغون شـيئًا سـوى رضا الله تعالى، وأن تُثبتوا هذا بأفعالكم وتصرُّفاتكم أيضًا دون أن تُلقوا بالًا لأيٍّ من تلك الافتراءات.

إخلاصُ النية

يسـتحيل أنْ يتشـوَّف إلى أيَّة منفعـةٍ دنيويّةٍ مَـنْ يطلبون رضا الله فحسـب فيما يفعلونه، ويسـعون إلى إقامة عالم من المودّة والمحبة والتوفيق بين الناس بانفتاحهم على مختلف أنحاء العالم، ويطمحون بهـذا كلّـه إلى الفوز برضا الله تعالى؛ فهـؤلاء المُغرمون الذين يَمَّمُوا وجوههم شـطر نَيل رضا الله وعزموا وأقدموا على تغيير وجه العالم سـيكونون أبطالًا حسب نيّاتهم، وسـيحصلون على أجرها حتى وإنْ لـم تكـفِ قواهم لأن يحقِّقوا بشـكلٍ كامـلٍ خططَ السـلام والمحبة التـي رسـموها؛ فـ"**الأَعْمَـالُ بِالنِّيَّـاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَـا نَوَى**"[(١١٤)]

(١١٤) صحيح البخاري، بدء الوحي، ١؛ صحيح مسلم، الإمارة، ١٥٥.

كما قال رسول الله ﷺ، ومن ثمَّ فإن إخلاص النية لله تعالى هو العامل والعنصر الأساس الذي سيفيد الإنسان؛ فبقدر نية الإنسان ورحابة وجدانه تكون رحمة الله تعالى ورأفته به.

فمثلًا قد تشدّون الرحال بِنِيّةِ نشر السلام في أرجاء العالم بإذن الله وعنايته، ولا تتوانون ولا تتكاسلون في الطريق الذي تسلكونه طالما سمحت الإمكانيات ولاءَمت الظروفُ وتكوَّنت البيئة المناسبة في البلادِ المُضيفةِ، بل إنكم تزيدون من سرعتكم ووتيرتكم في العمل أكثر، غير أنه قد يأتي زمان تُطلُّ فيه برأسها عقباتٌ وعراقيل تعترض طريقكم؛ فلا تتمكنون إلا من قطع عُشر الطريق الذي نويتم قطعه، فهنا سيُجازيكم الله بفضلِه على قدرِ الطريقِ كلِّه، لا على قدرِ العشرِ فقط؛ لأن نيتكم خالصةٌ وسليمةٌ تمامًا.

ولكن كي تكونوا جديرين بنَيلِ عاقبةٍ حسنة كهذه فلا بُدَّ من إخلاص النية وسلامتها من أجل تحقيق ما تستهدفونه في طريق الحق، وألا تتسلّل إليكم أيَّة أفكار تشوُّفيّة من قبيل: "تُرى أيأتي يومٌ نُكَافَأُ فيه بمنصب إداري أو بشيء آخر ولو كان بسيطًا مقابل ما أنجزناه من أعمال؟!"، بل عليكم إن خطرت ببالكم مثل تلك الخواطر أن تعتبروها همزات شيطانية؛ فتستعيذوا منها وتبتعِدوا عنها فورًا.

وهذا لا يعني ألا ينال بعضُ الأشخاص ما يستحقونه من مناصب وأعمال، فلا ريب أنَّه سيخرج من بين مَنْ يستحقون تولي مناصب معينة المديرُ والقائد والمستشار والنائب في البرلمان والوزير... إلخ، غير أنَّ مَنْ نذروا أنفسهم للخدمة في سبيل الله ولا يفكرون

في شيء سوى رضا الله تعالى كي تتنفَّسَ الإنسانية السعادةَ والرخاء؛ ينبغـي لهم ألّا يتشـوفوا إلى أيّ منصبٍ دنيـوي حبًّا في الدنيا، بل إنه يجـب عليهم ألا يسـتعجلوا في قبول بعض المناصـب وإن جاءتهم تُهرول إليهم، وعليهم أن يُفكروا إن كان هذا سيخدم غايتهم المثالية أو لا؟ فيُقـرروا بناءً على إجابة هذا السـؤال القبـولَ أو الرفضَ، وإلا فإنهم يُدنِّسـون فكرة الرضا الإلهي الذي خرجوا في سـبيل الفوز به، ويبدّدون بأيديهم ما يُرجى أنْ يقـع في قلوب مخاطبيهم من تأثيرات إيجابيـة، ويضيّعـون أرصدتهم لـدى الآخرين، ويفقـدون ثقة الناس بهم.

فضـلًا عن طلبِ هذا النوعِ من المقامـات والمناصب، فإنّ وَلَـعَ من عشـقوا الغايةَ المثالية السـامية بفتح العالم بأسره لَيَعْنِي تراجعهم القهقَـرَى بضـع خطـوات عـن الدرجة التي هـم فيها؛ ففتـحُ العالم أجمع بالنسـبةِ إلـى تلك الغايـة المثالية التي تتمثّل فـي إنقاذ الحياة الأبدية للناس إنّما هو كنقطة ماء بالنسبة للمحيط.

بناء عليه فإنه ينبغي للمهاجرين من أجل الوصول إلى هذه الغاية المثالية في عصرنا أن يعتبروا بزوغَ حُبِّ الحقِّ والحقيقة في القلوب وترعرعَـهُ، وإنبـاتَ الأخـلاق والفضيلة فـي الأرواح، وتآلفَ الناس وتعانقَهم؛ أسـمى غايةٍ في حياتهم، وعليهـم أن يُنظِّموا حياتهم وفقًا لتلك الغاية السامية دون أن يُضيِّعوا منها ولو ثانية واحدة.

موقف المتطوعين من الاتهامات الموجهة إليهم

سـؤال: تثيـر بعضُ القطاعـات مجموعةً من الشـبهات حول مَن نذروا أنفسـهم لخدمة البشر في كلِّ فرصةٍ؛ فتتهمهم وتفتري عليهم؛ فتُعكِّرُ الجوّ العامَّ، فما هو الأسـلوب المرجو اتّباعه إزاء هذه النوعية من الحوادث؟

الجـواب: بدايةً إنني شـخصيًّا أرى أنَّه لا داعـيَ للرَّدِّ على معظم الافتـراءات المزعومـة بحـق حركـة الخدمـة؛ لمـاذا؟ لأنَّ كلَّ إجابة وردٍّ يعنـي مُوارَبـةَ البـاب قليـلًا لأنْ يظنَّ صحةَ تلـك الاتهامات من يسـمعونها للمرة الأولى؛ حتى إن ما تسـوقونه من إجابات قد يدفـع البعـض لأن يتسـاءل: "تُـرى أيُحِـسُّ هؤلاء أنَّهـم مُجرمـون حقًّا؟"، ولهـذا لا يكون صوابًا أن تحاولـوا بيان عدم صحة وصدق كل تلك الاتهامـات والافتـراءات الظاهرِ كذبُهـا والبيِّنِ مُنتِجوهـا والواضحةِ أهدافُهـا، فَالعقـلُ والوجـدانُ سـيحكمُ من فوره بأنّـه لا علاقة لتلك الافتراءات بكم قطّ.

البيِّنةُ على من ادّعى

علاوة على أنَّ هناك قاعدةً من القواعد الكُلّيّة تقول: "البيّنةُ على مـن ادَّعـى، واليمينُ على مـن أَنكر"، فإذا ادعى البعضُ شـيئًا ضدّنا؛

فإنهم مكلفون ومطالبون بإثبات ما يدَّعونه، نحن نؤكد أنَّ كلَّ هذه الافتراءات كاذبة، وإذا أراد أحدٌ أن نُقسِمَ على ذلك؛ فإننا نقسم بكل أريحية: "والله، بالله، تالله لا علاقة لنا قط بالأمور التي تعزونها إلينا".

فضلًا عن أنَّني أعتقد أنَّ مَنْ يتحدثون دون تروٍّ ولا استحياءٍ بحقِّ فدائيِّي الخدمة الذين نذروا أنفسهم لإعلاء كلمة الله وليست لهم غاية سوى نَيلِ رضاه ﷻ؛ إنما هم أشخاص عجزوا عن الحفاظ على مستوياتهم الإنسانية؛ وإنني وإن كنت أرى نفسي أحقر من الجميع إلَّا أنّني كإنسان شرُف بعبوديته لله تعالى أعتبرُ النزول إلى مستواهم عند الردّ على افتراءاتهم تلك نوعًا من سوء الأدب مع الله تعالى، وعلى النحو نفسه فإنني كفردٍ من أفراد أمة سيدنا محمد ﷺ أعتبر الرد على تلك الافتراءات غير العقلانية وغير المنطقية التي يثور عليها الضمير اليقظُ يُشَكِّلُ خَطرًا يتمثَّلُ في النزول إلى مستوى هذه النوعية من البشر، وأَعُدُّ هذا نوعًا من سوء الأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ.

ومن ناحية أخرى فإنكم حين تبادرون إلى الردّ على كلِّ من يتحدث ضدَّكم فإن هذا يشغلكم كثيرًا؛ ويُهدِر أوقاتَكم القيّمة ولحظاتكم الثمينة، وبالتالي تعجزون عن القيام بأعمال عظيمةٍ للغاية يجب عليكم فعلها، والأكثر من ذلك أنَّ المفترين يُحرِّفون ما تسوقونه من ردود وأجوبة لأنهم ينتهجون المنهج الجدليَّ والدهماويّ، وهو ما قد يتسبب في تكون مجموعة جديدة من الأسئلة وإشارات الاستفهام في الأذهان، ونتيجة لكل هذه الأسباب فإنني أعتبر الرد على المفترين الذين يتفوهون ضدنا بمجموعات من الكلمات الطائشة غير المسؤولة عبثًا، وأُفَضِّلُ شخصيًّا التغاضي عنها كلّها.

جنون القوة الغاشمة

ومع هذا فإنه يجبُ -شريطة الحفاظ على أسلوبنا- الردُّ على الافتراءات وتوضيحُ الأمر والتصريحُ بالحقيقة إنْ كانت تلك الافتراءات المزعومة المطَّردة تتسبب في تشويش أذهان جموع واسعة من الناس، وتؤدي مع مرور الوقت إلى ميل أهل الفطرة والعقل السليم إلى مثل هذه النوعية من المزاعم الزائفة نتيجة كثرتها وتكرُّرِها باستمرارٍ، وانطلاقًا من هذا المنظور أَوَدُّ -إذا سمحتم- أن أتطرَّقَ باختصار إلى بضعة أمور مع خطوطِها الرئيسة:

لقد مُورِسَ حتى اليوم عديدٌ من الهجمات والاعتداءات على مجموعات شكّلها أناسٌ يرغبون في تحقيقِ مصالحِ أُمَّتهم، ويكِدُّون من أجل ذلك؛ فلا يُقذفُ بالأحجار إلا المثمر من الأشجار، ولا سيما أنَّ من يتصرفون وفقًا للمنفعة السياسية والمصلحة الشخصية بذلوا ما في وسعهم من جهد وسعيٍ كي يُخضعوا لهم مَن عجزوا عن توجيهه كما يريدون، فلما سيطرت على قدر الأمة قوةٌ غاشمةٌ يتعذر تصويبها وتعديلها بالقانون والعدل كان المقياس الوحيد هو تلك الفكرة الكافرة: "ما دُمتُ قويًا فمن حقي أن أفعل ما أريد، ولا قِبَلَ لأحدٍ أنْ يعترض عليَّ".

ومن ثم فإنَّه يجب فهم وإدراك الفكرة الأساسية التي تؤدي إلى كلِّ هذه الحوادث بكلِّ خلفياتها فهمًا جيدًا، فقد يفكر القطاع المعتمِد على القوة الغاشمة على منوال: "ما دُمتُ قويًّا، فعليَّ أنْ أفعل ما يحلو لي، وعلى الناس ألا يعتبروا هذا ظلمًا وجورًا، بل إنني أستطيع قطع الرؤوس إذا لزم الأمر، ولتكن تلك الرؤوس فداءً

للنظام الذي أرغب في إقامته وفقًا لعالمي الفكري الخاص"، بل إن البعض صرح بهذا النوع من الأفكار الرامية إلى إبادة من ليسوا في صفّه، ويمكنكم أن تصِموا ما ينتهجه أمثال هؤلاء: بـ"الاصطفاء الإداري أو الإرادي"؛ كما تقول به الداروينيةُ: "الاصطفاء الطبيعي".

والواقع أنّ الصراعَ بين الإيمان والكفر، وبين الإيمان والنفاق الذي ما زال مستمرًّا منذ القديم يكمن في أساس كل هذه الأمور، وثمة تنافس وصراع دائم بين المنهج النبوي ووساوس الشيطان، وبين سبيل الله تعالى وسبيل الشيطان؛ فقد أَظهر أذنابُ الشيطان عداواتهم في قوالب وأشكال مختلفة ضد من يسيرون على منهج نبويٍّ دائمًا، ولكن البعض استهدف الدين والمتدينين مباشرة أثناء تنفيذهم صراع "فاوست–مفستو (*Faust-Mefisto*)"(١١٥) هذا، وكان البعض الآخر منهم قد فعل نفسَ الشيء متنكرًا في مظهر المتدينين. أجل، مهما كان منهج وسبيل كل من هذين القطاعين مختلفًا عن الآخر فإن صراعهم والأهداف التي يريدون الوصول إليها بهذا الصراع واحدة.

حتى وإنْ أنشأتم سُلَّمًا إلى الجنة...

في يومنا هذا ثمة خدمات مهمة للغاية تُقدَّمُ على أيدي الأرواح المتفانية التي انطلقت إلى كل ربوع العالم بإذن الله وعنايته، والبذور التي زرعها هؤلاء سوف تنبتُ وتنمو بعد عشر أو عشرين سنة بإذن الله تعالى كما تنبت البذور المبذورة في الأرض. أجل، تتشكَّلُ اليوم

(١١٥) **فاوست ومفستو:** بطلا المسرحيةِ المشهورة المسماة "فاوست" للشاعر الألماني الكبير "جوته"، يمثِّل فاوست شابًّا وقع في شباك الشيطان الذي يمثله في المسرحية نفسها "مفستو"، وصراع "فاوست–مفستو" يعني الصراع القديم المستمر بين نوع بني آدم والشيطان.

جُزَيْراتٌ من الطمأنينة والسكينة يسودُها الحب والسلام، يعيش فيها أولئك المتفاهمون مع بعضهم البعض بفضل عناية الله ولطفه.

وقد أزعجت كل هذه التطورات وتزعج وستظل تزعج أولئك الذين لديهم مشكلة في قبول الآخرين، ويؤيِّدون العراك والصراعَ وهم مرضى بالحسدِ والحقدِ والبغضِ؛ إذ سخَّروا كلَّ إمكانياتهم ليس في سبيل الخير، وإنما لِكَيدِ مَنْ اتحدوا فيما بينهم لأجل ولادة سِلْم عالميّ، ولكي يُثنوهم عن طريقهم الذي يسيرون فيه، كما أنهم سيسعون إلى كسر قوّتهم المعنوية بتلك الحرب النفسية التي ينفذونها، ويحاولون إفسادَ معنوياتهم، وسوف يتحركون ومنهجهم في ذلك: "ارْمهِ بالوحل، إن لم يلتصِق به فعلى الأقلِّ سيُلطِّخُهُ"، وسيختلقون افتراءات كثيرةً يستحيل أن يقبل بها العقل السليم، فيُعكرون آراء الناس من العامة، ويسعون إلى تشتيت أذهانهم.

ولأن نيات هؤلاء القوم وأفكارهم فاسدة فلن تستطيعوا إرضاءهم مهما فعلتم، ولا منع حملات التشويه التي يشنُّونها؛ وبالتالي فإنهم سيحاولون أيضًا إثارة الشكوك في الأذهان بحقِّ أخلص فعالياتكم وأكثرها عقلانيّة ونفعًا، حتى إنكم إن أقمتم سُلَّمًا يرقى به الناس إلى قلب الجنة، فكنتم بفعلكم هذا وسيلة لأن يدخلها البعض؛ فإنهم في ظل منهجهم الجدلي والدهماوي سيبحثون فيكم عن شيء ينتقدونه، فيقولون مثلًا: "لماذا تَشُقُّونَ على الناس الذين سيدخلون الجنة بأن تقيموا سُلَّمًا، ماذا لو أنكم اتخذتم مِنَصَّة هنا، فأركبتم الناس على صاروخ، واستطعتم إرسالهم إلى الجنة بشكل أكثر راحة!".

ذليلٌ عند ضعفه، ظالمٌ عند قوَّته

إن مثل هؤلاء الذين يسعون كي يظهروا بمظهرِ الحيادِ والديمقراطية حين لا تكون الظروفُ والأحوالُ مواتيةً ومناسبةً لهم؛ ما إن امتلَكُوا القوَّةَ حتى فَعَلُوا ما في مقدورهم كي يحطِّمُوا ويُدَمِّرُوا من يرونه مخالفًا لهم، غير أنه يجب ألّا ننسى أنَّ من تعرضوا بالأذى للسائرين في سبيل الله حتى اليوم وقالوا عنهم: "يجب تدمير فلان وفلان" جُعِلَ كيدهم في نحورِهم، فدمَّروا أنفسَهم بأنفُسِهم، وكما حفِظَ الله في كل عهدٍ مَن سار في سبيله فسيحفظُ أيضًا كلَّ مَنْ يسير على الطريق المستقيم، ويسعى لإحياء القيم المعنوية، ويتحرك من أجل إعلام الدنيا كلها بالقيم المُنسابة من جذوره المعنوية والروحية، بينما سيعاقب الله ويُجازي حقًّا كلَّ من يتعرّض له بالأذى.

إذًا أيًّا كان ما يفعله الآخرون؛ فإنه ينبغي لمَنْ آمنوا بالله حق الإيمان ألا يتنازلوا عن شخصياتهم وسماتهم، وإنني شخصيًا لأدعو الله تعالى قائلًا: "ربَّاه! امنحني فرصة الإحسان إلى من يؤذونني، ومساعدتهم حين ألتقي بهم، فإن سألوني عن سبب هذا أقول لهم: "كُلٌّ يعمل على شاكلته، وشخصيتي أنا تُحَتِّمُ عليَّ أن أعمل هكذا"، أقول هذا، وأرجو أن أمتلك القدرة على التضحية والفدائية من أجل رضا الله تعالى كي نؤسِّسَ روح الوحدة والاتحاد رغمَ الكمِّ الهائلِ الذي نراهُ من ظلمٍ وجورٍ وغدر وإهانةٍ.

الجنون النفسي وفرية الأجندة السرية

سـؤال: مهما تحركنا بشـفافية ووضوحٍ إلَّا أنَّ المتعصبين الذين يسـوقون أحكامًـا مسـبَقَةً متطرِّفـةً لا يفتـؤون عـن تكـرارِ مزاعمهم واتهاماتهم بحقِّ حركةِ الخِدمة من قَبيلِ: "أنَّ لها أجندة سـريَّة"، فهلَّا تفضَّلْتـم بِبيـان رأيكـم والمسـؤوليات التي تقعُ على كاهـلِ الأرواحِ المتفانية في هذا الصددِ؟

الجـواب: الحقيقـةُ أنَّ العالم يعيش بشـكل عام حالـةً من جنونِ العظمـة بلغت مسـتوى خطيـرًا للغاية، وثمة حالة من الشـكِّ في كلِّ شـيءٍ والتخوُّفِ من كلِّ إنسـان، غير أن جنونَ العظَمَة في تركيا اليوم وصـلَ حـدًّا قَلَّما صُـودِفَ مثيلُه في التاريـخ، وإن أردنـا التعبيرَ عن الحـال فـي بلدنـا اليوم نقـول إن الإمكانـات والاحتمـالات توضـع بـكل سـهولةٍ موضـعَ الواقعـات، وبناءً عليهـا تُصدَرُ أشـدُّ الأحكام بشـأن الناس، والأسـتاذ بديـع الزمان لفتَ الانتباهَ إلى هذا الأمر في مواجهته الاتهامات والمزاعمَ الباطلةَ التي أُثِيرَت ضده في المحكمة؛ إذ قـال: مـن الممكـن أن يرتكـب القاضـي ووكيـل النيابـة جريمـةً وأن يقتـلا إنسـانًا، وإذا كان مـن المنطقيِّ أن يُقبـضَ على الناس بناءً علـى الإمكانات ويتم اسـتجوابهم؛ فلا بُدَّ كذلـك من عرضهما هما الاثنين -أي القاضي ووكيل النيابة- أيضًا على المحكمة.

إن بناءَ الأحكامِ على الاحتمالات والفرضيّات واختلاقَ مجموعةٍ مـن التخيُّـلات والقصص الوهمية حول مسـتقبل النـاس، ووصمَهم بوصمـةِ المجرمِ المتخفي باعتبار أحوالهم الراهنة ليس إلا تعبيرًا عن الجنون والحَنَق، ولكن ماذا عساكم أن تفعلوا وثمة حالةٌ من الجنون تسـود العالم كلّه حاليًّا ولا سـيما بلدنا نحن، ومن ثَمَّ يصعبُ عليكم للغاية أن تُعَرِّفوا بأنفسكم وتتحدثوا مع من يعيشون مثل هذه الحالة الجنونية، ولهذا السبب فلا بدَّ أولًا من تقبُّل هذا الواقع، ثم عليكم أن تُعبّروا بالأقوالِ والأفعالِ والأحوالِ ودون قنوطٍ ولا يأسٍ، بل وتؤكدوا في كل فرصة حُسْنَ نواياكم، وأنكم لستم متشوِّفين إلى شيء وليست لديكم أيَّةُ أجنداتٍ سرِّيَّة أو أطماع مستقبلية. أجل، ليست في أجنداتنا أيَّة حسـابات سـرية ولا أطماع مسـتقبلية، ولا يمكن أن تكون، وإننا لا نطمح ولا نشـغف بأشـياء من قبيل التدخل في هذا وذاك، فنحن بعيدون عن مثل هذا كلَّ البعد، وإنني لأحْسب أنَّ رغبةً كهذه لا تَمُرُّ ولو مرورًا عابرًا في أحلامِ ورؤى من يعيشون في وسطِ هذه الخدمة وقد وقفوا حياتهم لها فحسب، بل وحتى من تربطهم بحركة الخدمة علاقـةٌ من بعيـد، ولهذا فإنه حين يُفاجأُ من نـذروا أرواحهم للخدمة بتلك الافتراءات التي تُنسَبُ إليهم زورًا وبهتانًا فإنهم يقولون: "عجبًا يا إلهي! عمَّ تتحدثون!؟" وينظرون حائرين مندهشـين. أجل، إن مثلَ هذه الخيالات والأوهام لا تجول ولو حتى بأحلامهم ورؤاهم.

التشوُّفُ إلى المنصب خيانةٌ عظمى

إن من جعلوا نيلَ رضا الحق أعظم أهدافهم طلبوا بهذا أثمنَ شيءٍ وأقيمه من البداية، بل إنهم ليستقلُّون إفناءهم أعمارهم كلّها في سبيل

نَيلِ هذه الغاية المثلى؛ فقد أدركوا أنَّ العملَ والسعيَ في سبيل إعلاء كلمة الله ونشرَ اسمِ الله الجليل في كلِّ أنحاء العالم هو أعظم الوسائل للوصول إلى هذه الغاية المثلى، ولا سيما أنَّ هناك أهميةً جدّ عظيمةٍ للمساهمة في فهمِ الدين فهمًا صحيحًا في يومنا الحاضر، والتصدِّي للتفسيرات والتحليلات الخاطئة المنحرفة وتصحيحِها، وإن بيانَ خطإ تصرُّفات وسلوكيّات من يلجؤون إلى العنف فيسفكون الدماء ظانّين أنّهم بذلك يُحسنون صنعًا للدين، وتوضيحَ الهوية الحقيقيّة للإسلام الذي يُشتق اسمه من السلم والسلامة هو أحدُ أصلح الطرق وأقصرها من أجل نيلِ رضا الله تعالى.

ونحن -باعتبارنا قلوبًا مؤمنةً- جاهدون وعازمون في يومنا هذا على أنْ نستخدم -ما استطعنا- مثلَ هذا المنهج والطريق من أجل الفوز برضا الله تعالى؛ فنسعى ونجتهد كي يُفهمَ الإسلام الذي جاء بأمر الحق ويأمر بالحق فهمًا صحيحًا، وأنْ نُوصِّل عالميته وشموليته التي تحتضن الإنسانية قاطبةً إلى جميع القلوب، ونسعى في الوقت نفسه إلى تكوين مناخٍ من التوافق بين من ينتمون إلى أفكار وآراء ورؤى فلسفية مختلفة، وإبراز ما يمكن أن نتبادله ونتشارك فيه من القواسم المشتركة مع أصحاب الثقافات والتيارات المختلفة.

وإنْ كنتم تتحرَّقون شوقًا إلى هذه الحقائق السامية التي حاولنا التعبير عنها، وقد وقفتم حياتكم لها، وتنفذونها تضحيةً وفدائيةً منكم؛ فإنكم تتحيرون وتندهشون أمام التُّهَمِ التي يُحاوِلون إلصاقَها بكم مثل قولِهم عنكم: "إنهم يطلبون هذا وذاك"، وتَعُدُّونَ طلبَ ما تَوَهَّموه نوعًا من الذلِّ والمهانة، وإنني على قناعةٍ بأنَّ الخدمةَ القَيّمةَ

التي أسدتها بعناية الله وفضله وبجهودٍ مخلصةٍ تلك الأرواحُ المتفانية تستهدفُ مباشرةً خدمة الإيمان وإعمارَ القلوب بالله تعالى، ولذلك فإنها مهمة أسمى من مهمة فتحِ البلادِ بأضعافٍ كثيرة، ولو أنهم قالوا لي: "إن تبتعد وتنسلَّ من مفهومك للخدمة ومشاعرك وأحاسيسك الحالية بين هؤلاء الرفاق نمنحْك مفاتيح الأرض"؛ لقلت لهم: "أستحلفكم بالله أيَّ نوعٍ من خيانة الله رأيتموه فيَّ فتجرَّأتم أنْ تدعونِي إلى مثل هذه المهانةِ والانحطاطِ؟!".

أجل، لقد طلبنا رضا الله تعالى؛ ولذا فإننا كي نستفيدَ من الحياة التي منحها الله تعالى لنا لمرة واحدة ونحسنَ استغلالها نستخدمُ عقلَنا وفكرَنا وآراءنا وأحاسيسنا ومحاكمتنا العقلية ومنطقنا الذي يمثل كلُّ واحدٍ منها رأسمال مهمًّا بالنسبة لنا، ومن ثم نعتبر أنَّ إهدارَ رؤوس أموالنا القيمة هذه التي منحت لنا لمرة واحدة وسنُسأل عنها ونحاسَب عليها، وأنَّ التفوهَ بالتافه والعبثيّ من القولِ عند التعرُّضِ لاتِّهامات زائفةٍ؛ ليس إلَّا سوء أدبٍ تجاه الله ﷻ، وعليه فينبغي -في رَأيِيَ المتواضع- أنْ تكونَ مثل هذه الأفكار بمثابة وِردٍ يوميّ لكل إنسانٍ تعلَّق قلبُه بهذا الطريق، وما يقعُ على عاتقنا نحن إزاء هذا هو أنْ نؤكِّدَ في كلِّ مكان أننا لا نُخفي شيئًا، ونُثبِتَ هذا بتصرُّفاتنا وسلوكياتنا، ونوضِّح الأمرَ ونشرحَه بقدرِ ما نستطيع لمن يريدون الاستفسار ومعرفةَ الحقيقةِ حقًّا، وكما أنَّ اللهَ ﷻ هو المتحكِّم في القلوب وصاحبها فهو سبحانه وتعالى أيضًا مَنْ سيغرس الحقيقة في القلوبِ ويثبتها فيها، وعلينا أن نقوم بواجباتنا ونترك النتائج إلى ربِّ العباد.

التعرض للحسد والغيرة أحد ابتلاءات هذا السبيل

وثمة أمرٌ آخرُ مهمٌ في هذا الصددِ هو ضرورة تقبُّلِ مشاعرِ الحسدِ والغيرة لدى بعضِ الناس مع وضعِ طبيعة الإنسان في الاعتبارِ، ويجب ألا ننسى أنَّ الحقَّ تعالى تفضَّلَ على حركة المتطوِّعين هذه بكثيرٍ من الألطاف والإحسانات التي ندر مثلُها في التاريخ، إن إمكانيات وظروف بلدِنا الاقتصادية واضحة معروفة، غير أن هذه الخدمات -والحمد لله- قد وصلت إلى مناطق جغرافيّة في كل أنحاء العالم، وتحققت بعون الله وإذنه أنشطةٌ وفعاليات تعليمية وتربوية في مختلف مدن مائةٍ وسبعين دولة من العالم، وينبغي النظر إلى كلِّ هذه الأمور على أنها لطفٌ إلهيٌّ خاص، وتوقُّعُ ثوران مشاعر الحسد والغيرة عند بعض الناس أمرٌ طبيعي وعادي.

ولقد هلكَ الشيطان وخَسِرَ لأنَّه حَسدَ سيدنا آدم عليه السلام؛ فصارَ لا يشعر بمظاهر الجمال والحسن التي رآها ولا يقدِّرها حقَّ قدرها بسبب مشاعر العداوة المسيطرة على طبيعته وانغلاقه تمامًا على الحسد والغيرة، وحالةُ الشيطان هذه تشبهُ تمام الشبه الحالةَ النفسية لأناس سيطرَت عليهم مشاعر العداوة والحقد فاشتبكوا فيما بينهم أو سَلُّوا سكاكينهم وانقضّوا يمزِّقُ بعضهم بعضًا، فإن دنوتم من أولئك الأشخاص الذين خَسِروا أنفسَهم فنبَّهتُمُوهم قائلين: "يا هؤلاء! أنتم عباد الله وإخوة؛ فهل يفعل الأخُ بأخيه هذا الذي تفعلون؟"؛ ربما يتحولون إليكم؛ فيُصوِّبونَ سِهامهم نحوكم وتكونون هدفًا لِسكاكينهم وطعناتِهم، ومِن ثَمَّ فإنه ليس من الممكن أن تتحدثوا إلى هؤلاء الناس في حالتهم هذه.

وهكذا تمامًا نَجِدُ الحالةَ النفسية لبعض الأوساط التي تعترض على كلِّ شيءٍ، ولهذا السبب عليكم أن تتقبَّلوا ألا يُطيقَكم مَنْ تَوَتَّروا واضطربوا إلى هذا الحدِّ متأثِّرين بالمشاعرِ السلبيّة حتى فَسَدَتْ طبيعتُهم واختلَّ توازنُهم، فعليكم إلى جانبِ التحرُّكِ بشفافيّةٍ لأقصى درجةٍ أنْ تَنأَوا بأنفسِكم -ما أمكن- عن التصرُّفات والسلوكيّات التي تُثيرُ مشاعرَ الحسَدِ والغيرة، إن ما جرى على أيدينا أمورٌ بسيطة فيما يتعلق بإرادتنا الجزئية، غير أنَّه يلزمنا أن نَنْسب ولو حتى هذه الأشياء الصغيرة إلى الآخرين؛ فمثلًا عليكم إذا ما وفقكم الحق للقيام بخدمة ما أن تنسبوها إلى البيئة والظروف المحيطة قائلين: "إن هذا حصل نتيجة للجوّ الديمقراطي"، وفي مقابل نجاحٍ وتوفيقٍ آخر أيضًا ينبغي لكم أن تقولوا: "إن الحق تعالى يَمُن بثمرة ونتيجة على الأنشطة التي يضطلع بها الجميع، ولو لم يوجد مناخ من التسامح كهذا ولم يتم الحفاظ على الجو العام بهذا الشكل لما استطعنا نحن الاضطلاع بهذه الأنشطة والفعاليات"، علاوة على ذلك لا بد من معرفة أنَّ مثلَ هذا الأسلوب والسلوك هو أنسبُ وأسلمُ طريق يحمي من يسعون في سبيل الله من الوقوع في هاوية الشرك والكبر.

أَلَا يعلمُ الخالقُ، وألا تَرَى الأمَّةُ الحقائقَ!...

إننا بشر، من الطبيعي أن نحزن ونتألم مما يقوم به عديمو الخجلِ والحياءِ صباح مساء من افتراءات وإهانات، ولكن لا تغتموا فالله موجودٌ ومطلعٌ على كلِّ شيءٍ! واعلموا أن لهذه الدنيا آخرةً، وأنَّ حشرًا وحسابًا وكتابًا وميزانًا ينتظرُ الجميع!

والحقيقـة أننـي أحاول منذ البدايـة أن أتبـع المنهج الذي أشـير إليه في حادثة وقعت لسـيدنا أبي بكر ﵁ قدرَ ما أسـتطيعُ نزولًا على ما تقتضيه شـخصية المؤمن وتتطلَّبُه منَّا، ولعلكم تتذكرون: إذ سـبَّ رجلٌ سـيدَنا أبا بكر في مجلسٍ ورسـولُ الله ﷺ جالسٌ، فسـكت عنه سيدنا أبو بكر وصبرَ حتى بلـغ الأمرُ مبلغًا جعله يرد عليه ويدافـع عن نفسـه؛ فقام رسول الله ﷺ عندئذ من المجلس، وأدركه أبو بكر فقال: يا رسول الله كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددتُ عليه بعض قوله غضبـتَ وقمتَ، فقال النبي ﷺ: "**إِنَّـهُ كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْله، وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَقْعُدَ مَعَ الشَّيْطَانِ**" ثم قال ﷺ: "**يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثٌ كُلُّهُنَّ حَقٌّ: مَا مِنْ عَبْدٍ ظُلِمَ بِمَظْلَمَةٍ فَيُغْضِي** (أي يسكت ويصبر) **عَنْهَا للهِ** ﷻ، **إِلَّا أَعَزَّ اللهُ بِهَا نَصْرَهُ**..."[(١١٦)]، ولهذا فـإن صيحات السـكوت تتـردَّدُ مدوِّيةً أمـام صوتـي... وأغوصُ في مراقبة صامتة عميقة وأهربُ بعيدًا عن مشاعري وأحاسيسي... وأدفن صرخاتي في داخلي وأبوحُ بمشاعري بواسطةِ نُواحِ السكوت...

ألا يعلم الله أصلَ كلِّ شيءٍ وحقيقتَه، ويرى الناس أيضًا ما يجري ويحـدث!... فإن كان الأمـر كذلك فإن المُنصِفين سـيُقَرِّرون الأمر، وهم يقررونه بالفعل... فبالرغم من كل التهديدات والضغوطات يسير إنسانُنا في الطريق الصحيح الذي عرفه، ويواصل السير والنضال في سـبيل الله دونما توقُّفٍ، كما أنَّ مثقَّفينا من أربابِ الفُرَصِ وأصحاب الجـرأةِ ويسـعونَ قُدُمًـا في سـبيلِ التعبير عـن الحـق والحقيقة رغمَ ما يلاقونه من عراقيل.

---

(١١٦) **مسند الإمام أحمد**، ٣٩٠/١٥؛ الطبراني: **المعجم الأوسط**، ١٨٩/٧.

والواقع أنَّ أولئك المفترين يلجؤون إلى طرقٍ عديدة لِتدميرِ مَن ينبِسُ بالحقيقة والصواب، ويدافعُ عن سبيلِ هذه الخدمة ومنهجها وموقفها؛ فإذا ما كتبَ كاتبٌ مقالًا مُنصِفًا عنِّي أنا الفقير أو لصالحِ الخدمة هجموا عليه بغيظٍ وحَنَقٍ، واختلقوا كذبةً جديدة فاتَّهموا ذلك الشخص بالانتماء إلى حركةِ الخدمة، بل إنهم يعتبرونه مجرمًا، ويستجوبونه ويعتقلونه، والأكثر من ذلك أنَّهم إذا ما أرادوا تدميرَ أيِّ إنسانٍ صادق ومحبٍ لوطنه وأمته فإنهم يرمونَهُ بتهمةِ الانتماءِ إلينا؛ فيثيرون ضجَّةً وصخبًا قائلين: "هذا أيضًا تابعٌ لهم"، إنهم يعاملوننا وكأنَّ الالتزامَ بالأخلاقِ وعدمَ السرقةِ والاختلاسِ جريمة وإثم، حتى إنَّهم ينسبون إلينا منْ يحافظ على صلواته، ويواظِبُ على صلاة الجمعة، ويُنفِقُ ويتصدق في سبيل الله ويزكي ويُقدِّمُ المنح الدراسية للطّلاب الفقراء، ويبحثون في هذا الأمر عن تشكيل أو بنية تنظيميّة سرّية.

وإنني أقولُ مجدَّدًا إنه وبالرغم من كلِّ أنواعِ الاستبدادِ والقَمْعِ والظُّلْمِ يُعضّدُ ويدعمُ إنسانُنا الأعمالَ الخيّرةَ الجميلة، وإن قافلةَ الأرواحِ التي تتفانى في سبيل الحق والحقيقة وفي سبيل غايتِها المثلى والإنسانيةِ في إطار القوانين والقواعد لَتُواصِلُ مسيرتَها ثابتة على الطريق الحقِّ الذي تعرفُهُ، وإنها لتعلم جيِّدًا أن المصائب التي تحُلُّ بها هي من شأن السير في طريق الحقِّ، وتعتبر كلَّ واحدةٍ منها امتحانًا، فتسعى تلك الأرواح مفعمةً بالإيمان والأمل للوفاء بحقِّ مثل هذا الامتحان الذي يُرجى منه قطافُ ثمارٍ مباركةٍ طيبة.

حركة الخدمة ومزاعم اختراقها مؤسسات الدولة التركية

سـؤال: ثمة مزاعم بأنَّ "حركة الخدمة اخترقت مؤسسات الدولة التركيّة أو أنها ترغب في السـيطرة عليها"، ومهما كان رجالُ الخدمة ومَـنْ يعرفونهم عن قـربٍ يعلمون أنَّ هذه الادِّعـاءات محضُ افتراء لا أسـاس له من الصحة؛ إلّا أنَّها تتسـبَّبُ في تشـويش أذهان بعض الناس في الحقيقة؛ فكيف يُرَدُّ على تلك الاتهامات؟

الجـواب: أولًا: إن سُـئل النـاس: "أتريـدون مدرسـين ومديرين وأطبـاء ومنهدسـين وقضـاة ومُدَّعِي عمـومٍ ووزراء ورؤسـاء وزراء أَكفَـاءَ، لا يسـرقون ولا يختلسـون، يحترمـون المواطنيـن، ويؤدُّون وظائفهـم حق الأداء، فَيَبرزون بفضل محـضِ عدالتهم وصدقهم، أم أنّكـم تريدون موظفين حكوميين يتهاونون في أعمالهم، ولا يُراعون القانون والحقوق، وليسوا أكفاء، ولا يحترمون المواطنين؟"؛ فأغلبُ الظَّـنِّ أنَّ الجميـع سـيختارون مـنْ هم فـي الشِّـق الأول، وكما قال آلافٌ مـن الأكاديميّيـن والمفكِّريـن وعلماء الاجتمـاع والصحفيين والتربويّيـن مـن مختلف القطاعات؛ فإن حركة الخدمة تُرَبّي وتنشّـئ حَمَلَةَ الأوصاف المذكورة في المجموعة الأولى، ولهذا فهل يُوصَفُ دخولُ أناسٍ تربّوا على تلك الأوصاف في مؤسسـات تعليمية تبنَّاها

الشعب وساندوها، واستحقُّوا أن يكونوا في مقدمة مؤسسات الدولة التي التحقوا للعمل بها بفضل ما أظهروهُ من لياقةٍ وكفاءة بأنَّه تسللٌ إلى الدولة أو محاولة للسّيطرة عليها واختراقِها؟ أم يُوصف بأنَّه خدمة للشعب والدولة والبلد؟!

ثانيًا: إن خدمة الناس بالعِلْمِ والأخلاقِ والسلوكيات والتديُّن الحقيقي، والدعوةَ إلى ذلك ليست حِكْرًا على أحدٍ، كما أنَّ القيامَ بواجبٍ كهذا بالنسبةِ لِمنْ يَعُدُّون أنفسهم مسلمين هو أحدُ ضروريات القِيَمِ التي يؤمنون بها، فإن كان فدائيّو التربية والتعليم الذين يحبُّون بلدهم وأمتهم لدرجة العشق ويحاولون مخاطبة كلّ قطاعات المجتمع قد استجاب لهم أناس من مختلف تلك القطاعات؛ فهل يصحّ نعتُ ذلك كله بأنّه محاولة اختراق للدولة أو السيطرة عليها؛ أم أنَّه خدمة للأمّة والبلد والإنسانية؟!

ثالثًا: نأسَفُ أن نقول: إنّه نظرًا لِمَا تَكَّوَن في يومنا الحاضر من الإِلفِ والأنس لبعضِ التصرفات المنافية للقانون والأخلاق كالاختلاس والارتشاء ومحاباة بعض الأشخاص على حساب غيرهم في بعض المؤسسات والهيئات الحكومية فقد صار الموظَّفون العموميُّون الذين يسعون لأداء وظائفِهم حقَّ الأداءِ والوفاءِ بحقّ الراتب الذي يحصلون عليه، ويُراعون القوانين، ولا يسرقون ولا يختلسون ولا يرتشون منبوذين غير مَرضيٍّ عنهم أينما كانوا. أجل، إن أداء مجموعة من الموظفين العموميين المتمسِّكين بالأخلاق والفضائل وظائفَهم حقَّ الأداء في إطار القوانين والقواعد ربما يتسبَّبُ في أنْ يُعتبروا خطرًا وضررًا يُهَدِّد بعضَ النَّاس الذين يرون

في مناصبهم ومواقعهم الرفيعة التي يشغلونها بابًا للربح والدخل. إذًا فما الذي يجب أنْ يفعله الراغبون في أداء وظائفهم بحق بينما يقعون في مثل هذا الموقف؟ هل عليهم أن يقعدوا عن أداء وظائفهم بعدالةٍ وأمانةٍ لأنَّ مُنْتَهِكِي القانون والحقوق سيؤذونهم؟! وبتعبير آخر؛ هل القيام بالوظيفة المنوطة مع مراعاة القيم الإنسانية السامية وقواعد القانون يُعتَبَرُ اختراقًا للدولةِ ومحاولةً للسيطرةِ عليها؟!

نفسيّة المجرم وتبعاتها

فضلًا عن ذلك فإن كلَّ واحد من أهل هذا البلد -بما في ذلك أنا ومتطوِّعو الخدمة- مواطنون فيه، وإنني إنسان أناضولي صِرْفٌ، ولستُ قوميًّا متعصِّبًا للدم والعرق والفِكر والقول، وإنني أعارض تمامًا مثل هذه العصبية، غير أنني أُحبُّ أمتي لدرجة العشق، ومن هنا أتساءل: بأيِّ حقٍّ يُوصف التحاقُ مواطن للعمل بإحدى مؤسَّسات بلده وتشجيعُهُ غيرَهُ من بني وطنه أيضًا على الدخول فيها بأنَّه اختراقٌ للدولة؟ إن التسلل والاختراق في الحقيقة هو شأنُ من يخالفون القانون والحقوق، ويستغلُّون خدمات الدولة التي يعملون فيها من أجل مصالحهم الشخصية؛ فهؤلاء يسوقون هذا النوع من الاتهامات بحقِّ الآخرين آملين أن يستُروا أنفسهم ولا يفضحوها.

أجل، من حقِّ كلِّ فردٍ في هذا الشعب أن يعمل بأحد المرافق العامة للدولة، وأن يتقلَّدَ أيَّ وظيفةٍ فيها؛ شريطةَ أن يمتلك القدرة والخبرة اللازمة لذلك وأن يستخدِمَها في مكانِها، ولكن إنْ كان هناك منْ أمسكوا بِزِمامِ الأمور في بعض الأماكن المهمة والمصيرية للغاية بالنسبة لِقَدَرِ هذا البلد، وتربَّعوا على الساحة وقمعُوا مشاعر

الناس فمنعُوا الأمَّة من رؤيةِ حقائِقِ الأمور؛ فإنهم تأثروا بمرض جنون العظمة الذي أصابهم وراحوا يُفسِّرون تصرفاتكم وتحركاتكم قائلين: "إن هؤلاء يريدون التسلل واختراق الدولة"، وهكذا انغلقوا على مسألة النفوذ والتسلل بتأثير الحالة النفسية لجنونِ العظمة هذا، لدرجة أنّه إذا ما لُمس الباب ورُنَّ جرسه قالوا: "إنّه تسلُّلٌ، إنه اختراقٌ"! وراحوا يتوهمون ذلك وينشغلون به؛ فيعيشون دائمًا حالةً من الهوس والوهم بالتسلل والاختراق.

هذا حقٌّ ومسؤوليَّةٌ في نفس الوقت

إن كل فرد في أية أمة لا يتسلَّلُ إلى المؤسّسات الموجودة على أرضِ وطنه لخدمته وبني جلدتِه، بل إنّ دخولَهُ إيَّاها حقٌّ من حقوقِه العاديّة؛ فيدخل في مؤسَّسات الدولة المدنية والقضائية والخارجية ويعمل فيها، لم لا؟! فهل ترغبون بِقَصْرِ ارتِباطِ أبناء الوطن على مراكز تعليم القرآن فقط؟! هل علينا أن نشجِّعَ الناس للالتحاقِ بهذه المراكز فحسب؟ فنرغِّبهم بالالتِحاقِ بمدارس الأئمةِ والخطباء دون غيرها؟ كلا، إنني أُكَرِّرُ ما قلتُهُ سابقًا، وسأقولُه غدًا ومستقبلًا أيضًا ما حَيِيتُ: إن من حقِّ أبناءِ ومواطني هذا البلد استخدامَ هذا الحقِّ ودخولَ كلّ المؤسسات والعمل فيها، ومنعُ استخدام هذا الحقِّ ظلمٌ بيّنٌ وجَورٌ وإجرامٌ واضحٌ، وهنا أضيف مباشرة أنَّ إغلاقَ أبواب مؤسسات الدولة أمام أبناء الوطن ومنعَهم منها سيتمخَّضُ عنه ردُّ فعلٍ في ضمير الشعب وسرعان ما سيركله فَيَرُدّه خائبًا خاسرًا، وكما قال الشاعر:

إنْ كان الظالمُ بظلمه يَتجبَّر

فإن المظلوم بالله ربِّه يستَنْصِرُ

ما أسهل الجور على الخَلقِ اليوم!

وغدًا محكمةُ الحق تُعقَدُ فيُنصر

وبناءً على ذلك؛ فلو أنَّ صوتي يصلُ لكنتُ أصرخُ مجدّدًا لِأُسْمِعَ وأُبَلِّغَ أقاصي بقاعِ بلاد الأرض أنْ: سَجِّلوا أبناءكم بالمدارس مثلما تسجلونهم بمراكز تعليم القرآن الكريم، وعلموهم بالمدارس المدنية ودرِّسوهم في كلِّيَّات الحقوق والمدارس العسكرية أيضًا بقدر تدريسكم لهم في مدارس الطِّبِّ والهندسة والشرطة؛ فهذا البلد بلدكم؛ ولذلك فإنه لمن حقكم ومسؤولياتكم أن تتبنّوا وتدعموا المؤسسات التي ستحافظ على دولتكم وبلدكم.

كلُّ مَنْ ليسَ على منوالِهم فهو "آخر"..

إن الواقعَ المُؤسِفَ أنَّ هذه النوعية من المزاعم لا تصبُّ في صالح خدمةِ الأمة والوطن، وإنما هي إحدى الحجج الواهية التي يستخدمها بعضُ المستفيدين من الوضع غيرِ القانوني الذي تعيشه بلادُنا اليوم بكلِّ تعقيدٍ وفوضويَّة؛ ليسدُّوا بذلك الطريق أمام تحوُّلِها إلى دولةِ قانون وديمقراطية؛ ورغبةً منهم في الحفاظ على مناصبهم التي يستغلُّونها من أجل منافعهم الشخصية، إلى جانِبِ رغبتِهم في استمرارِ هذا الحال؛ فيحاولون تضليلَ عيونِ الناسِ عن حقائق البلاد وواقعها، وكما أنَّهم لا يرغبون في التخلي عمَّا استحوذوا عليه من مناصب ومواقع عامة فإنهم يسعون إلى توريثها لأبنائهم

ثـم أحفادهم، ويخافون حقًّا مـن أن تصبح البلاد ديمقراطيةً بالفعل؛ فبعـض الأشـخاص أو قطاعـات المجتمـع التـي تـرى رفعـةَ الأمة ونهضتها انهيارًا بالنسبة لها، وتعتبر كلَّ محبٍّ لعمَله أو متقِنٍ لوظيفتِه خطرًا يُهَدِّدُ مستقبلَها؛ فتارةً تتحالَفُ مع فريق، وتارةً مـع فريقٍ آخر؛ تَسُـوقُ هذه الادِّعـاءات وتروِّجُها لأنها تخاف أن تُحـرَمَ من منافعها ومصالحها، وأنْ تُقاضى على مسـتنقعات الفسـاد والرشـوة والسرقة والاختلاس التي غرقت فيها أثناء تولِّيها ما تشغله من مناصب، فهي تشعر بالقَلَقِ ممن لا يشبهونها كي تستطيع مواصلة حياتها البوهيمية المتحـرِّرة مسـتغلَّةً إمكانيـات الدولـة والأمة، بل إنهـا ترى من ليس على منوالِها مانعًا وعائقًا يقفُ في طريق تصرُّفها وعيشِـها كما يحلو لها، ثم إنها تُزَيِّنُ أحاسيسـها الشـيطانية وتُلبسُـها لباسَ الفِكر، وتُثيرُ الاضطـراب والفوضـى على السـاحة بإطلاقِهـا أراجيف مـن قبيل: "هناك انقلاب؛ لقد طوقوا كلَّ الأماكن، وتسللوا إلى كل مكان...!"، وراحـت تُكـرر هذه العبارات حتى أصابها جنـون العظمة، ومرضت نفسيًّا فصارت ترى كلَّ شخص سواها عدوًّا و"آخرَ".

ومـن جانـب آخـر فإنـه يجـب ألَّا يغيـب عـن الأنظـار أنَّ تلك الادّعاءات جزءٌ من حرب نفسية؛ إذ يصنِّفُ البعضُ الناسَ ويقسمونهم إلـى فِـرَقٍ ومنظّمات متَّخذيـن ذلك أداة لتهديدِ بعـض رجال الدولة وابتزازهم وإخافتهم؛ فيتَّهمون كلَّ من يسـتطيـع القيام بأشـياء مفيدةٍ للبلد والدولة ويقمعونه، ويسـدُّون الطُّرُق أمامه، ويختلقون مثل هذه الحججِ الزائفة لِقَطْعِ السبيل تمامًا أمام أبناء الوطن.

كلٌّ يرى الآخرين على ما هو عليه...

وهنـاك طائفة أخرى من الناس أيضًا داسـت القوانين والأعراف الديمقراطيـة وتغلغلت في أوردة البلاد وشـرايينها، وسـيطرت على الشـعب، واسـتغَلَّت في سـبيل ذلك كلَّ الإمكانيّات التي في أيديها مشـروعة وغير مشـروعة، ونفذَتْ سِـرًّا إلى أماكن معيّنة واسـتولت علـى مقـدّرات البـلاد، وإن مثـل هذه النوعية من البشـر تنظـرُ دائمًا إلـى النـاس حولها من منظور عوالمها الداخليـة الخاصّة بها؛ فتقارن الحـركات والتكتـلات والفعاليـات والمبادرات المختلفـة بما فعلته هـي، وتحلِّلُها على هـذا المنوال، ونتيجة لذلك تتخيَّـلُ وتظنُّ أنَّ ما عندها من لوثيّات موجودٌ عند غيرها، وتُحَدِّدُ تعامُلَها مـع الناس وفقًا لهذا المنطق والفهم، ولأنها "نَفَذَتْ واختَرَقَتْ وتسلَّلَت" بالفعل فإنها تتَّهِـمُ بالنفوذِ والاختراق والتسـلُّلِ أفرادَ الأمة الذيـن تبوّؤوا أماكنهم فـي الأعمال الإدارية بفضـلِ لياقتِهم وكفاءتهـم، وتُجرّحُهم وتَفتري عليهم.

تمامًا مثل لصٍّ ينظر على باب أحد الحوانيت حين يمرُّ من أمامه فيفكِّرُ في نفســه: "كيف يمكن أن يُفتح هذا الباب بسهولة؟ كيف يتمُّ حلُّ القفل؟ وبأيِّ الطُّرُقِ يمكن التسلُّلُ إلى الداخلِ واختراق المكان، وإخراج ما فيه من مالٍ وبضائـع بسـرعة؟" أي إنه يتلصَّصُ بعينه وهو يمرُّ من هناك فيُهَيِّئُ الأرضيّة مسـبقًا للسـرقة التي سـيقومُ بها لاحقًا، وينشـغِلُ بالتخطيـطِ لذلك... فـي حين أن صاحـب الحانوت بعدما يُغْلِـق حانوتَهُ ينظـرُ خلفَه ويُرَكِّزُ عينيه على الباب ويراجـع نفسَــه إنْ كان قد أخذ التدابير اللازمة تجاهَ أيّة سـرقة محتمَلةٍ، وإنْ كان القفل

كافيًـا وآمنًا أم لا... أمـا اللصُّ الذي يرى هذا الموقف ولا يدري أنَّ هذا الشخص هو صاحب الحانوت فإنه يشبّهه بنفسه ويقول: "إن هذا الرجل لصٌّ مثلي!".

وكما هو الحال في هذا المثال؛ فإنْ كان البعضُ قد سـيطَرَ على مسـتقبل الأمَّـةِ واغتصبه كالأربعيـن حراميًّا، وتغلغلَ في مؤسسـات مَعنِيَّة واسـتولى عليها وتقاسـمها مع شركائه؛ فإنه يحسبُ أنَّ أولئك السـاعين في سـبيل إعلاء الفضائل الإنسـانية يُشـبِهُونَه، فينظر إليهم النظرة نفسـها، في حين أنَّ تلك الأرواح الفدائية تتحرك وفقًا لأفكارٍ غايـةً فـي البـراءة، حتـى إنَّهـم لا يحْلُمـون ولـو مجرد حلـمٍ بأهواء ورغبـات دنيويـة كالمقام والمنصب والسـلطة، ومـع أنَّ الإنسـان قد يـرى فـي منامه ما ينأى عنه ولا يرغب فيـه من الأحوال؛ إلا أنَّ تلك الأرواح بعيـدة عـن هـذه النوعية من الأهـواء والرغبـات لدرجة أن مثل تلك الرؤى والأفكار التي يكون أغلَبُها انعكاسًا لِما دون الوعي لا تجـد لنفسـها مكانًا حتـى في أحلامهم، غيـر أنَّ ثمة مجموعة من الناس يعايشـون تلك الرؤى والخيالات دائمًا؛ ولذلك فإنهم يُقيِّمون الأشخاص الأبرياء وفقًا لوجهة نظرهم أنفسهم، ويفسرون تصرفاتهم وتحركاتهم وفقًا لها، ويسـعون نتيجة لذلك إلى سـد الطريق والسبل أمامهم بإطلاق مختلف المزاعم وحملات التشويه.

معايير في درء المفاسد

سـؤال: كيـف ينبغـي للمسـلم أن يواجـهَ مـا قد يتعـرض له من معاملاتٍ وتصرُّفات سيئة؟

الجـواب: "الحقـدُ يُولِّدُ حقـدًا والبغض يُثمرُ بغضًـا" هذه حقيقة يعلَمُها الجميع؛ فمقابلـةُ العنفِ بالعنف، والفظاظةِ بمثلِها والغضبِ بنظيرِه تُفضي إلى تشكُّل دوائر وأوساط فاسدة يصعبُ التغلُّبُ عليها؛ فيتمـزَّقُ المجتمعُ ويغرقُ فـي دوَّامة تلك الحوادث، ولذا فإنه ينبغي للمؤمـن أن يكون حليمًا واسـعَ الصـدر، وأن يتغلَّبَ حتى على أكثر الأشـياء سـلبيَّةً، بـل وأن يتمثَّلَ فـي مواجهة تلك المنكرات أسـلوبًا نضاليًّا يؤدِّي حتى إلى إنقاذ مرتكبيها.

الدرءُ الأحسن!

يقـول الله تعالـى في القرآن الكريـم فيما يتعلَّقُ بهـذا الموضوع: ﴿**أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَـنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ (سورة القَصَصِ: ٢٨/٥٤).

تُوَجِّـه هـذه الآيـةُ الكريمـة المؤمنيـن إلـى الكيفيّـة الأفضل في مواجهـةِ مـا قد يتعرَّضون له من المعاملات السـيِّئة، ومـع أنَّها نزلت

في أهل الكتاب كما رُوِيَ؛ إلّا أنّ "العبرةَ بعموم الحكم لا بخصوصِ السبب"، ولذلك فإن هذه الآية الكريمة كما تخاطب الجميع فإنها تخاطب المؤمنين في يومنا هذا أيضًا.

وتبينُ الآية الكريمة أنَّ مَنْ وُعِدُوا الأجرَ والثوابَ ضعفين هم الصابرون على المحن والأذى والجفاء وفقًا للمعنى الصريح لقوله: "بِمَا صَبَرُوا"، وأنَّهم هم الذين يصبرون على المصائب والابتلاءات التي تُقدَّرُ عليهم فيذيبونها في بوتقة صدورهم ويُحَوِّلُونها إلى ألعاب نارية، فيُقَدِّمُون مناظرَ تُبهِرُ العقولَ والأذهان تشبه تمامًا تلك الطقوس الحضرية والمباهج التي تُعرَضُ في ليالي الأفراح والأجواء الاحتفالية. أجل، إنهم وكما أُشير إليه بعبارة "وَيَدْرَؤونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ" يُحوِّلون أكثر الحوادث سلبيةً وسوءًا إلى حوادث إيجابية، ويقابلون الشر بالخير ويدفعون السيِّئةَ بالتي هي أحسن.

والمؤمن الذي يطبق هذه الآية الكريمة في حياته ويجعلها دستوره اليومي إذا ما تَوَلَّدَ بداخله شعورٌ بالبُغْضِ والحقدِ والغلِّ تجاهَ فردٍ أو جماعةٍ من الناس بسببِ ما يتعرَّضُ له من معاملات قبيحة مذمومة يحاول على الفور أن يَتَخَلَّصَ من ذلك الشعور عن طريقِ الحِلْمِ والسِّلْمِ، ومثلما وردَ في قوله تعالى ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾ (سورة هُودٍ: ١١/١١٤)؛ فإن المؤمن إذا قارفَ عملًا سلبيًّا يعيبُ طاعَتَهُ وعبادَتَهُ؛ فإنّه يُسارعُ إلى إزالَته رغبةً منه في التكفيرِ عمّا ارتكبَهُ من جُرمٍ، كما أنَّه يُتوِّجُ إزالَتَهُ إيّاه بأن يعقُبَه بعملٍ صالحٍ طيّبٍ.

والمؤمنُ الحقيقيُّ إذا ما ارتكب منكرًا انغرسَ هذا المُنكرُ في صدره وكأنه خُطّاف حديديٌّ أو حربةٌ أو حَسَكَة، فإذا بفؤاده يتلوّى ألمًا، ومن ثَمَّ فإنّه يسعى ويجتهدُ لِمَحْوِه بأن يصنعَ معروفًا أو خيرًا مباشرةً، وأيًّا كان هذا المنكَرُ؛ قولًا كان أو سلوكًا أو نظرةً أو حتى إيماءة بذيئةً وقبيحةً فإنّه ينبغي له أن يُتْبِعَهُ بما هو إيجابي؛ كي يمحوَهُ ويمحوَ ما خلَّفَهُ في الذِّهْنِ والعقلِ من تأثيراتٍ سلبيّةٍ سيّئة.

وهذا إنّما هو في الحقيقةِ من مقتضياتِ العبوديّة لله ﷻ، وقد استَنصَحَ سيِّدُنا معاذٌ رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ فأجابَهُ قائلًا: "**يَا مُعَاذُ اتَّقِ اللهَ حَيْثُما كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**"(١١٧)، وكما أن كلَّ فعلٍ من أفعال الخير والبر يُمثِّلُ لَوْلَبًا وسُلّمًا يرفع الكلمات الطيبة إلى الله ﷻ بعبارة الآية الكريمة: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ (سورة فَاطِرٍ: ٣٥/١٠)؛ فإنه في الوقت نفسه يؤثِّرُ تأثيرًا من شأنه القضاء على المنكرات والشرور، ويمكننا كذلك أن نفهمَ عبارةَ "ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ" على أنها تذكيرٌ قرآنيٌّ علينا أن نستَحضره دائمًا فيما يتعلَّقُ بمسألةِ محوِ الذنوبِ عن طريق فِعْلِ الخيرات.

والواقع أنَّ التصرُّفَ الإيجابيّ يمحو من أذهان الناس جميعَ المنكرات والسلبيّات التي تقع -شخصيةً كانت أو اجتماعيةً- ويُنسيهم إيَّاها، ويُفضي في الوقت نفسه إلى مغفرة الله تعالى؛ لأن رحمتَهُ ﷻ تستدعي ألا تتسبَّبَ تلك السلبيّات والمُنْكَراتُ في أذى الإنسان وعذابه في الدارِ الآخرة ما دامَ قد تاب عنها،

(١١٧) **سنن الترمذي**، البر والصلة، ٥٥؛ **مسند الإمام أحمد**، ٣٥/٢٨٤.

وألا تُسَبِّبَ لـه معاناة داخليّة. أجل، فلا يليـقُ بالمؤمنِ وهو في ديارِ النعمةِ الوفيرةِ والإحسانِ الواسعِ واللطفِ اللامتناهي هذه أنْ يتذكَّرَ تلـك الأمـورَ دائمًا فيقول: "ليتني لم أرتكبْ هـذه الوقاحةَ تجاهَ ربي وديني ورسـولي"، ممّا سيَتَسَبَّبُ له بالمعاناة الداخليّة هناك، وهو ما يتنافى مع طبيعةِ الجنّة؛ لذا سيُنسيه اللهُ إياها بلطفه وكرمه كَبُعْدٍ آخر من أبعاد رحمته ونِعمتِه ﷻ، ولا يُبْقِيه في تلك الأزمة.

هنـاك أمـر آخر وهو أنه لا يصح للإنسـان أن ينسـى ويمحوَ من ذهنـه -وهـو ما يزالُ فـي الدنيا- ما ارتكَبَهُ من ذنـوبٍ وآثام؛ لأنه إن كان يسـتغفر الله تعالـى كلّما تذكر ذنبًا حتـى وإن كان قد ارتكبه قبل خمسين سنة من يومه فسوف يحميه هذا الموقفُ من الوقوعِ مجدَّدًا فـي مثـل هذا الذنب والخطـإ، ويفضي في الوقت ذاتـه إلى أن يُثاب دائمًـا بسـبب هذا الاسـتغفار. أجل، فكلُّ اسـتغفار على هـذا النحو يُجفِّـفُ منابـعَ "العَدَم"، ويمحو جميـع الشـرور والمنكرات، وعندما لا يبقـى إثـم يمحوه يُثْمِرُ أشـياء حين تُعرض على العبـد يوم القيامة يتحيَّرُ عجبًا منها وفرحًا بها، ومن ثم فإنه يلزم الإنسـانَ وهو في هذه الـدار الدنيا ألّا ينسـى ذنبًا ارتكبه أبدًا، بل عليـه أن يتذكَّرَ دائمًا حتى أصغـر أخطائه لئـلّا يُعاني من همِّها وغمِّها في الـدار الآخرة، وعليه أن يُكثر من الاسـتغفار تأثرًا بما يشـعر به في روحه من قلقٍ وضيقٍ، وأنْ يُلِحَّ في طلبِ المغفرة من الغفّار تعالى.

ومـن جانـب آخر فإنه ينبغي للمؤمن أن ينسـى أعمـالَ البرِّ التي فعلهـا، حتـى وإن كانت إيذانًا بانتهاء عصرٍ وبدايـةِ آخرَ أو أدّت إلى إنشـاء حضـارة جديـدة كما أحدثه فتحُ إسـطنبول فـي التاريخ مثلًا،

بل يجب عليه حينما ذُكِّر بخدمةٍ عظيمة قد فعلها أن يرى نفسَهُ غيرَ مساهِمٍ فيها، وتأخذَه الحيرةُ والدهشةُ نكرانًا للنفس فيقولُ: "يا إلهي! أفعلتُ أنا شيئًا كهذا؟ إنني لا أتذكَّر"، فإن أصرَّ الناس على قولهم: "لقد فعلتَ أنت هذا"؛ وجبَ عليه أن يعبر عن مشاعره من باب التحديث بالنعمة قائلًا: "هذا يعني أن الله ﷻ استخدم عبدًا حقيرًا مُذنِبًا مثلي للقيام بمثل هذا، وما هذا إلّا تجلٍّ من تجليات رحمته الواسعة الفريدة".

دفعُ السيِّئةِ بالحسنةِ مروءةٌ حقيقيّةٌ

يقول الحقُّ تعالى في آيةٍ أخرى مرتبطةٍ بهذا الموضوع: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ (سورة فُصِّلَتْ: ٤١/٣٤).

وبهذا يشير هنا إلى أمرٍ يُشبِهُ ذلك الذي أشارت إليه الآية المذكورة سابقًا.

ووفقًا لهذا فإنْ كان الشخصُ الذي يُعادي الآخرين غيرةً منه وحسدًا يُرغي ويُزبِدُ غيظًا وبغضًا، ويستفزُّ مخاطَبَهُ ويُثيره، ويرغب في إغضابه؛ فعلى مخاطبِه أن يكظمَ غيظَهُ متمثِّلًا معنى قوله تعالى ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٣٤)، "وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ" أي الذين يكتمون غيظهم ويبتلِعونَ غَضَبَهُم حتى ولو كان ذلك بصعوبة؛ فهم الذين لا يُظهرون ما بهم من همٍّ وغمٍّ، ويَتْبُتُون ولا يتسرَّعون في هذا الشأن، وقد امتَدَحَت السنَّةُ النبويّة موقفَهم هذا، إذ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى خَيْرِ أَخْلَاقِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ**

ظَلَمَكَ"[١١٨]، فأرشَدَنا إلى أن نعفوَ ونصفح عمَّن أساء إلينا، وأن نُقابلَه بالخيرِ كي لا يُكرِّر فعله مرَّةً أخرى... أجل، إن كلَّ هذا نماذج لمقابلة السيئة بالحسنةِ.

وبعبارة أخرى فإنه ينبغي للمؤمن أنْ يُقابل كلَّ التصرفات السلبية الموجهة إليه والمعاملة السيئة تجاهه بالخير والبرِّ حتى وإن كان الآخرون يمطرونه بوابلٍ من الشرور ويعاملونه أسوأ معاملة بأيديهم وألسنتهم وأعينهم وآذانهم بل وحركاتهم وإيماءاتهم، فيَحُولَ بهذه الطريقة دون تكوُّنِ الدوائر والأوساط الفاسدة، وقد صُوِّر ذلك الموقف نظمًا فقال:

مقابلةُ البِرِ بالبِرّ أمرٌ سهلٌ ويسير

ومقابلة السوء بالبِرّ شأنُ المرءِ القديرِ

نعم، إن مقابلة المؤمن المنكرَ بالمعروف هو "شأن المرء القدير"، لا يليق ولا يَجْدُرُ به أن يقول: "إن قالوا كذا وكذا، وفعلوا كذا وكذا، فسأقول وأفعل كذا وكذا ردًّا عليهم بالمثل"، متّبعًا مبدأَ "المقابلة بالمثل" ذلك السلوكَ الظالم، لأنَّ القاعدة الإسلامية تقول: "الضررُ لا يُزالُ بمِثْله"، وتصرفٌ كهذا إنما هو وقوعٌ في القيلِ والقالِ الذي تفعلُه العجائزُ الشُّمط، وخوضٌ في بحر الذنوب، وفي الوقتِ ذاته فإن مثلَ هذا الفهمِ لا يُفيدُ ألبتَّة في حلِّ مشكِلات يومِنا الحاضِر، ولذلك فإنه ينبغي للجميع أن يكونوا يقظين متنبهين جدًّا في هذا الشأن، ولا سيما من تعلقوا وارتبطوا بأفكارٍ وغاياتٍ سامية.

(١١٨) **جامع معمر بن راشد**، ١١/١٧٢؛ **مسند الإمام أحمد**، ٢٨/٦٥٤؛ البيهقي: **شُعب الإيمان**، ١٠/٤١٧.

الدفعُ بالتي هي أحسن وسلامةُ الطريق

إن الخيرَ المبذول يؤثِّرُ لا في البشر فحسب وإنما حتى في ثعابين "الكوبرا" فيجعلها تراقَصُ طربًا، وقد رأيتم في الأفلام الوثائقية كيف تراقصُ تلك الثعابين على نغمات "الناي"، وبما أنَّ ثعبان الكوبرا حيوانٌ أصمُّ لا يسمع صوت الناي، غير أنه حين يرى أصابِعَ عازفِ النايِ تتراقصُ على متنِ الناي، وأنها لم تُصَبْ بضررٍ فإنّها تبدأ تتراقصُ وتَطْرَبُ، وحين يختلُّ المظهرُ الذي يجعلُها تتراقصُ فربما تلدَغ، لكنَّ ذلك نزرٌ نادرُ الحدوث، لأنه لو كان كثيرًا لما شَهِدَ هذا العملُ رغبةً شديدةً بهذا القدر فيما أظنُّ.

وخلاصةُ القول: إن الله ﷻ قد أنعم حتى على الحيوان بمثل هذا الحسّ والشعورِ في مواجهةِ أوجُهِ الخير الموجهة إليه، ومن ثم فعلى الإنسان أن يستفيدَ مما أُودِعَ فيه من قابليّاتٍ ويَسِيرَ وفقَ منهج ومعنى "أَحْسِنْ إِلَى مَنِ اتَّقَيْتَ شَرَّهُ"، فلا ريبَ أنَّه ينبغي التحلّي بهذا الخُلُقِ بشكلٍ إراديٍّ في سبيلِ حمايةِ تناغمِ وسعادةِ المجتمعِ عامّةً، وإخمادِ نارِ الحقدِ والبغضِ والفتنةِ، وإطارُ هذا التصرّف محدَّدٌ بِبَذْلِ التضحيةِ في الحقوقِ الشخصية، وإلا فإن السكوت على الظلم حيث يتعَلَّقُ الأمرُ بحقِّ العامة والاشتراكَ فيه بالسكوت عنه يضعُ الإنسانَ في موضعِ الشيطان الأخرس، وهذا تصرُّفٌ لا يليق بالمؤمن ألبتة، غير أنه إن أمكنكم حين تستدعي الحاجة -أي في مواجهة مَن أشهَرَ رمْحَهُ، وتقلَّدَ حربتَهُ مغتاظًا سائرًا عليكم كي يقتلكم- أن تقولوا "هلمّ يا صاح، لأحتضنك!"، واستطعتم بذلك أن تجعلوه يُغمِدُ سيفَهُ

ويعيـدُ رمحَـه وحربتَه القاتِلَين إلـى مكانيهما فَذَاكَ، وعلـيَّ أن أُكَرِّرَ أنَّ مثـل هـذا التصـرُّف مهـمٌّ أهميَّـة قُصـوى في حـلِّ مـا نُعانيه من مشكلات معاصرة.

الأمور الواجبات في مواجهة المزاعم والافتراءات

سؤال: أخبر القرآن الكريم أنَّ فرعون ومَلَأَه قالوا في حق موسى عليه السلام: **﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۞ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾** (سورة الأَعْرَافِ: ٧/١٠٩-١١٠)، (سورة الشُّعَرَاءِ: ٢٦/٣٤-٣٥)، **وأرادوا بذلكَ تضليلَ الناس واتّهامَ رمزِ الأمنِ والأمان سيدنا موسى** عليه السلام **بأنّه صاحبُ أجَندة سرّيّة ويُمَثِّلُ خطورة على حكمهم؛ وفي يومنا هذا أيضًا تَختَلِق بعضُ بُؤَرِ الشر افتراءات وأكاذيب باستمرار؛ تمامًا كما فعلَ فرعونُ وملَؤُه؛ حتى تُكوّن شبهاتٍ مماثلة حول ما يضطلعُ به المؤمنون حاليًّا من أعمال خيريةٍ، فماذا يجب على المؤمنين فعله في مواجهة هذا الموقف؟**

الجواب: على المؤمنين بحسب قيمهم الأساسية ألا يُغيِّرُوا تصرُّفاتهم وفقًا للظُّروف والأحوال التي تطرأ، وأنْ يعلموا جيِّدًا أنَّ شرفهم يتمثَّل في أسلوبهم أثناء مواجهة أكثر الاعتداءات غدرًا وجورًا، وينبغي لهم أن يثبتوا على الطريق المستقيم دائمًا كما هو شأنهم في غير أوقات المحن والأزمات، لدرجة تكفلُ لِمَنْ يبغي استقراءهم وفهمَهم ألّا يَجِدَ أبدًا أيَّ تناقضٍ يُشكِّل نوعًا من الريب والشك في الأذهان، وإلا فلا يوثق فيهم، وبالتالي يستحيل عليهم أن يحقِّقُوا تقدُّمًا في إبلاغ الآخرين إلهاماتِ أرواحهم.

العواصفُ الشديدة وأشجارُ الدُّلْبِ الصامدة

أجـل، ينبغـي للمؤمن في مواجهة ما يتعـرَّضُ له من حوادث ألا يكـون كأوراق الشـجر التي تذروها الرياح، بـل يجب عليه أن يتمثل موقفًـا ثابتًـا دائمًـا لا يتزعزع، مثله فـي ذلك مثل الأشـجار الضاربة جذورهـا في أعمـاق الأرض، وكما يُحدِّثُنا علمـاءُ النبات فإن هناك أشـجارًا في بعض البلاد سرعان ما تنقلـع بسبب ضعفِ جذورِها إذا مـا هبَّتْ ريحٌ عاتيةٌ أو نـزلَ الثلجُ بكثافةٍ أكثر، حتى إن لِينَ التربة قد يكـون سـببًا كافيًا لتهاوي هذه الأشـجارِ وتحطُّمهـا دون حاجة لأيِّ سـببٍ خارجيٍّ، أما في بعض البلاد فهناك أشـجارٌ تضرب بجذورها -ربمـا كي تعثـرَ على الماء- بضعةَ أمتار فـي أعماق الأرض، وبهذه الطريقـة فإنّهـا تصمـدُ وتكـون أكثـر ثباتًـا ومقاومةً رغـم العواصف الشديدة، وهكذا ينبغي للإنسان المؤمن أن يكون.

أمـا مَنْ يُغيِّرون مواقفهم باسـتمرار بحسـب طبيعة الظروف التي يتعرَّضون لها: سـواء أكانت لهم أم عليهم، ويُجسِّـدون مواقف نفعيّة تـدورُ مع المصالحِ حيثمـا دارت؛ فإنّهم يفقدون أمانتهم عند الناس بعد فترة ما فلا يثقون فيهم، فلا بدَّ من الصمود والثبات على الموقف والمحافظـةِ على المنهج الصحيح لِكسـب ثقـة الناس، ينبغي ذلك؛ لدرجـة أن مـن جَـسَّ نبضكـم وسـمع دقَّـاتِ قلوبكم قبلَ عشـرين سـنة يجد نفـسَ النبضـات والدقّات حيـن يُعيد اليومَ جـسَّ نبضِكم وسماعَ دقّات قلوبكم لا تتغيَّر رغمَ ما تتعرضون له من شتى صنوف الابتلاءات والأزمات والضغوط والنوازل والمحن.

أوليســت لدينا أية مشــاعر من الانفعال والتأثُّــرِ؟ لا ريب أنَّ مثل هذه المشــاعر والأحاسـيس قـد تَعصِفُ بداخلنا بيـن الحين والآخر باعتبارنا بشرًا، غير أنه يجب علينا أن نسيطر عليها ونستخدِمَها ضمنَ الدائرة المشـروعة دائمًا؛ فقد منح اللّٰهُ تعالى الإنسانَ الإرادةَ والقدرةَ على ذلك.

سرُّ حسن القبول الملحوظ في مختلف المناطق الجغرافية

هنا أحاول أن أوضِّحَ ما قلتُهُ بمثالٍ مشـخّصٍ فأقول: تعلمون أنَّه ما إنْ تخَرَّجَ شـبابٌ في عنفوان شبابهم من الجامعات في التسعينات حتى انفتَحوا على ربوعٍ مختلِفَةٍ من العالم، وهنا أستطردُ قليلًا فأقول: ليس صحيحًا تزكيةُ الناس مطلقًا؛ لأن اللّٰه ﷻ قد يضرب وجوهنا في الآخرة بما نتفوَّهُ به من كلماتِ ثناءٍ ومدحٍ بحقِّ أيِّ شخصٍ ما لم يكن في وضـعٍ وقوامٍ يستحقُّ عليه الثناء حقًّا، ولهذا السبب فإنه لا بدَّ من الحفاظ على التوازن دائمًا حين نُحسن الظنَّ بأحدٍ، وكما أنَّ تجاهلَ هـذه النوعية من التضحيات المتحقِّقة نُكـرانُ قدرٍ بَيِّنٌ وعجرفةٌ؛ فإن تلمُّسَ بعض النيات السلبية وراء تلك التضحيات اختلالُ توازنٍ آخر وسوءُ ظنٍّ صُراح.

وبالعـودة إلى موضوعنـا الأصلي نقـول إن الأرواح التي نذرت نفسها قد انفتحت منذ أكثر من عشرين سنة ولا تزال تُواصِلُ الانفتاح علـى مناطـق جغرافيـة مختلفة فـي العالم مـن أجل إبـلاغ الآخرين بإلهامـات قلوبهـا، وبالرغم مـن وقوع مجموعة من المشـكلات في بعـضِ البـلاد فـإن عدد الـدول التي ذهبـوا إليها يربو اليـوم عن مائة وسـبعين دولـة، ولهـذا يجب ألا نسـتكثر المشـكلات التـي تحدث

في بضع بلاد، وإنني على قناعة بأنَّ مَنْ انفتحوا على أنحاء مختلفة من العالم بدفعِ الله إياهم يحظَون بحسن القبول والترحاب هنالك بسبب نهجهم مواقف وتصرفاتٍ ثابتة على الطريق المستقيم. أجل، إن من تجسَّسوا نبضهم باستمرار أدركوا أنهم لم يتغيروا، وقالوا: "إننا نرى ونسمع هؤلاء الناس منذ سنوات، ولم نر في أجنداتهم شيئًا سوى خدمة البشر، إنهم يتنفَّسُون القيم الإنسانية فحسب".

قلنا مائة وسبعون دولة، هذا يعني مائة وسبعين بيئة ثقافيّة مختلفة، ومن ذهبوا إلى تلك الأماكن من الأرواح التي نذرت أنفسَها للحق لم يتمكَّنوا من الحصول على أية محاضرات ولا معلومات كافية عن خصائص وسمات تلك البيئات الثقافية قبل أن يذهبوا إليها، غير أنهم كانوا يمتلكون ضميرًا واسعًا واعيًا بحيث يحتوي الإنسانيّة جمعاء، أي إنهم كانوا يسيرون في إثر حسٍّ واسعٍ امتلكه أمثال كلٍّ من يونس أمره وجلال الدين الرومي وأحمد اليَسَوي والأستاذ بديع الزمان، فماذا كان ذلك الحسُّ والشعور؟ لقد كان شعور إيصال الإنسانية جمعاء إلى شاطئ السلامة، فبهذا الشعور والارتباطِ الدائم بالقيمِ الإنسانيّة لاقوا حسن القبول والترحاب حيث ذهبوا، وتربعوا في قلوب مخاطبيهم بإذن الله تعالى وفضله.

الانفتاح المؤثر في الأنفس مرهونٌ بالثبات الدائم

تُعْرَضُ على الشاشات اليوم عبرَ عديدٍ من الأفلام الوثائقية والبرامج التجاربُ والخبراتُ المكتسَبَة في مسيرةِ الانفتاح هذه، وتُسْرَد حكاياتُ أولئك المهاجرين وقصصُهم في سبيل خدمة القيم الإنسانية ، غير أنه لا يستطيع أيٌّ من تلك البرامج والأفلام

أن يعكسَ بالضبطِ ما وقعَ من أحداث وخِيضَ من تجارب، وما عِيشَ في ذلك الوقت من مشاعر وأفكار بكل رَحَابَتِها وعُمْقِها؛ لأن من نذروا أنفسَهم سلكوا طريقَهم بِصِدْقٍ وإخلاصٍ وعدم تشوف لأيّ أجرٍ، حتى إنهم ظلّوا حيث ذهبوا شهورًا أحيانًا دون أن يحصلوا على ما يتقوَّتون به من مالٍ؛ ولقد حدثَ ذلك عندما لم تكن تسمحُ ظروفُ من يدعمونهم من المتطوِّعين في تركيا؛ فكانوا يدبرون أمورهم بقدرٍ قليلٍ من المال يُقيمُ أَوَدَهم بالكادِ، وعملوا أحيانًا في بلاد الغربة كأُجَراء، وبهذا تدبَّروا أمرَهم، ومن ثم رأى مخاطبوهم تصرُّفاتِهم الصادقةَ تلك فصدقوهم من صميم قلوبهم.

وإنني لأسأل الله تعالى أن يثبتهم اليوم أيضًا على الإيمان والإخلاص والصدق والوفاء! لأن استمرارية حركة كهذه بدأت حين بدأت بصدقٍ وإخلاصٍ ووفاءٍ حقيقيٍّ مرتبطٌ بالحفاظ على ذاتِ الموقِفِ صامدًا شامخًا؛ فأحيانًا ما يؤدِّي التناغمُ والاتّساقُ الرتيبُ في نظامٍ إلى نوع من العمى -لا قدر الله-، وإن النجاح والتوفيق المتحقق أحيانًا ما يدفع الإنسان إلى الغرور، أو يتسبب في أن يُسلم نفسه إلى الراحة والكسل، وأحيانًا أخرى يُرجع الإنسانُ محاسن الأمور التي تحققت نتيجة لتصرفاته وسلوكياته الشخصية -بالنظر إلى الأسباب الظاهرية- إلى استعداداته ومَلَكَاته الشخصية وإلى فطنته الرفيعة وأفكارِه الحكيمة، في حين أنَّ كلًّا من هذه الأشياء مثله كمثل فيروسٍ قاتلٍ يتسلّلُ إلى الجِسمِ، وبوسعها جميعًا أن تهدمَ البنية الأساسية ما لم تُتَّخَذْ التدابير اللازمة.

ولهـذا فالجِـدَّ الجِـدَّ فـي الحفـاظ علـى الكيفية والمنهـج، إلى جانـبِ التضـرُّعِ إلـى الله تعالى بـأن نقول: "اللَّهُـمَّ يَا مُقَلِّـبَ الْقُلُوبِ ثَبِّـتْ قُلُوبَنَا عَلَـى دِينِكَ"، ونلزم الدعاء طلبًا لذلـك فنقول: "اللَّهُمَّ يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا علَى طَاعَتِكَ"، ونلح في طلب ذلك حتى لا نَنْزلق ولا ننخدع ولا ننخرط في السبل الخاطئة الضالة.

ولقـد خُتِـم مقام النبـوة بنبوَّة الرسـول الأكرم سـيدنا محمد ﷺ، وليس لأحد نبوة ولا رسالة من بعده أبدًا، غير أن للإنسان -بل عليه- أن يسـير علـى هديه وفي طريقـه ﷺ وعلى منهجـه النبوي، وبصدق وعصمة وعفة وحكمة وفطنة عالية، وأن يتعقب أفق النبوة والرسـالة شـبرًا بشـبر، فمن المرجو أن يتسـنى بفضل منهجٍ وسبيلٍ يتخذ على هذا النحو سـدُّ الطريقِ أمام طرح الآخريـن مجموعة من التحليلات والتفسيرات الخاطئة بشأننا.

التشوُّف رِقٌّ

يجب علينا أيضًا أن نَقْتَنِصَ كلَّ فرصةٍ للإفصاحِ عن عدمِ تشوُّفِنا لأيِّ شـيء سـوى رضـا الله تعالـى، ويجـب أن نثبـتَ ذلـك ونؤكِّده بتصرُّفاتنـا وسـلوكيّاتنا، فإن عَلَّـقَ من نذروا أنفسَـهم لخدمة الإيمان والقـرآن ما قاموا به من خدمات على تشـوُّفات دنيويّة فسـيضطرُّون لدفـع مقابـلٍ لـكل شـيء يحصلـون عليه في سـبيل تلـك الخدمة، ويكونون بفعلِهم ذلك قد ضيَّقوا مجالات تحرُّكاتهم؛ لأن كلَّ تشوُّفٍ ينتقص من حرّية الإنسان.

وعليه فإنه حريٌّ بهذه الأرواح النيرة أن تنأى تمامًا عن كلِّ تشوُّفٍ مـن شـأنه أن يُقيِّـدَ حرِّيَّتَها، وأن تُصِرَّ على عـدم الدخول في أيِّ نوع

من الارتباطات والالتزامات، ولا ريب أن لكل إنسانٍ صوتًا في سياسة بلده في الاتِّجاه الذي يراه مناسبًا لمصلحة الدولة والأمة، وهذا لا يعني الارتباط والالتزام بحزبٍ ما دون قيدٍ أو شَرْطٍ، فعلى هذه الأرواح المباركة حين تختار اختيارًا سياسيًّا معيّنًا ألا تُسْلِم إرادَتَها أبدًا لأيَّةِ منظَّمةٍ سياسيّةٍ كانت، وألا تسمَحَ بتاتًا بالمساسِ بحرّيَّتِها وإرادَتِها الحرَّة، فَسِرُّ حمايةِ الحرّية وصيانتِها يكمنُ في العبوديّة لله تعالى فحسب، فمن أسلَمَ نفسه للعبودية لله فقد ملك حريته الحقيقية كاملة غير منقوصة، وتخلَّصَ من عبادة العبادِ بعبادَته ربَّ العِبادِ، وإلا فقد حَطَّم الإنسانُ حُرِّيّتَه وفقَدَها.

ناهيكم عن التشوُّفات الدنيوية، فأبطالُ الغايات المثالية يجب عليهم ألا يتشوَّفوا -بما يقومون به من أعمال الخير- ولو حتى إلى الجنة؛ إذ ينبغي لهم أن يطلبوا الجنةَ من فضل الله تعالى، وذلك -على حد تعبير الأستاذ بديع الزمان- لأن القيام بتكاليف العبودية ليس للحصول على نعمٍ ومكافآت آتية بل شكرًا لما حظينا به من نعم ومكافآت سابقة، فينبغي للإنسان أن ينشد الله فحسب، وأن يعدَّ كلَّ طلبٍ سواه ترجيحًا للفناء على الخلود.

ولكنه وبالرغم من تحرك هؤلاء الأخيار وفقًا لهذه المعايير فإن من استولوا على إمكانيات معينة ويعيشون جنون العظمة لدرجة المرض به قد يسعون لتضييق مجالاتهم، ويُلبسون المسألة لباسًا دينيًّا بِهَمْزِ الشيطان وتسويله، ويرغبون في استغلال جميع الإمكانيات من أجل مَلْءِ خزائنهم الشخصية وجيوبهم الخاصّة فحسب، حتى إن من يبدون وكأنهم أقوياءُ الإيمان، بل ويقضون معظمَ حياتهم

في التكايا والزوايا ربما يلهثُون وراء هذه النوعية من المنافع الصغيرة البسيطة. أجل، إن من يعيشون جنونَ العظمة خوفًا من فقدان ما نالوه وحصلوا عليه قد يرون حتى مجرد اجتماع الحمائم في مكانٍ ما تهديدًا لهم؛ وذلك لأنهم ركزوا تمامًا على مصالحهم ومنافعهم الشخصية؛ فيشعرون بالقلق من تجمعها وتدور بأذهانهم وساوس من قبيل: "تُرى هل يطمع هؤلاء في مناصب وأشياء معينة؟".

الفاسدون لا يرغبون في وجود أناسٍ صالحين من حولهم!

ونتيجة لهذه الحالة الروحية فإنهم لا يرغبون في رؤية أناس أعفّاء شُرفاء مستغنين عن الدنيا وما فيها من حولهم، حتى إنهم يشعرون بالانزعاج من وجودهم، ويُفَضِّلون مَن هم من نفسِ طينتهم وعقليَّتهم حين يقومون بعمل ما أو يُكوِّنون محيطًا ما، ويرغبون بهذه الطريقة في تأمين أنفسهم، ويرون ضرورة أن يحيط بهم دائمًا من يفكرون مثلهم فحسب؛ حتى لا تنفضحَ عيوبُهم أو يعرفَ الآخرونَ مساوئَهم يومًا ما، ولأنهم يرغبون في إخفاء لصوصيّتهم وسرقاتهم وعدم كشفِها أبدًا فإنهم لا يطيقون أصلًا أن يوجدَ بينهم من يستنكرون العيبَ ويرفضونه، وقد قال رسولُ الله ﷺ: "**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**"(١١٩).

أجل، إن الأدناس لا يرغبون في أن يروا حولهم من يعيشون بعصمة وعفة، ويلتزمون الصدق والتضحية، ويحافظون دائمًا على نزاهتهم وطهرهم، لكن مع هذا كله فإنّه ينبغي للأرواح التي نذرت

(١١٩) **صحيح البخاري**، الأنبياء، ٢؛ **صحيح مسلم**، البر والصلة، ١٥٩.

نفسها لخدمة الإيمان والقرآن ألا تحيد عن الطريق المستقيم حتى في مواجهة هذا النوع من الظلم والعدوان، وكما أنها متوازنة معتدلة في مشاعر كالقوة العقلية والقوة الغضبية والقوة الشهوية؛ فعليها أيضًا أن تحافظ على توازنها واعتدالها في نضالها وكفاحها عندما تتعرض لِحَسَدِ الآخرين وطمعهم وحقدهم وبغضهم.

الحفاظ على التوازن في مواجهة فاقِدِيه

إن المهارة الحقيقية هي التمكن من الحفاظ على التوازن في مواجهة من فقدوا توازنهم، فمثلًا قد يتعدَّى عليكم البعضُ حَسَدًا وحقدًا، وقد يثورون ويتهيجون عليكم خوفًا من أن يفقدوا في المستقبل بعضًا مما في أيديهم من إمكانيات وميزات، وهنا يكون من المهم جدًّا ألا يُقابَل فعلُهم بمثله، وألَّا يُسمح بأن تجول في الأذهان هذه النوعية من السلبيات، وألا تُعطى الفرصة لها أن تسري إلى الخلايا العصبية، ولا بدَّ من ردِّها كما جاءت؛ فليس المهمُّ هو احترام الناس حين يُحبُّونكم ويصفقون لكم، وإنما القدرةُ على قول: "اللهم أَسْعِد من لا يرغبون في سعادتي، وحقِّقْ مراد حتى من لا يرغبون في تحقق مُرادي"، حتى بالنسبة لمن لا يتقبلونكم وينزعجون من وجودكم، وإن التوازن والاتزان في عالمنا الذي يسود فيه هذا القدر من اختلال التوازن يبدو أمرًا بالغ الأهمية.

وقد نزلت الآية الكريمة: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** (سورة الْمَائِدَةِ: ٥/٢) في العهد المكي؛ إذ لم يبق نوع من أنواع الظلم والعدوان إلا وارتُكِبَ ضدَّ

رسـول الله ﷺ والمؤمنيـن، وفي هذه الآية أُمِـرَ المؤمنونَ بالصَّبْرِ وأن تتَّسِـعَ قلوبهم وضمائرُهم لكلِّ تلك الأحداث، وألا يقابلوها بالمثل، وبالتالـي فإنـه يجبُ ألا ينصرفَ المؤمنون عن العدل والحقِّ بسـبب تصرُّفات وسـلوكيات شـنيعة؛ فظلمُ الآخرين وجورُهم لا يجيز لكم أبدًا أن تظلموهم، فأنتم أيها المؤمنون مطالَبون بالعَدْلِ دائمًا أبدًا.

وإن شُنّت ضدكم حملة من التشويه والافتراء، وارتكبت المظالم بشـأنكم دائمًـا، وأُثيرت أسـوأ المزاعـم والافتـراءات ضدكم صباح مسـاء؛ فَيُمْكِـنُ في مثـل هذا الموقف توضيحُ الأمـر أو تصحيحُه أو تكذيبُه بحسـب ما هو مُثار، ويمكن كذلك اسـتخدامُ حقِّ التعويضِ، غيـر أنه يجب علينا حتى ونحن نسـتخدِمُ هذه الحقـوق أن نتمثَّلَ ما تفرضـه علينا شـخصيّتنا وسـماتنا الخاصة، وعلى النحـو الذي يليق ويجدر بنا، وما يقـع على عاتقنا نحن هو أن نتحرَّكَ دائمًا وأبدًا وفق ما تقتضيه هويّتُنا الخاصة؛ فحقًّا ﴿**كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**﴾ (سورة الإِسْرَاءِ: ١٧/٨٤).

مصادر

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)؛ **سنن أبي داود** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٣)؛ دار السلام، الرياض.

أبو يعلى، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي الموصلي (ت: ٣٠٧هـ)؛ **المسند**؛ تحقيق: حسين سليم أسد؛ دار المأمون للتراث، دمشق، ١-١٣، ط ٢، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)؛ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**؛ دار السعادة، مصر، ١-١٠، ط ١، (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م). [ثم صورتها عدة دور منها: ١- دار الكتاب العربي، بيروت، ٢- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٣- دار الكتب العلمية، بيروت (طبعة (١٤٠٩هـ) بدون تحقيق)].

ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان ابن خواستي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)؛ **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ مكتبة الرشد، الرياض، ١-٧، ط ١، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين بن الأثير (ت: ٦٣٠هـ)؛ **الكامل في التاريخ**؛ تحقيق: عمر عبد السلام تدمري؛ دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١-١٠، ط ١، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت: ٢١٣هـ)؛ **السيرة النبوية**؛ تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي؛ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، ١-٢، ط ٢، (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م).

ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)؛ **الإصابة في تمييز الصحابة**؛ تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٨، ط ١، (١٤١٥هـ).

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت: ٢٧٣هـ)؛ **سنن ابن ماجه** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٦)؛ دار السلام، الرياض.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت: ٧١١هـ)؛ **لسان العرب**؛ دار صادر، بيروت، ١-١٥، ط ٣، (١٤١٤هـ).

ابن نجيم، زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المصري (ت: ٩٧٠هـ)؛ **الأَشْبَاهُ وَالنَّظَائِرُ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيْفَةَ النُّعْمَانِ**؛ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء البصري البغدادي (ت: ٢٣٠هـ)؛ **الطبقات الكبرى**؛ تحقيق: محمد عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٨، ط ١، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت: ٤٦٣هـ)؛ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**؛ تحقيق: علي محمد البجاوي؛ دار الجيل، بيروت، ١-٤، ط ١، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت: ٥٧١هـ)؛ **تاريخ دمشق**؛ تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي؛ دار الفكر، ١-٨٠، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

الأوشـي، علي بن عثمان بن محمد بن سـليمان، أبو محمد، سـراج الدين التيمي الأوشي الفرغاني الحنفي (ت: ٥٦٩هـ)؛ **بدءُ الأمالي**.

أحمـد بـن حنبـل، أبـو عبـد الله أحمـد بـن محمـد بـن حنبـل بـن هلال ابـن أسـد الشـيباني (ت: ٢٤١هـ)؛ **مسـند الإمام أحمـد بن حنبل**؛ مؤسسة قرطبة، القاهرة ، ١-٦.

ـــــــ، **فضائـل الصحابـة**؛ تحقيـق: د. وصي الله محمد عباس؛ مؤسسـة الرسالة، بيروت، ١-٢، ط ١، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

البـزار، أبـو بكـر أحمـد بن عمرو بـن عبد الخالـق بن خلاد بـن عبيد الله العتكـي (ت: ٢٩٢هــ)؛ **مسـند البـزار**؛ تحقيـق: محفـوظ الرحمن زين الله (من ١ إلى ٩) وعادل بن سـعد (من ١٠ إلى ١٧) وصبري عبد الخالق الشافعي (١٨)؛ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١-١٨، ط ١، (٢٠٠٩م).

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبـو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)؛ **شـعب الإيمـان**؛ تحقيق: الدوكتور عبد العلي عبد الحميد حامد؛ مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ١-١٤، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

ـــــــ، **السنن الكبرى**؛ تحقيق: محمد عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٣، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

ـــــــ، **السـنن الصغـرى**؛ تحقيـق: عبـد المعطـي أمين قلعجـي؛ جامعة الدراسـات الإسـلامية، كراتشـي، باكسـتان، ١-٤، ط ١، (١٤١٠هـ/١٩٨٩م).

ـــــــ، **معرفة السـنن والآثار**؛ تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي؛ جامعة الدراسات الإسلامية كراتشي، باكستان؛ دار قتيبة، دمشق، بيروت؛ دار الوعي، حلب، دمشق؛ دار الوفاء، المنصورة، القاهرة، ١-١٥، ط ١، (١٤١٢هـ/١٩٩١م).

البخـاري، محمـد بـن إسـماعيل أبـو عبـدالله البخـاري الجعفـي (ت: ٢٥٦هــ/٨٧٠م)؛ **صحيـح البخـاري** (موسـوعة الحديث الشـريف الكتب الستة-١)؛ دار السلام، الرياض.

الديلمي، شيرويه بن شهردار بن شيرو يه بن فناخسو، أبو شجاع الديلمي الهمذاني (ت: ٥٠٩هـ)؛ **الفردوس بمأثور الخطاب** (مسند الفردوس)؛ تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٥، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي (ت: ٢٠٧هـ)؛ **المغازي**؛ تحقيق: مارسدن جونس؛ دار الأعلمي، بيروت، ١-٣، ط ٢، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ)؛ **تاج العروس من جواهر القاموس**؛ تحقيق: مجموعة من المحققين؛ دار الهداية.

الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه ابن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)؛ **المستدرك على الصحيحين**؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٤، ط ١، (١٤١١هـ/١٩٩٠م).

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت: ٣٦٠هـ)؛ **المعجم الأوسط**؛ تحقيق: طارق بن عوض الله ابن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني؛ دار الحرمين، القاهرة.

ـــــــ، **المعجم الكبير**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١-٢٥، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣٦٩هـ)؛ **تاريخ الطبري** (تاريخ الرسل والملوك)؛ دار التراث، بيروت، ١-١١، ط ٢، (١٣٨٧هـ/١٩٥٨م).

الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري (ت: ٢٠٤هـ)؛ **مسند أبي داود الطيالسي**؛ تحقيق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي؛ دار هجر ، مصر، ١-٤، ط ١، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

الإمـام مالـك، مالك بن أنس بـن مالك بن عامر الأصبحـي المدني (ت: ١٧٩هـ)؛ **الموطـأ**؛ تحقيـق: محمـد مصطفى الأعظمي؛ مؤسسـة زايـد بن سـلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسـانية، أبو ظبي، الإمارات، ١-٨، ط ١، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).

المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي ابن زيـن العابدين الحدادي ثم المنـاوي القاهري (ت: ١٠٣١هـ)؛ **فيض القدير شرح الجامع الصغير**؛ المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١-٦، بيروت، ط ١، (١٣٥٦هـ).

محمـد فتـح الله كُولن، **ونحن نقيم صرح الروح**؛ دار النيل، القاهرة، ط ٥، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ـــــــ، **قصـة حيـاة ومسـيرة فكـر**؛ دار النيـل، القاهـرة، ط ٢، (١٤٣٥هـ/٢٠١٤م).

مسـلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)؛ **صحيح مسـلم** (موسوعة الحديث الشـريف الكتب الستة-٢)؛ دار السلام، الرياض.

معمر بن راشـد، معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي مولاهم (ت: ١٥٣هـ)؛ **الجامـع**؛ تحقيـق: حبيـب الرحمـن الأعظمـي؛ المجلـس العلمي بباكسـتان، وتوزيـع المكتـب الإسـلامي ببيـروت، ١-٢، ط ٢، (١٤٠٣هـ).

نـور الديـن الحلبي، علي بـن إبراهيم بن أحمـد الحلبي، أبـو الفرج، نور الديـن ابـن برهان الديـن (ت: ١٠٤٤هـ)؛ **السـيرة الحلبية** (إنسـان العيـون) في سـيرة الأمين المأمـون؛ دار الكتب العلميـة، بيروت، ١-٣، ط ٢، (١٤٢٧هـ).

النسـائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شـعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت : ٣٠٣هـ)؛ **سـنن النسـائي** (موسـوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٢)؛ دار السلام، الرياض.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)؛ **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**؛ دار الفكر، بيروت، ١-٨.

سعيد النُّورْسِي، بديع الزمان (ت: ١٩٦٠م)؛ من كليات رسائل النور: **الكلمات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ــــــــ، من كليات رسائل النور: **المكتوبات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ــــــــ، من كليات رسائل النور: **اللمعات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ــــــــ، من كليات رسائل النور: **الشعاعات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ــــــــ، من كليات رسائل النور: **المثنوي العربي النوري**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ــــــــ، من كليات رسائل النور: **صيقل الإسلام**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ــــــــ، من كليات رسائل النور: **الملاحق**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ــــــــ، من كليات رسائل النور: **سيرة ذاتية**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

عبد الله بن المبارك، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التركي ثم المرْوزي (ت: ١٨١هـ)؛ **الزهد والرقائق لابن المبارك**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت: ٢١١هـ)؛ **مصنف عبد الرزاق**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ المكتب الإسلامي، بيروت، ١-١١، ط ٢، (١٤٠٣هـ).

عطية سالم، عطية بن محمد سالم (ت: ١٤٢٠هـ)؛ **شرح بلوغ المرام**.

القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (ت: ٩٢٣هـ)؛ **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**؛ المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، ١-٣.

التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني الشافعي (ت: ٧٩٣هـ)؛ **شرح المقاصد في علم الكلام**؛ دار المعارف النعمانية، باكستان، ١-٢، ط ١، (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: ٢٧٩هـ)؛ **سنن الترمذي**؛ (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٤)؛ دار السلام، الرياض.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت: ٥٠٥هـ)؛ **إحياء علوم الدين**؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٤، بدون تاريخ.

إشراقات الأمل

في دياجي الحزن والأسى



ما من دعوة فكريّـةٍ مخلِصةٍ على مرِّ الدُّهورِ وكـرِّ العصور إلا وتعرَّضت خلالَ سَـيرِها نحو غاياتِهـا العليـا إلـى كـمٍّ هائلٍ مـن العراقيل وحزمـةٍ كبيرة من الأشـواك، وما مـن قنديلٍ أُوقِـدَ بزيـتِ النقـاءِ والصفـاء إلا وتصـدّى له المُخرِّبون بمحاولاتِ الإعدامِ والإطفاء..

وإنّ الدعوةَ العظمى والداعيةَ الأعظمَ صلى الله عليه وسـلم مرَّ خلالَ مسـيرتِهِ النورانيّة على مثلِ هذه الأزمات، وَوُضِعَ في طريقِهِ مثلُ هـذه الأشـواكِ والعقبـات، إلـى أن كاد يزيغُ قلـوبُ فريقٍ، فسـمّى لـه ربُّه هـذه اللحظاتِ بـ"ساعةِ العسرة"..

وليس ببَعيدٍ ولا غريبٍ تعرُّضُ حمَلَةِ لوائهِ على مدارِ الزمان إلى ساعةِ عسرةٍ كما تعرَّضَ هو، ولكن بالمقابل فإنّ خلَفَ كلِّ ديجاةٍ إشراقًا ونورًا، وعقبَ كلِّ عسـرةٍ يسـرةً، كيف لا وقد قال تعالى: (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)!

وإنّ انبلاجَ الفجرِ بعـدَ دياجي الليل مرهونٌ بتيقُّـظِ الأرواحِ الناذرة نفسَـهَا لله، وتحقيق أعلـى درجـات الوعي لما تحملـه على عاتقها من مهمّةٍ جِدُّ حسّاسة...

دار النيل

22 جـ - جنوب الأكاديمية - شارع التسعين الشمالي - التجمع الخامس - القاهرة الجديدة - مصر

تليفون وفاكس: 391 379 25 02 2+ الهاتف الجوال: 01000780841 2+

www.daralnile.com info@daralnile.com